نادية الابرو

أرواح من رمال

رواية

سطور

نادية الابرو

أرواح من رمال

أرواح من رمال

بقلم : نادية الابرو

سطور
للنشر والتوزيع

أرواح من رمال

نادية الابرو

Spirits of sand

Nadia Alabru

الطبعة الاولى ٢٠١٧م

إصدار دار سطور للنشر والتوزيع

بغداد - شارع المتنبي – مدخل جديد حسن باشا

هاتف: ٠٧٧١١٠٠٢٧٩٠ – ٠٧٧٠٠٤٩٢٥٧٦ – Email: bal_alame@yahoo.com

جميع حقوق الطبع والنسخ والترجمة محفوظة للدار والمؤلفة نادية الابرو، حسب قوانين الملكية الفكرية للعام ١٩٨٨، ولا يجوز نسخ أو طبع أو احتزاء أو إعادة نشر أية معلومات أو صور من هذا الكتاب إلا بإذن خطي من الطرفين .

First Published by Dar Sutour For Publishing and Distribution
Baghdad - Iraq – Al Mutnabi street – Jadeed Hasan Basha Entry
Revised copyright © Dar Sotour And Nadia Alabru‘ The right of the Author of this work has
Been asserted in accordance with the Copyright‘ Designs and Patents Act 1988

هام : أن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها، أو محورها، أو الجهة الصادرة عنها، ولا تعبر بالضرورة عن راي الناشر.

ISBN: 978 − 1− 77322 − 469 − 5

كل عودة إلى الماضي مستحيلة،

وأن تقويم الماضي مستحيل

غابرييل غارسيا ماركيز

الفصـــل الأول (كاظم)

مســـاء الأحــد ١٤/ كانـــون الأول ٢٠٠٣

حجرة صغيرة خالية إلا من سريرين، وأسلاك من مغذٍ وجهاز تنفس يغطي أنف والدتي... ترقد وحيدة على سرير نحيل يصدر صريراً بين الحين والآخر... مغمضة العينين نائمة، هالني منظرها... لم أرها على هذا الحال أبداً حتى ظننت أن المرض قد خسر كل نزالاته معها وما عاد يجرؤ على الاقتراب منها.

هي المرة الأولى منذ سنين... ها إنا أجلس قبالتها أمعن النظر في زمن رسم خطواته بوضوح على قسمات وجهها الحنطي... أرى خطوطاً لم تكن موجودة من قبل فوق الفم وبجانب الذقن... خطوطاً لم أعهدها من قبل، تعلن إستياءها مني أو ربما توبخني... لا أعلم... الأحسن أن أبعد نظري... لكن عيني لم تستجب لي وأخذت تعد الخدوش والنتوء التي تعثرت على سطح يديها الذي كان ناعماً يوماً.

«لا أعلم ما بالي اليوم... حواسي لا تستجيب لي كما لا تستجيب تلك الخصلات على الاختباء من جانب حجابها، رغم

أني قد حاولت أكثر من مرة... وبهدوء إن أردها تحت الحجاب دون جدوى أصوات العيارات النارية مزامير السيارات لا يزال هادراً... إلاحتفال... حتى إحتفالاتنا لا تمر بيسر، طلقات الفرح تصيب كما طلقات الحقد ... حشود تواصل إلاحتفال... الفرح... النبأ السعيد... أتراه فعلاً سعيداً... وهل إنا سعيد؟... هل تذوق من هذا الكاس يا كاظم؟ أم إكتفيت... كأس واحدة تكفي... الماء مر بطعم الصدأ».

قطعت الممرضة الصمت حينما دخلت تقيس ضغط المريضة المستلقية بهدوء بعدها سألت:

- هل أنت ابنها؟

- نعم.

- كان أبوك معها... آه لقد تبادلتما الأدوار، بالفعل كان التعب بادياً على وجهه... حسناً فعلت يا بني... الأهل أثمن شيء في الوجود فلا تفرط بهما.

وتمعنت في وجهه منتظرة رده، الذي إكتفى بهز رأسه علامة على الموافقة.

- لديك عينا أمك البنيتين.

وتفحصت ساعة يدها وهي تردد لقد تأخرت إنتهى داومي منذ ساعتين (وأصاخت بسمعها مكرمشة عينيها المتعبتين) أخاف الخروج والسير وسط الحشود، من الظهيرة إلى الآن جاء عشرات المصابين.

- كم ساعتك أنت؟

- شارفت على السادسة.

- ستغدو أمك بخير فلا تقلق... أليس لديك أخت تبقى معها؟

- نعم لدي... أقصد لا.

إبتسمت الممرضة شفقة وقالت:

- المسكين... لا تخف يا ولدي بعد ساعات ستستفيق لقد أعطاها الطبيب دواء مهدئاً، وألقت نظرة سريعة على مريضتها وهي تتأبط عباءتها السوداء وقالت بلطف:

- أراك في الغد.

تمتم في نفسه كلمات لم تشغل نفسها بفهمها فقد كانت مستعجلة.

- إلى الغد.

وعاد جالساً الى الكرسي المعدني المهترىء الجلد بجانب السرير، دعك راحتي يديه ناشداً بعض الدفء، أعاد ترتيب

غطاء والدته، حاول رفع درجة حرارة المدفأة المعلقة على الجدار إلا أن القرص لم يستجب. لفح الهواء البارد مؤخرة رأسه فتنبه إلى النافذة الصغيرة المحاذية للباب وزجاجها المكسور «أوه نافذة... نافذة زجاجها متسخ مغبر. لكنه يفي بالغرض... إستطعت أن ألمحه وهو يمر سريعاً، الرجوع باكراً قبل الموعد... المدرسة.. إجتاز المعلم ساحة المدرسة تتشابك خطواته مع ظله... توفيت أمهُ... أمي أين أنتِ لقد عدت... إفتحي الباب... أماه... الزجاج غير أمن يا أماه، لا يحفظ الأسرار... لا يحفظ الأسرار يا أمي... وفتحتِ الباب»، ونهض نحو النافذة، واضعاً أحد كتبه على الزاوية المكسورة... هناك كانوا يضعون الورق المقوى والخرق البالية على النوافذ بدلاً عن الزجاج، نسترق النظر من الثقوب كما يدخل بصيص النور عبرها متسللاً... بلون الشهد عيناها عندما سقط الضوء عليهما... يلمعان كتلك النجوم البعيدة الخجلة كانت أول الأمر خائفة خجولة... تراقبني عن بعد... كل العيون الجميلة تراقب عن بعد... وحين سألتها إدعت عدم الإهتمام... أوه ماكرة... عذب مكرها... لم أعرف كيف أرد عليها... ماذا عساني إن أقول سوى «ألو» حين رن النقال.

رن النقال أكثر من مرة لم يتنبه له إلا لأخر مرة حين رفعه وقال:

نعم... لا تخف هي بخير صدقني لو لم تكن نائمة لهاتفتك بنفسها، لا تقلق غداً سأقلك إليها... تغطَ جيداً... الجو بارد هذه الليلة في الغد.... الغد.

وأغلق النقال ثم نفخ بين راحتي يديه (هذه الليلة باردة... لتحتك يدك بالأخرى هكذا... إستمري هكذا وستشعرين بالدفء... حمامتان بيضاوان تحلقان بين الضريحين في السماء الصافية... طويلة هذه الليلة، نغفو ونصحو في الليلة الواحدة عدة مرات... لا أطيق الظلمة... أصوات السعال الهمهمة، البكاء المبحوح... نشيج أمي... قلقها المتزايد علينا، عيناها المحمرتان طوال الوقت... ضوء أحمر خافت من عتبة الباب يلقي التحية قاطعة إياه أقدام الحراس المتناوبة... رائحة السكائر... رائحة المرض، رائحة العفن... رائحة المطهرات هذه توتر أعصابي)، ونهض من كرسيه محركاً قدميه في الفسحة المتبقية من الحجرة وأعاد ترتيب الغطاء محاولاً بهدوء إدخال يدها المربوطة إلى سلك المغذي تحت الغطاء «ضعيفة دافئة (وغمر نفسه شعور بالدفء إفتقده منذ سنوات

بعيدة وطفحت عيناه بالدموع بعدما ظن أنه قد تركها على عتبة طفولته) دافئة حين كانت تمرر أصابعها على شعري ووجهي... كنت أخاف النوم في الظلمة... لكن حينما أغمر رأسي في صدر أمي لا أرى إلا النور... فأنام»، ونظر بأتجاه السرير الفارغ فقاوم إغراءه.

الطرق مكتظة بالوجوه الفرحة... وجوه بلون الرعب والحجر... قافلة من الشاحنات... المكان يضيق بالأجساد وكوة صغيرة في الأعلى... رائحة العرق والخوف تبعث على الغثيان... تسير الهوينا تتلوى كأفعى تتوارى من حر شمس الصحراء، الساعات لا تنقضي طويلة... ضفيرة طويلة، وخصلات شقر تتهادى على جانبي وجهها حين كانت تبكي ظننت أن السماء تمطر... صافية بلون السماء، إشتعلت وجنتاها ورداً من شدة الحر لكنها نامت أخيراً مقرفصة تتكئ برأسها على كتف جدتها، ولا تزال تلك الرغبة تتملكني أحيانا كثيرة في إمساك جديلتها الذي ظل طرفها يحثني على اللعب معها، أردت مداعبتها بأناملي، إلا أن أمي أمسكت بيدي وأومأت عيناها بلا، فقبضت يدي على أصابعها لكن عينيّ بقيتا تتابعان لهو تلك الضفيرة... لا أعلم أنا الآخر كم غفوت

في حضن أمي؟... «كم تبقى من الطريق؟... إلى أين نحن ذاهبون؟... أمي»، كانت تتصبب عرقاً وحزناً.

بدأت خيوط الشمس بالانسحاب، خفت حرارة الهواء الذي بدأ يحمل بين ذارته ظلاماً زاد من خوف الأطفال وصراخهم.

بقيت زينب متشبثة بكُم قميص والدي المتسخ، الذي فقد ألوانه مثلما فقد صاحبه الكثير من وزنه فبدا عليه فضفاضاً واسعاً... كانت تفتقد وجوده بشدة وما أن رأته حتى تعلقت به كيد ثالثة... يرمقني أحياناً بنظرات متعبة... تبتغي أن تقول أشياء كثيرة لكنه لم يتفوه بأي شيء، إكتفى بعينين إسفتين ومحمرتين من شدة الحر والقلق.

- مساء الخير... هل المريضة والدتك؟

- نعم... والدتي.

- تبدو حالتها مستقرة. إذهب إلى البيت إذا أردت.

- شكرا... لكنني أحبذ البقاء معها.

-على راحتك... حجرة الممرضات في أخر الرواق، نادني إن إحتجت إلى شيء.

- نعم... وشكراً مرة أخرى.

- تستطيع إن تنام على السرير الآخر.

- نعم... نعم حين أشعر بالنعاس.

- تأثير الدواء لن يزول حتى منتصف الليل، فنم والدتك لن تصحو الآن.

«رغم الحر وصراخ الأطفال العطشى أخلد إلى النوم أغلب من كان في الشاحنة المظلمة، إلا من زاوية صغيرة في كوة السقف يتسرب منها قليلٌ من ضوء القمر الضال طريقه... الطريق صامت إلا من هدير الشاحنات الأربع الذي توقف فجأة بعد إن ظننا أن ليس من نهاية لهذا الطريق... فتحت أبواب الشاحنات كجهنم... نزلنا إلى العراء دفعة واحدة... الهواء حار ثقيل بالغبار... وجوهنا مطفأة... أمي تهمس لي أمسك بيدي لا تحاول الإفلات... زينب ترتجف ولم تطلق سراح كم قميص أبي بل إزدادت به تعلقاً وكأنها تدرك... الوجوه المطفأة ترتعش تحت ضوء القمر الكسول، تتساءل... أين نحن... واللا شيء يحيط بنا يثير الذعر في القلوب... النهاية... وأين النهاية؟... المجهول أصعب من النهاية... هذا الفراغ هذا العراء... أثار الفزع... لا بل الرعب... حاول البعض الصعود مرة أخرى إلى الشاحنات... كالمستعين من الرمضاء بالنار، صاح بهم الحراس ومنعوهم من الصعود...

طال الوقوف في العراء فافترشت النساء والأطفال الرمل ... لحق الإرهاق والتعب بالجميع... كم طال وقوفنا أو جلوسنا على الرمل، تلك ساعات طويلة أو ربما لا... لكنها بدت كأنها عمر... وضعت رأسي قرب صدر أمي ونمت... لم أكن أعي جيداً ما يدور حولي أو بالأحرى لم أهتم مادامت أمي قربي... أمي». وأخذ يتفقد وجه أمه المتعب والخطوط الجديدة الرفيعة التي إرتسمت عليه في غفلة من إهماله وإبتعاده.

«الوقت لا يمر... دوماً لا يمر حين تكون بانتظاره»، وحاول قراءة بعضٍ من محاضراته في كتاب الأحوال المدنية ساخراً «كم أنا غبي... فعلاً غبي... الأحوال المدنية وقوانينها، قانون... لا يوجد إلا قانون واحد... أدرك الآن كم أضعت من الوقت لأعرف أن هناك دوماً قانوناً واحداً... قانون واحد... تحاول أمي تضليلي عنه، ودفعي بعيداً، إكبر يا ولدي... ودافع عن الضعفاء والفقراء... وإسترجع حقوقهم المغصوبة... المغصوبة حقوقهم... وحقوقي يا أمي هل نسيتها؟ حقوقي يا أمي من يسترجعها لي؟... هل تنازلت عن حقكِ؟ كما تنازلت عن... ألا تعلمين أن من يعش مسلوب الحق لن يستطيع؟... لن يستطيع... أتسمعيني يا أمي، لن أستطيع»، وأغلق كتابه

ساخراً من كم القوانين وأصنافها في هذا الكتاب «ليس هناك سوى قانون واحد... قانون واحد... نعم لا أحتاج إلا لقانون واحد، ضاع الكثير من الوقت لأدرك هذه الحقيقة... كيف، كيف... هي إمام عيني ولم أبصرها... سامحك الله أمي... سامحك الله» ونهض من كرسيه ليرجع الكتاب إلى بقية كتبه وأوراق محاضراته، التي حملها معه مسرعاً حين هاتفه أمين، فلمح كراسة محاضرات غريبة بينهن فتحها... تمعن في سطورها وحروفها المنمقه تفيض صفحاتها بالألوان ... تبعث في النفس حب الاستطلاع والكشف عن ما وراء تلك السطور. جديلتها الشقراء تمازح أحيانا الأوراق فتصحو في داخلي رغبة قديمة، لكني أتذكر عيني أمي حين تقول لا... لا يجوز يا ولد، أمي لا تعلم... كم من مرة ساعدتها في تصفيف تلك الضفيرة، ولم الخصلات المتناثرة كشلال ماء... (جدتي ستوبخني على إفساده)...(دعيه مرتباً،لا أقوى على تصفيفه كل يوم)... (كاظم هلا ساعدتني)... ترتجف أصابعي السمراء بأظافرها المتسخة حين تمسك... تزعق بي وتلومني... (لا تنفع لشيء... لا تنفع لشيء...) رغم إني أحاول جاهداً معها إمساك ولملمة خصلاتها الهاربة كفرس بري... كاظم ما بالك؟

هيا ساعدني وإربطها ببعض... (إستطالت الجديلة ونزلت على الخصر، أفكر بقصها لاسيما بعد أن أرتدي الحجاب، أمي ترفض الفكرة أصلا)... وكذلك أنا، لم أستطع تمالك نفسي كيف تقوى على نقض العهد؟... وعدتني أن تحافظ عليهما... ووعدتها أن تبقى... حملت محفظة أوراقي هارباً... «تريد نقض العهد»... كاظم... كاظم... تعال ما خطبك؟ إلا أني مشيت مسرعاً عنها تاركاً إياها... «العهد... كيف تجرؤ؟» لم أذهب إلى الكلية مدة يومين، وفي اليوم الثالث جلست في آخر القاعة متحاشياً النظر نحوها خشية أن لا أجد الجديلة في محلها، واستمر الحال أياماً هكذا إلى إن فاجأتني واقفة أمام باب القاعة بانتظار خروجي... حاولت الهرب لكن حين نادت كاظم جف الدم في عروقي، إرتعدت فرائصي، تسمرت مكاني... (لا تخف لن أقصها، لكن أنوي إرتداء الحجاب بعد العطلة الربيعية... إزدادت المضايقات، وكأن شرف البنت مجدول مع ضفيرتها)

خبأ الدفتر المنمنم بين كتبه والمحاضرات مندهشاً من وجوده... كيف أتى معي دفترها؟... «ماذا سيقول علي لو لمحه عندي؟... كم يا ترى سيضحك ويسخر حين أخبره أني

حملته مع كتبي عن غير قصد... علي... علي... هذا الأحمق سيسخر مني... أنها تتابع تحركاتك ... تراقبك عن كثب يا صديقي... عيناها لا تبسمان إلا حين تقبل علينا... حظوظ ... يا عم حظوظ لا أعرف ما الذي يجذب فتاة مثلها إليك... حظوظ ... حظوظ» وأخذت ترن هذه الكلمة على سمعه حتى كاد يضحك بصوت عال مقهقهاً «أنا محظوظ... نعم أنا محظوظ... أه يا صديقي لو تعرف كم أن صديقك... الهواء حار كذلك الرمل، لكننا غفونا كقطيع من الخراف، ونام العطش والجوع معنا... خيم الصمت على الجميع... سكون... الليل... صفير الهواء بدوامات رملية تنثر حباتها فوقنا... بلون الحصى والتراب ورائحته كنا... إرتعبت... فغمرت وجهي في صدر أمي ونمت حالماً ببيتنا... القطة التي كانت تموء عند الباب، لعبة (الطاق) المخططة على الأرض، الباحة،

أصوات أزيز رصاص... مواء القطة المتزايد، بقع من الدم تلوث لعبة الطاق وزينب تبكي... تصرخ وأنا الآخر صحوت من نومي أبكي... لكن أمي هدأت من روعي وهي تقرأ عليَ البسملة وتقول حلم... إنه حلم... لا تخف يا ولدي وعدت مخبئاً رأسي في صدرها وغفوت».

تثاءب قليلاً وذهب نحو النافذة، حملق في السماء، كان القمر بدراً يتباهى بنوره على باقي النجمات «الكل يتباهى... يتفاخر... اليتيم إبن الشهيد مدعاة شفقة الناس... اليتيم إبن الشهيد، عرفت معنى اليتم وشعوره، وكذلك الحفاوة في يوم الشهيد، بابن الشهيد والتصفيق له، شعور متناقض لم أقدر على مجاراته، وإنا أرى زملائي وأقراني الطلاب مع آبائهم طوال العام... لأنتظر إنا يوماً واحداً في العام ليتذكروني... أنا إبن الشهيد... إي شهيد هو؟؟ وأي إبن أنا!... مسكين ذلك الشهيد... لم أفهم في البداية، إلا أن إمي قد إستحلفتني أكثر من مرة أن أحفظ هذا السر... حتى النهاية... حتى النهاية... إنه سر الأسرار...» وها هو يجثم فوق صدري يأكل من قلبي ويخنق روحي... هذا السر يا أمي (بهذا السر يا ولدي نستطيع أن نعيش... أن نعيش، ودونه لن نبقى على قيد الحياة ... أتفهم يا ولدي؟... أتفهم يا كاظم؟)

حقيقة لم أستطع فهم كل شيء... أو لم أود الفهم، ولم أنسَ ذلك الصباح، حين إقتدتني إلى المدرسة وفي غرفة المدير سمعت إسمي لأول مرة باندهاش شديد، ولولا أنك ضغطت بقوة على يدي وحدجتني بنظرة معناها أن أصمت لكنت ظننت أنكِ قد

أخطأت سهواً في تسجيل إسمي لدى المدير... وصمتُ يا أمي صمتُ... كلانا يعيش في ذل صمته... كرهت المدرسة أول الأمر... فكل شيء جديد عليَ... الأولاد، الصف وحتى الإسم يا أمي الذي أحاول أن أحفظه دون أن أخطئ عندما أكتبه... نعم غريب هو الاعتياد على إسم جديد دون أن تشرد لوهلة قبل أن تقول: نعم حاضر... سخطتُ منك في البداية... ما هذا الاسم الغريب يا أمي؟ إنا لا أحبه... لا أريد الذهاب إلى المدرسة بهذا الإسم (هذا هو إسمك الجديد يا ولدي... وهذا هو سرنا فلا تفشه لأحد... لأي أحد... عدني يا بني ... إقسم لي الآن.... إقسم يا بني...) أقسمت على الإبقاء على السر،عبوديتنا يا أمي... إنه سر عبوديتنا لا نجاتنا كما أفهمتني... لم يشعرا أو حتى عاملاني على أني إبن عمهم الشهيد... لم يتعاطفا معنا... تعاملا معنا كغرباء... أتساءل أحياناً... هل فعلاً صدقاً... هل إنطوت عليهم... لا أدري، ولم أعد أهتم لذلك منذ زمن طويل... تجاهلت وجودهما كما طلبتِ مني... كرهتهما... كرهت مضايقاتهما لي... لكني آمنت بأن تفوقي عليهم بالدراسة هو من سيحرجهما، وربما لهذا السبب إهتممت بالدراسة... إهتممت حتى ينتصر إبن الشهيد بالعلم لا

بالسلاح... سخرية، أي شهيد؟... أكنت أحمقاً يا أمي حين صدقت أن الحق ينتصر في النهاية؟ وهل تلك الزغاريد والأعيرة النارية المبتهجة هي إعلان لأنتصار الحق؟... تتداخل وتتزاحم الأفكار في رأسي... عقارب الساعة نعسة تترنح في دوران مطلق لا نهاية له... نهاية... نهاية... نعيش كل حياتنا في إنتظار النهاية... بدأنا لأجل أن ننتهي... النهاية هي الحقيقة الحتمية لكل الحقائق... نعم لكل الحقائق... حقيقة النهاية... نهاية الحقيقة، أظنني متعباً... كانت تجلس فرحة متحمسة، وأرادت أن... هل شعور الفرح يمنحنا القوة، الشجاعة؟... كانت فرحة هذا اليوم وأرادت أن تبوح... لكن الهاتف رن، وقطع عليها صوت أمين المضطرب، وعلامات الاستفهام والقلق التي إرتسمت على وجهي ما هيأت نفسها لقوله... فحملت محفظة كتبي ووليت هارباً منها وتذكرت المثل القائل (مصائب قوم عند قوم فوائد) وخجلت من هذه الفكرة... أمي هل حقا ما أنت فيه جاء بفائدة لي؟ حقاً أنا متعب، وبدأت أهلوس... أو أصحو من الهلوسة... لا أعلم ما الذي ألمَ بقلبك يا أمي... أهو الآخر لم يحتمل الفرحة؟... أفرحتِ حقاً يا أمي؟... هل كان هو الجاني وحده؟... أنها

فرحة مسروقة... يقول الطبيب أن دقات قلبك مضطربة وضعيفة... أرجوك أمي لا تكوني بهذه الطيبة أو الغباء... أرجوكِ... لم تقتصي حقك من الجاني بعد... (وما ضاع حقٌ وراءه مطالب)... علمتني أن أبحث عن الحق والحقيقة وأعيش لأجلهما فأي تناقض نحن فيه؟ الحق والحقيقة يالهذه السخرية المرة... الحقيقة والحق... سأعلق هاتين الكلمتين في برواز على حائط مكتب المحاماة الخاص بي في المستقبل حتى تسخرا مني كل الوقت ولا أنسى أن أسخر من نفسي... الحقيقة التي لم تطاوعني حين إستجمعت شجاعتي يوماً... وسخرت مني كما يسخر الآخرون ... خذلتني ونجت بنفسها من حمام الدم... نعم نجت وأنا غرقت... كنت فاقداً الوعي على نحو ما، إلا أني كنت أسمع نواح أمي وبكاءها المجنون، كادت المسكينة أن تفقد عقلها لأجلي... لامني ووبخني الآخرون... إلا هي، لكنها قالت لي عندما كنا في المستشفى وحدنا (إن فعلتها ثانية يا ولدي فسأقتل نفسي حالاً) لم تكن الكلمات العازمة التي خرجت من فمها مجرد تهديد، إرتعبت من الفكرة... إرتعبت من نبرة صوتها الصادقة والمصممة وهي تعني ما تقول حرفياً. لم أستطع تصور الحياة دونك أمي

رغم... رغم... الأمومة مشاعر صعبة لم أفهمها... لم أرغب أن تكوني ضحية أمومتك ... أنا لا أستحق أمي... أنا لا أستحقك ليتك تدركين، وليتني لم... الكل يهرب من الحقيقة... «حتى أنت يا كاظم هربت منها ونأيت بنفسك حين تكشفت لك... جبان أنت، الكل خانك... الكل خانك... حتى أنتِ يا أمي... كلا لست بجبان ... لم أكن يوماً جباناً». وراح يهز برأسه وكأنه ينفض هذه الفكرة عنه أو يهرب منها، وقام من كرسيه المحاذي لسرير أمه ليحرك قدميه التي برد الدم في عروقهما، وذهب ناحية النافذة الصغيرة. حاول النظر إلى الخارج لكنه لم يلمح شيئاً فأخذ يعبث بأوراق محاضراته، أراد أن يقرأ إحداها، لكنه مشوش كفاية ليفهم سطورها وحين لمحت عيناه دفتر محاضرات شهد، إرتسمت إبتسامة لا إرادية على طرفي فمه.

مسكينة هي الأخرى... ما من داع لتعقيد حياتها... أنا... نعم أنا أحاول أن أبتعد عن أنظارها، لكنها دوماً تجدني، حتى حين إختبأتُ بملابس زينب وحجاب وعباءة أمي كشفتني وقالت (سأتعرف عليك من عينيك) وهكذا خسرت أمامها في كل مرة... في كل مرة أخسر وتجدني بين طاولات نادي الطلبة أو

المكتبة (لدي مجسات تكشف عن مكانك) تمسك بيدي أحياناً كثيرة، تتشاجر مع زينب التي تغار منها (إنه أخي أنا... لا أنتِ... هو أخي)، فأضطر معظم الوقت أن أتوسطهما الجلوس، وأراعي مشاعرهما حتى إصبح كالخرقه كل واحدة تجرني نحوها... كرهت شجارهما وأحببت الدموع الماطرة من سماء عينيها حين تسألني (أحقاً تحبها أكثر مني؟...) أوه كم أحببت تلك العينين الماطرتين، حتى أني كنت أماطل في الاجابة... أصبح لئيماً معكِ، أراقب آخر دمعة تتسلل من رموشها الكثه متدحرجة لأسفل ذقنها بأنتظار أن أقول (أحب كلتيكما بنفس القدر). إلا أن قلبي الصغير ظل يهفو إليها، يفتقد غيابها... كرهت تلك الساعة من الليل من كل إسبوع... كرهت الليل صوت الألم المكتوم... الآهات المبحوحة ... البكاء القادم من بعيد، المتسلسل الينا مع ضوء المصباح العجوز المشنوق على عمود الرواق، من عتبة الباب... (أمي ماهذه الاصوات؟... من يبكي يا أمي؟... أرجوكِ لاتتركيني وحدي... أمي) وأمسك يدها ملتصقاً بها... أخاف أن تغمض عينيَ... صوت الليل مر... يعذبني كل ليلة... ولولا همسك بالصلوات عليّ... أوه وهذه ليلة آخرى طويلة (ودعك يدية

ليستجلب دفئاً طرده البرد خارجاً... أغراه السرير الآخر بالنوم، لكنه أرجأ رغبته، وعاد الى كرسيه مرة أخرى بعد أن تأكد من ترتيب غطاء والدتة المنغمسة في نوم عميق، ربما هي المرة الاولى منذ سنوات.

قطع صمت وحدته، الحجرة والرواق، صوت زعيق وصياح مجموعة من الشباب، جاءوا حاملين أحدهم جريحاً أصابتة إحدى العيارات النارية التي ضلت طريقها نحو السماء. فهرع خارج الحجرة الى آخر الرواق يتقصى الأمر... وبعد عشر دقائق رجع الى كرسيه ساخراً مما آلت اليه الأمور)

وكأننا خلقنا قرباناً للحزن والفرح.

دماؤنا رخيصة.

بقدر هذا الفرح.

بقدر هذا الفرح.

- أمسكتك ... ماذا تكتب يا كاظم؟

- لاشيء... لا شيء (وخبأت الدفتر، لكنها سحبته سريعاً من يدي)

- أتكتب الشعر ياكاظم؟

- لا... هي مجرد خواطر يتيمة، لا تهتمي للأمر.

مسكينة هذه الفتاة من أول سطرين حسبتني شاعراً... تبحث عن رجل فيَ... أنا نفسي لا ألمح ظلاله إلا مرات قليلة... نسيت من أنا ومن أكون... أنا لا أحب أنا... فكيف لك أن تجديه... (وقهقه ساخراً من قدره الذي جمعه بها).

بكاؤها أوجع القلوب وهي تنادي وتستغيث بلغة غريبة، عرفنا من جدتها التي كانت تحاول إسكاتها وإقناعها بكلمات أيضاً لم نفهمها، (إنها تسأل عن والديها) إلا أن والدتي بعد جهد أسكتتها عندما أقنعتها بالجلوس معنا أنا وزينب، ومع الوقت قلت نوبات بكائها وإفتقادها لوالديها. وجدت فينا ضالتها، لم تكن تتركنا وتذهب عند جدتها حتىٰ يُطفأ الضوء. (كاظم هل سنعيش هنا؟... وهل هذا بيتنا؟) كان الأحرى بكِ أن تسأليني (هل سنموت هنا؟... وهل هذا قبرنا؟) شيرين... شيرين لماذا لايزال صدى صوتكِ يتردد بين جدران الذاكرة؟ وعيناك تطارداني أما زلتِ تحبين لعبة الاستغماية؟ (مبتسماً قليلاً) وهل تغشين في العد كما كنت تفعلين دوماً؟ أخبريني هل نزلت الجديلة عن الخصر؟ وهل تعلمتِ ربط خصلاتها الهاربة؟ شيرين مر وقت طويل وذكراكِ... تفوح رائحتها على سنوات عمري... مراراً حاولت تعليمك أن تلفظي إسمي بالظاء وليس

بالزاي... كم أشتاق لسماعه منك، ونبرة صوتك الجميلة كازم... كازم... أوه كم كنت غبياً وكم كنت رائعة.

تحركت في سريرها قليلاً فانزاح الغطاء عن قدميها وآثار جرح يستقر هادئاً في الكاحل، لمحه وهو يسحب الغطاء على قدميها. آه أمي لم أنسَ ذلك الصباح وكيف تضرجت قدماك بالدم وأنتِ تركضين بنا حافية بين الحقول وأزيز الرصاص وصوت مدافع الهاون تلاحقنا أمي... لقد أرهقتكِ الحياة كثيراً كذلك نحن... كيف لم يفكر بعائلته؟... كيف إنقاد خلف مشاعره وثورته؟ حين إشترى تلك البندقية وخبأها خلسة عن أمي... أعد عدته ولم يضعنا في حساباته... أكنت انانياً أم متهوراً؟ أم شجاعاً دافع عن عقيدته بروحه؟... ألم يدرك النتائج وعاقبة مثل هذا الامر؟ أجعلتنا منذ البداية قرابين لثورتك؟... لا أنفك أفكر في هذه الأسئلة وأسئلة آخرى أحتاج الى جواب منكِ لعلي أبرر لكِ ماحصل... تزداد الهوة بيننا كل يوم... أحيانا أشعر أني نسيتك لكني دوماً أكذب على نفسي حين أظن ذلك... لم أعد أعلم إن كنت أشعر تجاهك بغير الغضب والحقد... ولست آسفاً ابداً... ما نحن إلا قرابين لثورتك... لحماس أطفأته القذائف التي حاصرتنا ولم تستجب

لاي نداء أو إستغاثة... آه أوشكنا على الموت لمسنا أعتابه مرات دون أن... حتى الموت أصبح صعب المنال عندما طلبته... عجزت عن الموت حين... إنهال التراب فغطى الأجساد المضرجة بالدم... تخافتت الصيحات المستغيثة، عم الصمت والظلام... أصوات عواء بعيدة ستجذبها رائحة الدم عما قريب... برودة... برودة وحشية تنهش بمخالبها الروح، تدوس على الأجساد، تشعر بحرارتها، تأوهات مبحوحة تتلاشى، وأنين لا يسعفه إلا التراب... من التراب والى التراب.

ليل الشتاء طويل (وتفحص ساعة يده) طويل يوقظ الذكريات، يطرق باب الحلم، ينهش بقايا أمل يشوش الحواس... فعلا حواسي مشوشة هذة الليلة كثيراً... كيف سأمضي بكَ؟.

«أمي... أماه أنا خائف... الأصوات قريبة والهواء البارد يمخر بين الأضلاع... دوامة ظلام، يتدثر القمر بأحدى السحاب نائماً... أمي الارض باردة لا أستطيع المشي... لا أستطيع فلنجلس هنا، أشعر بالنعاس، أريد أن أنام أريد أن أغفو كالآخرين... لماذا أخرجتنا أمي؟... أماه أشعر بالبرد دعينا نرجع اليهم... أصوات آهاتهم، تضرعاتهم الأخيرة تصل

الى مسامعي، فلنرجع اليهم يا أمي، وغطني بالتراب لعلني أدفأ مثلهم» ... لماذا يا أماه ... لماذا لا يزال برد تلك الليلة تصطك منه أوصالي الى الآن؟... لماذا أخرجتنا؟ ليس في الجحيم مكان أفضل من الآخر فلماذا؟ ما الذي حملك على ذلك؟ ألا تعرفين الأستسلام؟... هل كنت جندية أفضل منه؟... لقد سقط، أنا لمحته وهو يسقط من أول رصاصة، صرخت أبي... أبي لكن صوتي التهمته الحفرة قبل أن يسمعه، لقد سقط من أول رصاصة جاءت في صدره... سقط هو... سقطت أجساد أخرى عليه وقربه... أكنت محظوظاً حين أجلستني في تلك الزاوية الضيقة... ووقفتِ أمامي... في تلك الزاوية جلست منكفئاً على جسدي الصغير كحجارة أرقب بعيون... ملتهبة فزعة، الأجساد المتهاوية على بعض... العويل، نداءات الإستغاثة دون أي مغيث، فلماذا لم تتركيني هناك في زاويتي؟ (ونهض من كرسيه الى السرير المجاور جالباً منه غطاءه ليتدثر به) يشتد البرد، فيشتد صهيل الذكرى... حتماً هذا الغطاء سيحسن الحال (ولفه حوله وعاد الى كرسيه البارد). «أشعر بالتعب يا أمي... لا أستطيع المشي أنا جائع أشعر بالنعاس، أريد أن أنام»... أريد أن أنام. وإستسلم الى رغبته

مغمضاً جفنيه وحلم بطوابير من الناس شبه العراة، يحثون الخطى مجهدين، نحو شجرة كبيرة تمد ظلالها الى مسافة واسعة، تميل أوراقها وتتحرك جميعها بأتجاة الريح، تصفر وتنادي تعالوا... أقبلوا... كانوا يسيرون بلا هوادة نحوها. حاول العثور على مكان بين الصفوف دون جدوى، لمح وجوهاً يعرفها لكنها تجاهلته وحين رأى زينب وشيرين ركض نحوهما إلا أن المسافة تتسع والهوة تكبر، سقط علقت قدماه، وإستمر مسيرهم ... الصوت المنادي، إبتعدوا كثيراُ، يمد يده يلوح لهم... إنتظروا... إنتظروا وصحا من إغفاءته القصيرة صارخاً زينب، شيرين إنتظراني، وحبات العرق تتفصد على جبينه رغم برودة الحجرة.

أوه شيرين، زينب لِمَ لم تصطحباني معكما؟... كنت نحيل الجسم ضعيف البنية أبدو أصغر من عمري الحقيقي بسنوات... لم أمرض، حرص أمي على مراقبة حرارتي كل يوم، خوفكِ أبعد الجراثيم التي أمرضت البعض وأخذتهم الى حتفهم بسهولة... لا أعلم لمَ حرصتِ عليّ بهذا الشكل؟، ألكي أعيش كابوسي كل يوم؟... ليتني مرضت ولحقت بهم... بمرض الإسهال والحمى، لاحقاً الأجسام القوية التي سقطت

أمامه وخسرت نزالها. أوه حتى المرض لم يكن لي معه قسمة أو نصيب أمشؤوم أنا هكذا من البداية؟... لم تنامي أغلب لياليكِ أمي... كنت توفرين الغطاء لنا وتحرصين على تغطيتنا طوال الليل... تصاحب البرد مع عظامك... صار أنيس لياليك الطويلة... أمي ... أمي... لا أستحق ما صنعته لأجلي ليتك تعرفين هذه الحقيقة... أعرف ماعانيته وتعانينه لأجلي... أعرف تماماً حجم الذل الذي قاسيته بسبب الرجال... بسببه... أنانيته، حماسه أو ربما حماقته... لأجله، لأجلي... ضاعت حياتك وهُدرت إنسانيتك... لم تحصدي من الرجل سوى الألم... العار. لا رجل يستحق يا أمي... كلهم أنانيون... أنانيون... كرهت أن أكبر وأكون واحداً منهم... أوه يا إلهي كم أكره أن أكون واحداً منهم... لا لن أكون... لن أكون... كرهتهم جميعاً... جميعاً... جميعاً... كرهت يديه القذرتين حين تناولانها لوح الكاكاو... الطُعم لأصطياد الفريسة... من المرة الأولى وبفراسة طفولية أدركت انه طُعم، فقد لمحت ما أضمرته عيناه حين نادى عليها... كنا نلعب في الباحة في الساعة المسموح لنا بالخروج فيها... تلمست يداه القذرتين ذراعيها وشعرها حين ناولها لوح الكاكاو. لم أفهم لماذا هي

ونحن لا... لم أفهم ما عنت نظرته إلا أني أحسست أنها ليست نظرة أبوية... يا إلهي كم كرهتكم معشر الرجال وأيديكم القذرة... الملوثة. قسمت لوح الكاكاو علينا ثلاثتنا أعطت لزينب قطعة ولها قطعة وناولتني الثالثة... أخذتها على مضض... إحساساً بالخوف تملكني حينها، لكني لم أستطع إدراك ما سببه... لم أنسَ إلى الآن طعم ذلك الشعور، وطعم قطعة الكاكاو التي لم أذقها منذ تلك المرة والى الآن... أظنني قد ذقت طعم الذل مبكراً... مبكراً للغاية. وأدمنت الصمت الأخرس، أضعف الإيمان... وإن أشم رائحته المتربصة بي بين زوايا الحجرة، تسخر مني حين أفتح النافذة طارداً لها... نعم لطالما سخرت مني رائحة عطره، حين تبقى عالقة على الأثاث وبين ذرات الهواء ليوم وربما أكثر... كان يستعمل ذلك النوع الغالي من العطور... لقد تحداني ذلك العطر، إستفز صمتي، تعلقي بأضعف الإيمان، وبالشكوك التي يفتعلها عقلي هرباً من الحقيقة التي واجهتني حين لمحت جزء من كتفه وقميصه الداخلي... لم أجرؤ على السؤال دفنت رأسي في دروب الشك وطرقه الملتوية، إفتعلت تفسيرات كثيرة وتبريرات عديدة... لكن أمي.. لم أقتنع بها، حاصرتني رائحة

عطره التي كنت أشمها بين فترة وأخرى في غرفتنا دون أن أعرف كيف وصلت اليها... لكني في ذلك اليوم أظنني عرفت... عرفت يا أمي، أردت أن تدلني الى الحقيقة عيناك إلا إنهما خذلتاني، وتجنبتا النظر أليّ... أمي... آه يا أمي مرير ذلك الشعور... ذلك التناقض القاتل بين الحب والمقت... حاولت مرات كثيرة أن أتبع خطو عينيك آثارهما، لكنهما في كل مرة تزيغان النظر، تتعرجان في طرق التيه، ترتديان السواد حجاباً لم تستطع نظراتي العطشى للحقيقة رفعه.

-أمي ألم يحن بعد كسر كأس الذل؟ إماطة اللثام عن الحقيقة؟

- أية حقيقة يا بني؟ الحقيقة ستعرينا أكثر، بعض الزيف أهون من هذه الحقيقة... إهتم بدروسك وإقفل صفحة الماضي... الحقيقة التي تنشدها ستعرينا يا ولدي، فات الوقت ولن يتقبلها ممن حولك.

- لكن يا أمي هل سنبقى؟...

- نعم سنبقى يا ولدي لا مفر... هكذا قدر الله لنا.

وتدحرجت الدموع من عيني وانأ اتساءل (أهذه إرادة الله... أم إرادتك أمي؟)

بين شعور الحب والكره تبددت طفولتي وصباي، وبالقتال مع الحقيقة والشك أفرغت كل عتادي إلا من سكين قطعت بها وريد معصمي، وأنا أرى الدم يسيل متدفقاً... فزعت من منظره يلون ثيابي... دوار وصداع ألمَ بي، تسارع وأختلال في نبضات قلبي ... خفت... بل أرتعبت لكني حينها كنت مؤمناً أن ثمن الحقيقة غال وعليّ دفعه... أشعر بوخزات جسدي، يصيب الخدر كل أوصالي... يتوقف عقلي... شاشة سوداء وهدوء... لم أصحُ إلا على صوت بعيد وظلال رجل يربت على وجهي سائلاً ما إسمك؟... ما أسمك؟... أحسست بحشرجة وثقل في صوتي وكأنه قادم من بئر عميق حين أجبته كاظم... أسمي كاظم.

إستفقت على سرير في المستشفى وضمادة بيضاء تكبل معصمي وسلك مغذ مربوط في اليد الاخرى... أوه أنا ثانية!!... أنا ثانية!... يال هذا الحظ، ظننت أن كل شيء قد إنتهى... كل شي إنتهى، لكني تأكدت أنني لا أزال... وأني لم ألحق بهما، حين سمعت نشيجكِ ونحيبكِ المبحوح وأنتِ ترددين مصدومة (كاظم... كاظم كيف إستطعت؟... هل تريد أن تترك أمك؟) لم أستطع الجواب لساني ثقيل، وفلول خدر

تعسكر في جسدي، إلا أن دموعاً تسللت من عيني أجابتكِ أمي... آه لو تعرفين حجم مأساتي ومقدار حبي لكِ و... أمي لقد سجنتني مرة أخرى ظناً منكِ أنك تنقذينني... أموت في كل مرة وأنأ أستنشق رائحة عطره عالقة على الوسائد.

لم تسأليني عن السبب حين ألزمتني أنتِ ودموعكِ بعهد وميثاق غليظ أن لا أعيد الكرة... لم تسأليني يا أمي لمَ قمتُ بذلك؟ لمَ عيناك تهرب مني في كل مرة أو فرصة للتلاقي... منذ ذلك الوقت أعلنت عيوننا خصامها وتحاشيها لبعض... منذ ذلك الوقت لم أقترب منك أو أتدفأ بحضنك خشية أن أشم عطره فارضاً غطرسته على ثيابك... آه أمي كم هو صعب أن أخشى الاقتراب من صومعتي ومحرابي... كان النوم في الليالي الأولى بعيداً عنك في غرفة أخرى، مع أنين وشخير أمين المتواصل بالغ الصعوبة.... وانا الذي إعتدت على مشاركتك السرير وسحب الغطاء عنكِ معظم الوقت... أوه أمي... أصبح النوم على شخير أمين ملجأي منك... ولطالما إدعيت استغراقي في النوم حين ألمح طرف ثوبك أو أسمع دبيب قدميك الهادئ الحذر خوفاً أن يوقظني... لكن صوت مصراع الباب إنسلاخه المتباطئ المهيج للأسنان والإذن،

ونحنحة الحارس سعاله وغمغمته... خطو قدميك المرتعشتين والمتعثرتين بين الأجساد على ضوء المصباح النعس المصلوب على العمود خارجاً، إنسلال جسدك البارد بيننا، رائحة دخان السكائر تنبعث من شعرك، نحيبك المخنوق يوقظني من نومي ... لكن حين تتأبطني ذراعاك... لا شيء يقلقني، فأعود الى نومي وأحلامي سريعاً... الطفولة يا أمي هبة فقدتها حين أبصرته من زجاج النافذة خاطفاً... لا أعلم أي إبتكار هو... ومن إبتكر النوافذ... ألم يسمع بأن (للبيوت اسرار؟) فلماذا أرادت فضح تلك الاسرار؟... النافذة فتحت بابها على عقلي وكشفت لي عن أمور عديدة حرت في تفسيرها... تلك النافذة سرقت مني طفولتي... براءتي وهدوئي ... تلك النافذة (وذهب بطريقه لا إرادية بأتجاة النافذة الصغيرة عند الطرف قرب الباب، إنحنى برأسه، أقترب بعينيه قرب زجاجها محاولاً ان يستكشف ما خلفها، إلا أن الظلام لم يسعفه ولم تبح هذه النافذة سرها فرجع عائداً الى كرسيه بعد أن تفحص مرة أخرى ساعة يده وعقاربها المتثائبة، كذلك تفحص سلك المغذي الواصل الى يد أمه ومؤشر جهاز القلب، تدثر لافاً (البطانية) عليه). هذه الليلة باردة تشبه تلك الليالي... مع

فارق أني لم أكن أخاف من برودتها، فلي حضن دافئ كان يأويني كل ليلة... الآن أنا خائف للغاية أمي... أرجوكِ إنهضي... لقد وعدتني أن تبقي دوماً بقربي... أن تردي عني برد الليالي وظلمتها... أرجوكِ سامحيني... وإغفري لي قسوتي عليكِ وهجري... سامحيني وإغفري لولدكِ الذي تحاشاك مبتعداً... كنت غبياً... أرجوكِ إنهضي. وإنهالت دموعه، كاوية خديه، كفكفها متفاجئا من قدوم الممرضة وهي تسأله بصوت مرتجف:

-كيف حالتها؟ ألم تصحُ بعد؟

وتفحصت هي الآخرى حال المريضة ومؤشر جهاز القلب قائلة:

- كل شيء طبيعي، الحمد لله.

- الحمد لله

وإنسحبت من الحجرة وهي تلف يديها حول نفسها منحنية من البرد وقالت:

- لا تتردد في السؤال، حجرتنا في آخر الرواق.

نعم حجرة أخرى عند آخر الرواق... آخر الرواق، حجرة كانت أشبه بالمخزن للسلع والأشياء القديمة تطل على الحديقة

الخلفية القاحلة للبيت بباب صغير أُقتطع من النافذة الواسعة، وباب آخر قلما يُفتح على رواق البيت أو بالأحرى هو مغلق ومفتاحه الوحيد عنده... إحتوتنا تلك الحجرة بسريرها وخزانة ملابسها التي إشتكت من قلة الإستعمال وسجادة قديمة إفترشتها أمي بعد إن وجدتها بين الأثاث القديم هي و(مدفأة علاء الدين) التي تقلم وتفحص أمي فتيلتها بين فترة وأخرى حتى تستوي نارها ويكف دخانها... كانت الملاذ بعد تلك الحفرة الكبيرة التي إنهال ترابها فوق الاجساد المضطجعة، مدركاً مع الوقت أنها أكبر وأسوأ من تلك الحفرة... لقد سرقت منا اسماءنا، جردتنا من كرامتنا وشرفنا... تلك الحجرة اللعينة في آخر الرواق... ذلك الملاذ الذي سرق منك يا أمي شر... وسرق آخر ما تبقى لي من طفولة تكافح في البقاء بعد كل ما ألم بها من... حجرة آخر الرواق (لأرملة عمكم الشهيد وإبنه)... كانت سجننا الأخير ببابها المعدني الصدئ الذي يئن هو الآخر عند غلقه أو فتحة على الفسحة الخلفية الجرداء من البيت... يا الله كم تتشابه السجون في هدر كرامة الانسان.

لا أعلم يا أمي أي إتفاق أبرمته أو أجبركِ عليه ذلك النذل لندخل زنزانة أخرى بابها مفتوح على العدم والخواء... هل حياتنا ضيقة هكذا؟

طلبت منكِ مرات عدة أن ترشديني الى مكان أهلنا... باقي أقاربنا وفي كل مرة لا تنبس شفتاك إلا بجواب واحد (لم يعد لدينا أهل... أنسَ الماضي يا كاظم) لكني لا أزال أذكر بيت جدي العتيق ودكان عطارته القريب من الحضرة الحسينية... في إحدى زياراتي إلى هناك تتبعت قدماي ذاكرتي التي إحتفظت بصور قديمة، طريق ضيق تمتد على جانبية بيوت ودكاكين مختلفة... لم أجد ذلك الطريق... كل شيء تغير... حلت الشوارع الواسعة والمحلات الكبيرة مكان تلك الأزقة القديمة الملتفة على منازل سقطت من قائمة العمران، تنبعث منها رائحة الرطوبة. سألت عن جدي إلا أن أحداً لم يتعرف عليه (لقد إجتثت الحكومة تلك البيوت وسوت الكثير منها بالأرض، لأجل التوسعة أو لأسباب أمنية بعد أن عوضت أصحابها) ويبدو أن بيت جدي قد طاله حكم الإزالة... كما طالنا حكم النفي والإبتعاد... لا تعلمين يا أمي، أنا لم أيأس في العثور على خيط أو حتى بصيص أمل لأجتمع بأهلي، لكن

قلقك يثنيني عن البحث، وترن كلماتك (دع الجميع يعش بسلام... فالأموات لا تصحو يا ولدي). كنت أمتعض من كلامكِ هذا للغاية... لكني بعدها أدركت أننا بالفعل أموات حتى في نظر أنفسنا... لم يتغير القدر يا أمي... لم نمت في تلك الحفرة، وها نحن أموات في حفرة الماضي نقبع لينهال علينا تراب الذكريات، والأشد وطأة من ذلك التراب... أمي ليتكِ لم تكوني بتلك القوة والإرادة، ليتكِ إستسلمتِ... كنت خائفاً مرعوباً... أجلستني في زاوية من الحفرة قريبة من السطح (إجلس هنا بهدوء... ضع رأسك بين فخذيك ولا تتحرك يا كاظم) ووقفت أمامي تردين عني الاذى، حتى تلقيت واحدة في الكتف فانكفأتِ عليَ تغطيني بجسدكِ... لا أزال أذكر حرارة قطرات الدم المنسالة على جبيني وخدي.

أكانت نيتك من البداية أن تحميني؟ وكيف إلتجأتِ الي تلك الزاوية المتوارية؟ حتى في تلك الدقائق المرعبة كنت تفكرين بحمايتي... أمي أتستحق حياتي كل هذه التضحيات (وطمر وجهه المبتل بالدموع في سرير والدته قرب قدميها وهو يتمتم بكل جوارحه: إستيقظي أرجوك، أدرك الآن جيداً أني لا أستطيع العيش دونك رغم الإبتعاد عنك مسافات، لم تعاتبيني

على التأخر وعدم القدوم الى البيت في العطل والإجازات، لكني ألمح في عينيك حزناً من مرارة الإفتقاد... لم أكن أعي حجم الألم الذي أسببه لكِ أو ربما كانت هذه عقوبتي لكِ... إبن عاق أنا... كرهت كل شيء حولي عندما فقدت ثقتي بك... كرهت نفسي أكثر من أي شيء... كنت ألمح الفرحة متهللة في عينيك عند عودتي الى البيت... فأتحاشى النظر اليهما لئلا أقع تحت سطوتهما من جديد، وأنا الذي إخترت وسائل وطرقاً عديدة لتحاشيهما... عزيميتي تخور بالإقتراب... فآثرت الإنتقال الى حجرة أمين، والنوم على موسيقى متتالية من الشخير والنشيج. رحب هو بمشاركتي له وكما قال (مصائب قوم عند قوم فوائد) فتعرفت عليه أكثر، تشاركنا الحديث والأفكار، وأدركت أن قلبه يتغذى على جسمه المتعب النحيل... فخجلت من نفسي... قابل غضبي بتفهم وهدوء وحتى إساءتي له... لم أعد أشعر كما السابق تجاهه بالحقد أو الكراهية... صرت أساعده عن طيب خاطر وحب... أوه كم كنت سيئاً معك! وكم كنت قاسياً معك يا أمين؟... أذكر جيداً ولشدما أخجل من هذه الذكريات كيف تركتك مرات عديدة تنام دون أن أساعدك على الذهاب الى الحمام، فيصبح الليل بمثابة

كابوس يتصارع فيه جسدك المتعب ومثانتك الممتلئة، وانا أتجاهل نداء استغاثتك، وألم أسفل بطنك الذي تتخلص منه أحيانا ببقعة رطبة تحتك، تنكمش منها خجلاً حين تتفقدك أمي صباحاً، فلا تنبس بنت شفه سوى أنها تسألك بصوت حنون هامس (لماذا لم تطلب من كاظم ان يأخذك الى الحمام؟) فتقابلها أنت بوجه بريء صامت... آه كم إختلفت عن ذلك الطفل الصغير الذي يركض خلف أخته الصغيرة قرب جدول ماء في بستانهم... لم يخبرها بالحقيقة... لم يخبرها بمدى لؤمي معه وفضاضتي. كان كالاسفنجة، إمتص كل سخطي، قسوتي حتى سخريتي منه، ومن قدميه الملتويتين على ساقين نحيلتين ضعيفتين. نعته بالجبان أحيانا كثيرة، إلا أنه قابل ذلك بأبتسامة حزينة مؤثرة في كل مرة... لم أفهم لماذا لم يشِ بي ولو مرة واحدة... حتى بعد أن قمت بتحميمه في أحد المساءات الشتوية بالماء البارد... إرتعش جسده النحيل تحت الماء بشدة، وأخذ يرتجف بصورة لا إرادية كمحرك قديم... إصطكت أسنانه وازرقت شفتاه تهاوى جسمه الضئيل، وأوشك على الاغماء قبل أن يطلب مني بهدوء (يكفي هذا أرجوك).

وقعت كلمته الأخيرة على قلبي كصخرة كبيرة من جبل (أرجوك)، وأنا أتفحص وجهه الشاحب وعينيه الغائمتين. كانت المرة الاولى التي أسمعها منه... إرتعدت فرائصي وإرتعشت... أرجوك كازم... أريد أن أنام، أنا متعبة... أريد... أنام... لا تنسني أرجوك) أغلقت صمبور الماء بيد مرتجفة... ووضعته في سريره بعد أن قمت بتدفئته... لكن جسمه لم يتوقف عن الإرتعاش، كذلك شحوب وجهه، إرتفعت حرارته عند منتصف الليل ونام يهذي من شدتها... ناديت عليكِ دون أن أخبرك حقيقة ما جرى... ظل في فراشه عاجزاً متعباً طوال شهر، فالحمى التي أصابته كادت أن تودي بحياته، وبإنسانيتي التي فقدت الكثير منها مبكراً... حاولت أن أكفر عن ذنبي تجاهه بالعناية به بشكل أوجس الشك في قلب أمي... صليت ودعوت الله لأجلك يا أمين... تلك الليلة كانت بداية عهد جديد في علاقتي بك... سمعتها تسألك وتحقق معك أكثر من مرة عما ألَمَ بك... لكنك أبداً لم تخبرها... فأدركت حينها من منا الجبان... من على كرسيه المدولب إستطاع أن يعلمني دروساً مهمة... هو يكبرني بثلاث سنوات إلا أن عقله وقلبه كان مستنيراً للغاية... تعلم من الكتب التي يقرأها أكثر مما

علمته المدرسة التي لاقى فيها صعوبات نفسية وجسدية، وهو يقاوم كل يوم نظرات الفضول والشفقة... فكان معلمي الذي تشاركت معه الحجرة وبعضاً من كتبه التي كنت أقلب صفحاتها بين الحين والآخر أحسست بشفقته عليّ، تفهم حدة مزاجي وسوء خلقي... لم أخبره من أكون (هذا سرنا يا كاظم فلا تخبر به أحداً يا ولدي)، لم أنكث بوعدي يا أمي، لكن نظرات عينيه دوماً أشعرتني أنه يعرف أكثر مما قيل لهم حين قدمنا الى بيتهم... يعرف ما وراء الحقيقة، يدرك ما خلف الظلال... يستشعر كل ما حوله بقوة، كفرت عن ذنبي معه فأعتنيت به طوال الشهر... إقتربت منه أكثر... معه لمست أني هو العاجز المقعد وليس هو... صبره وهدوءه على أخطائي... فيض مشاعره نحوي علماني الكثير... كان هو لا غيره، أمين معلمي الأول وأخي الكبير... أعطاني مراراً دروساً في الصفح والمغفرة حتى أنجو، حسب رأيه، لكني لم أستوعب هذه الدروس، ظل الحقد والضغينة يأكلاني... كيف أغفر يا أمي؟ كيف أغفر لأولئك الذين دمروا حياتنا، قطعونا من جذورنا... أعلم أنك الأخرى تودين أن أصفح وأنسى الماضي... لكن الماضي هو من يلاحقني في كل مرة أذكر بها

إسمي أو أكتبه كاظم عبد الجبار العنبر... حتى اللقب يحمل رائحته يا أمي...أأظل محكوماً بعطره ... العود والعنبر، وأشد المواقف إحراجاً حين قالت: (أتيتك بقنينة العطر هذه هدية... فقد لاحظت أنك لا تضع أي عطر!!) لم أعرف بماذا أجبها... ترددت في أخذه، لكنها أصرت فأخذته مجبراً خوفاً من زعلها... بقيت القنينة في علبتها الورقية على مرآة الزينة، تنتظر دورها، تحاول لفت نظري بغلافها الأحمر البراق... دون جدوى... أدركت هي إهمالي لها، فسمحت للغبار ان يجد له محلاً فوقها فما عاد للبريق من فائدة في جذبي... حتى نسيت وجودها أصلاً على المرآة، إلا عندما ذكرتني بها شهد قائلة (يبدو أن العطر لم يرق لك؟) وانتظرت عيناها العسليتان المزهرتان إجابة... فتغاضيت عنهما بأبتسامة باهتة، أذبلت الاشراقة التي تطفو عليهما (إنسَ الماضي) كيف أنساه أمي؟ وكلما رمقتني هذه بعينيها الحالمتين تذكرت تلك الماطرتين حين تقول لزينب بقوة وثقة (لكن كازم يحبني أكثر) وتطلب مني عينيها أن أرد بالإيجاب على ذلك... فأحار كيف أرضيهما وكل واحدة تشدني من يدي نحوها (هو أخي... كاظم أخي وليس أخاك)

- لكنه يحبني أكثر... أليس كذلك؟... كازم أخبرها.

(إرتسمت إبتسامة حزينة على طرفي فمه) كنت دوماً ضعيفاً أمام نغمة صوتها حين تلفظ إسمي بصعوبة لتقول (كازم)، أحببت عراكها وشجارها المتواصل مع زينب لأجلي... كل واحدة منهما تحاول إثبات ملكيتها لي... يا للنساء تستحوذ عليهن فكرة إستعبادنا منذ الصغر.

كنت جالساً في نادي الكلية بعدما تأخرت على موعد المحاضرة، بصحبة إحدى الزميلات عندما أقبلت شهد علينا وعيناها تبرقان شرراً وسألتني مزمجرة (ألهذا السبب لم تحضر الدرس؟) وهي تتفحص الفتاة بنظرات شزرة.

تملكني وقتها ذلك الشعور نفسه الذي أفتقدته منذ سنوات... إلا أن تلك الفتاة المسكينة إنسحبت بسرعة تضم حقيبة أوراقها بين ذراعيها وكأنها درع تصد به غيرة شهد... لم أتفوه بأي كلمة وبقيت صامتاً، لكن إبتسامة تنازعت معي فغلبتني في الظهور وأنا أتصنع اللامبالاة وعدم الفهم لما يجول في خاطر شهد، التي جلست الى الكرسي الآخر، تحاول إسترداد رباطة جأشها وأنفاسها المتسارعة... أتعرفين يا أمي لقد أحببت ثورتها... زمجرتها كأنها لبوة تدافع عن... هي لا تعرف يا أمي من

أكون... هي لا تعرف... لربما لو عرفت لما إستشاطت غيضاً هكذا... آه كم أود يا أمي... كم أود أن أنوء بحملي... يجثم على صدري كصخرة... في لحظات كثيرة وودت أن أخبرها من هو كاظم العنبر، لكني في كل مرة أتراجع حين أتذكر كلماتكِ... أتذكر نظرة الخوف من المهانة والخزي التي ستلحق بنا (لن يحترمنا أحد يا ولدي... ستزعجك نظرات الشفقة، لن تحضى بأكثر من ذلك... هل أنت مستعد أن تلوك الأفواه بقصتنا؟ ماذا سنجني من كشف الحقيقة؟ فات الوقت على ذلك... فكر جيداً يا ولدي... لا تتسرع)

- ولكن الزمن تغير يا أمي... ممن أنتِ خائفة؟

- لم يتغير يا ولدي... الناس هم الناس لن يتغير شيء، سيشفقون علينا أول الأمر ومن ثم سيحتقروننا، هكذا هي طبيعة البشر... ثق بي يا ولدي، وتعايش مع سرك كما السابق لم يتغير شيء.

- لكن يا أمي...

وتعثرت الكلمات على لساني... لم أقتنع بما قلته تماماً لكني خشيت أن يكون صحيحاً... فندخل في متاهات لا حول ولا قوة لنا عليها... نعم لوهلة خشيت أن تتحول نظرات إعجابكِ

بي يا شهد الى شفقة يتلوها إزدراء. نعم خشيت منك أنتِ يا شهد... لا أستطيع أن أخسرك بهذه الطريقة... لا أحتمل فكرة خسارة الأعجاب والحب الذي ترمقني به عيناك لحظة رؤيتي... وذلك الفرح المتدفق منهما... هو الفرح نفسه، تلقاني به حين تتسلل خيوط الشمس الأولى الى قاووشنا الكبير عبر الفتحات الصغيرة الواقعة أعلى الجدار المواجهة الى الخارج، كعيون حذرة تطل على صحراء ليس أمامها من شيء سوى الأفق. أو تلك التي تغافل الحارس فتتسلل إلينا من عتبة الباب.

نعم أمي لن أحتمل الخسارة مرتين... لا أستطيع... لا أستطيع... أن أخسرها مرتين... لقد عادت... آه لو ترينها... لقد عادت من هناك... تحمل الأبتسامة نفسها... وكذلك الغيرة... إعدكِ بأنكِ ستقابلينها قريباً وستدركين أنتِ الأخرى مدى صدمتي حين رأيتها أول مرة قرب (الكشك)، وبيدها لوح كاكاو تقضمه، رجعت الى الخلف، إصطكت قدماي، أغمضت عينيّ وهلة، وحين فتحتهما لم أجدها تبخرت كالحلم. فأدركت أني أهلوس، وأن هذا تأثير التوتر والقلق من أول يوم لي في الكلية وسط وجوه مختلفة غريبة. إشتريت من الكشك نفسه

قنينه ماء لأروي بها ضمأي الى حقيقة ما لمحته... أكانت حقيقة؟... «لا.. إنها أشعه الشمس... حتما إنها أشعه الشمس قد أزاغت بصري وشوشت تفكيري لوهلة»... نسيت الموقف بأكمله ولكن بعد أيام لمحتها مرة أخرى في قاعة الدرس فخرجت مسرعاً ظناً أني قد أخطأت في رقم القاعة. لم أخطيء... إنها الحقيقة... حقيقة يا أمي وليس حلماً... بالله عليك ماذا أصنع؟ تسأليني دوما أن أدع الماضي وأنساه وها هو يلاحقني الى مدينة أخرى... لابد لكِ أن ترينها حتى لا تشكي بصدق ما أقول... يطاردني الماضي بوجوه مختلفة... لقد إحتلتِ عليه... وعلى القدر حين أخرجتنا من تلك الحفرة على غفلة من الموت، الذي كان منشغلاً بالآخرين... لقد خرجنا من هناك أمواتاً لقد طالنا الموت نحن أيضاً... نحن أيضاً... لقد حفرنا هذه المرة حفرتنا بأيدينا يا أمي ونلنا العقاب. يقول محمود درويش أوه... ربما تسأليني ماذا قال؟... لكن إسمعي ماذا يقول:

ماذا جنينا نحن يا أماه.

حتى نموت مرتين.

أكاد أشك في كل مرة تستوقفني قصيدته هذه بأنه يقصدنا... أكان معنا في تلك الحفرة؟ وهل إحتالت أمه على السجان وعلى القدر؟

إضطجعت الأجساد المتعبة على الرمال الحارة كأسمال بالية فقدت لونها، جُمعنا في دائرة واسعة القطر، أحاطت بها الشاحنات التي أقلتنا، بعد أن أطفأت أنوارها ومحركاتها هي الأخرى لتستريح من مشاق طريق طويل قائض... نامت هي وجدتها قربنا تلك الليلة... بعد أن أجهشت في البكاء والسؤال عن أمها وأبيها لكن أمي أقنعتها بالاضطجاع قرب زينب التي بقيت صامتة، لقد كنتِ يا أمي أكثر دراية من جدتها على حثها على السكوت، والتصرف بشكل جيد رغم إختلاف اللغة، وجدت فيكِ أمها التي تفتقدها... ربما.

فترة قصيرة وعم الصمت بين تلك الاجساد المتأوهة وحتى الأطفال... الكل غط في نوم عميق أو ربما كابوس... لا فرق، غطتنا الظلمة بردائها مع ذرات الرمال الناعمة التي إحتفت بقدومنا تطايراً... صوت عواء بعيد... ذئاب أيقظ الحر شهيتها (إنها بعيدة يا أولاد لا تخافوا إنها بعيدة) واحتضنتنا أمي. طمرت رأسي في صدرك لئلا أسمعها... إبنك البكر أنا، الذي

لم يسمح لأخته الصغرى أن... كنت أنا الذي أنام ملاصقاً لكِ... لم يزعجها هذا الأمر، وإن إعترضت زينب في بعض الأحيان على سبيل الغيرة لا أكثر... رغم صغرها أدركت تعلقي بكِ واحترمت ذلك، فاسحة المكان لأكون الأقرب اليكِ منها... أكانت تعرف؟... أكانت تشعر يا أمي... لكنها مع ذلك لم تتنازل لشيرين عن حقها فيّ، وإستمرتا بالتنازع عليّ حتى... لقد أفسدتّنني يا أمي بحبكن، أصبحت قاسياً وأنانياً.

بزغت خيوط الفجر الاولى متوعكة مثقلة، إستفقنا على صوت صياحهم الفظ الغليظ، سباب وشتم غريب لم أفهمه أو بالأحرى لم أسمعه من قبل. أمرونا بالوقوف منفصلين، الرجال الى جانب والنساء والأطفال في جانب آخر. ولولا أني كنت قصيراً ونحيلاً، وأبدو أصغر من عمري لوضعوني في صف الرجال إسوة ببقية الصبية. (إلتفّ بثيابي وأكمش من طولك يا ولدي) إنصعت لطلبك خائفاً مرتجفاً من الشرطي الذي تقدم نحونا متفحصاً، ممسكاً بشارب كث أسود، لم يشعر بوجودي، فزينب قد غطت مني الكثير حين أوقفتها أمامي. إستغرقت العملية قرابة نصف ساعة، وقفنا في صفين كطوابير المدرسة. أصبحت أنانياً وقاسياً مع من أحب، معكما أنتما، أنتِ وهي...

أحاول أن أكون رقيقاً ومراعياً لكني في كل مرة أخفق... ولا أجد جواباً حين تسألني عن سر قسوتي وتعثر مزاجي من وقت الى آخر... إنها تتفحص عينيّ، كلماتي، تبحث عن جواب لربما إختبأ بين ثنايا مقلة أو في الفراغ الفاصل بين كلمة وأخرى... إنها تشعر يا أمي... هي تشعر بأني أعيش الحاضر برداء الماضي المثقل بالأسرار... سألتني مرة على حين غرة ما سرك يا كاظم؟ هلا أخبرتني ما سرك؟ للحظة تصلبت أوصالي من السؤال... شعرت أنها تعرف ذلك السر متى ومن قال لها؟... إحتبست أنفاسي لئلا تخرج كلمات مني دون قصد، وأجبتها دون أن أنظر الى عينيها.

-أي سر تعنين؟

أمام عينيها صعب أن أكذب... لكني أكذب.

وبين ضلوعي سر يحرق... لكني أكذب.

أتساءل أحياناً كثيرة لماذا يلاحقني الماضي بصور وأقنعة مختلفة... إنها هي عادت مرة أخرى... حاولت الفرار منها، من رؤيتها كل صباح، بعينيها المرحتين تقول (مرحبا) أحاول تجاهلها، لكن مقاومتي تضعف.. وأجد قدميّ تحث الخطى نحوها، بحثاً عنها بين جموع الطلاب... لا أستطيع فهم نفسي،

ومزاجي المضطرب صعوداً ونزولاً، حتى أنها صارت تسألني ممازحة (كيف هو مزاجك اليوم؟)، تعلمت أن تقترب مني، لكن بحذر... أن تضع مسافة بيننا تمكنني من الهرب أو العودة... أصبحت تتفهم سوداويتي، عزلتي وحدة طبعي... كفت عن تأنيبي أو توبيخي... أظنها إستسلمت... ليتها تستسلم وتبتعد.... «كاذب أنت يا كاظم... أوه كم أنت كاذب يا كاظم؟... أنت تخشى إبتعادها كما تخشى إقترابها... أنت لا تطيق الصباح إن مر دونها... لا يزال طعم تلك الصباحات التي تغيب فيها عن الكلية مراً في فمك، لا أظنك قد نسيت يا كاظم... هل نسيت شوقك أو لهفتك لسماع أخبارها من بين الطالبات؟... أنسيت الغصة التي علقت بفؤادك حين سمعت من صديقتها عن نبأ خطبتها لإبن عمها؟... أحقاً نسيت ذلك الوجع الذي ألمَ بمعدتك؟... إرتفاع حرارتك وإرتجاف أطرافك؟... الحمى التي كادت أن تودي بحياتك لولا دعاء وتضرع والدتك... أنت لم تنسَ ذلك الصباح البارد القاتم الذي خاصمت فيه الشمس عتبة باب زنزانتنا، النحيب المكتوم وولولة النزيلات حول جثمان متصلب بارد، إنكفاء جدتها ودموعها المتحجرة في مقلتين تائهتين أكلت التجاعيد منها

الكثير...» إستيقظت كعادتي مبكراً... لم تكن أمي بقربي... لمحتها بين جمع من النسوه في أقصى القاعة، جلست لفترة على فراشي، كان يئن من البرودة هو الآخر لم أدرك ماسبب تجمعهن... طال إنتظاري لأمي، الأرتباك والخوف يتسلل اليّ عبر أصوات نحيبهم وهمهمتهم الخافتة... نهضت من فراشي... قادتني خطواتي عبر الأفرشة التي لا يزال بعضها متكوراً بارداً على أصحابه... تعثرت ببعضها... ثقلت خطواتي وانا أقترب منهن وسمعت إحداهن تتمتم (مسكينة... لم يتحمل جسدها الصغير الحمى وذلك الحقير البشع...) وافقتها الأخريات بإيماءة من رؤسهن لاعنات شاتمات... لم أفهم مايدور حولي إقتربت منهن أكثر، شاقاً الحلقة التي أحاطت... حينها لم إدرك من الذي تحت الغطاء يرقد صامتاً... بحثت بين الوجوه... لم أجدها... سقطت عينيّ مباشرة على ظهر جدتها المحدودب عليها... نعم هي بالأمس كانت مريضة... لم تلعب معي... جلست معها بعضاً من الوقت متململاً ... طلبت منها أن نلعب إلا إنها رفضت، فقضيت الوقت صامتاً أراقب جدتها التي كانت مشغولة بتبريدها بخرق القماش المبلوله بالماء، وإقناعها بضرورة

إبقائها على أطرافها وصدغها حتى تنخفض حرارتها... أوه شيرين كم أنتِ مشاغبة حتى عندما تمرضين لا تستسلمين بسهولة... حاولت إقناعها بأن نلعب لعبة الكلمات، وافقت دون رغبة ورغم ذلك غلبتني، كانت تجيد وتحفظ كلمات كثيرة ولو أنها كانت تغش في اللعبة وتجبرني على قبول بعض الكلمات الكردية حين تعجز عن إيجاد الكلمات العربية المطلوبة في اللعبة، لقد أتقنت العربية إلا بعض الكلمات التي تلفظها بصعوبة نوعا ما فنضحك منها.

«إعترف يا كاظم... إعترف أنك تخشى أن تفقدها بعد أن وجدتها ثانية. إعترف أن الأعراض نفسها قد ألمت بك حين سمعت بنبأ خطبتها الى إبن عمها... إعترف أنك تحاشيت الإقتراب منها أو حتى النظر اليها من بعيد... لا تزال تخشى التوغل في غابة عينيها، تقف على أطرافها محايداً تنتظر منها ان تسألك، أن تدلك على الدرب وفي كل مرة تأبى وتنسحب حتى حين أخبرتك بأنها قد فسخت خطبتها من إبن عمها... إنتظرت جوابك، رد فعلك حاولت قراءة تعابير وجهك الخاملة الكسول... لم تجبها يا لك من جبان... أنت جبان يا كاظم حتى

عندما تركتك مسرعة تداري دمعة خذلتها متدحرجةً... جبان... جبان».

دوى صدى هذه الكلمات في رأسه، فأنتفض واقفاً شاعراً بالحرارة تصعد الى صدغيه، توجه نحو نافذة منسية قابعة في ركن الجدار يعلوها الغبار،تحاول بطرفها المكسور لفت إنتباه من في الحجرة نحوها، أزاح الكتاب الذي سد به الفتحة، سامحاً للهواء البارد أن يتخلل اليه برهة، ثم أرجعه الى محله خوفاً على أمه من هواء تلك الليلة الكانونية الباردة. تفحصها راقدة في فراشها تحت تأثير الدواء نائمة، فعاد الى كرسيه متحاشياً إغراء السرير الفارغ المجاور، وذئيبات النعاس التي بدأت تنسج خيوطها غمامة على عينيه وعقله، تثاءب مرات عدة، فرك عينية المحمرتين وكتم ضحكة ساخرة من مدى بلادته وهو يقول:

«نعم أنا جبان... جبان... بم تودني أن أرد عليها ماذا أقول لها؟... وأنا نفسي لا أستطيع... نعم لا أستطيع... لا أستطيع... لا أعلم ما أريد... أأحبها هي أم تلك؟ وماذا سأقدم لها؟ ليس بحوزتي شيء، لا أملك من نفسي شيئاً، حتى إسمي ليس لي... أخبرها باني الهارب من قدره... من حفر الموت... لا... لا...

لا تستحق أن يطالها قدري البائس هي أيضاً... هل تفهمني الآن؟... لست جباناً... أنا لست بجبان... لكني لا أملك ما أقدمه لها ... لا أريد وفية أخرى تحرق حياتها لأجل رجل أناني... أغتبط بنفسه وظن أنة قادر على تغيير... حمل سلاحه وإلتحق مع غيره من المجاميع التي خرجت تهتف غاضبة متفائلة»... لا أزال أسمع أزيز الرصاص يطن قرب أذني وأصوات مدافع الهاون... حفاة لهثنا تعباً بين الحقول يلاحقنا الفزع، وهلع كبير على وجه وفية... ضيعت الطريق الى أهلها من شدة خوفها وهي تمسك بيدينا بكل ما أوتيت من قوة... وحين وصلنا هناك لم نرَ إلا أنقاض بيت حطمته قذائف الدبابات... لم نستطع أن نتبين شيئاً، أكانوا تحت الانقاض؟ خنقت العبرة وهول المفاجأة صوت أمي ودموعها... لا لن تصبح وفية أخرى... لن تسحقها أقدامهم القذرة... لن يكون مصيرها حفرة... سامحيني شهد أنا لا أستطيع... لا... لا أستطيع... يا إلهي ماذا صنعت لمَ أُعاقب مرتين؟... ماذا صنعت؟ لمَ تعد ثانية بعد أن إعتدت غيابها؟... غيابها الذي ظل يسكنني منذ ذلك الوقت... من أول صباح، حين بقيت وحيداً لم أخرج الى الشمس أياماً طويلة، قبعت قرب الشباك

أنظر الى خصلات شعرها الشقراء ملاحقة خيوط الشمس يداعبها الهواء، تتورد وجنتاها، تستعيد الحياة... كانت كل صباح تنتظر ساعة الإستراحة... كأنها زهرة عباد شمس. فقدتُ متعة الخروج الى الباحة في هذه الساعة، كرهتُ خيوط الشمس إذ لم تعد تعانق سوى غبار ورمال الصحراء، ووجوهنا التي عافت لونها داخل زنزانات رطبة تحمل جدرانها بصمات وبقايا ذكريات... كتبنا ذكرى كاظم وشيرين... حفرناها بصخرة ولم تتورع زينب عن إضافة إسمها مع الذكرى... لكنكِ قمتِ برسم قلب حوط إسمينا، فبكت زينب شاكية لامي أن إسمها صار خارج قلب شيرين... ضحكت أمي حين شاهدت ذلك، وطلبت من زينب ان ترسم قلباً حول إسمها هي الأخرى... ذهبتا وبقيت أنا والجدار وقلبيهما... بقيت وحدي... ألهث خلف الذكريات... كنت من أوائل الواصلين اليه... عبر صحراء قاسية... وهذه المرة أقلتنا سيارة... حطموا المكان نهبوا... أشاعوا الفوضى... فكوا أبوابه المغلقة نزعوا الشبابيك.... في غضون أيام لم يبق من الوحش الذي تربع في الصحراء طويلاً، يحرسها، إلا الأشلاء، وهيكل عظمي منخور... سرت نحو (قاووشنا) مهرولاً...

رائحة العفن لا تزال كما هي... صدى الأنين والتأوهات ملأ أذني... ضاق صدري وإنكمشت معدتي... أظنني الوحيد بين أولئك من كان هنا... «أمجنون أنا... لماذا أنا هنا؟ وماذا أفعل وسط هذا كله؟»... قادتني قدماي الى داخل القاووش قرب العمود الذي طالما اتكأنا عليه، درنا حوله، تحسسته بيدي لا يزال خشناً وقاسياً... إقتربت من الحائط لمست قلبكِ بيدي، وصافحت قلب زينب... لا أعلم كم وقفت قربه... كم دمعة داريت... كانوا منشغلين بالسلب والتخريب كخلية نحل... وددت أن أحمل بيدي ذلك الحائط الأمين... لكني خرجت فارغ اليدين تنبه بعضهم لي وسألني لماذا أتيت معنا؟ الفضول... الفضول هو من أتى بي معكم، لم أتمكن يا أمي أن أقول ذلك الحائط... وصدى ذكريات يناديني.

توعكت صحتي على مدى أسبوع من تلك الزيارة... راودتني الكوابيس... وأصوات إستغاثة لم أستطع الأستدلال على مكانهم بين تلك الكثبان التي شاركت في طمر أثر جريمة تتكرر باستمرار وكأنها عقدت أتفاقاً مع الجلادين.

نبحث عن خطواتنا المرتعشة الخائفة في تلك الليلة وهي تتخبط في الظلمة بين كثبان حارة كأفعى تلتف حولنا، ويصبح السير مع أصوات عواء بعيدة أكثر هولاً وفزعاً من حفرة...
كنا حفاة... نلهث من شدة الفزع، لا طريق أمامنا سوى دوائر كثبان رملية تطفو على وجه البادية، وضوء ضعيف يرسله لنا القمر بين الحين والأخر مشفقاً... لم يكن أمامنا سوى المجهول... وقوة وعزيمة إرادتكِ... دوماً تساءلت مع نفسي لمَ... لمَ لم أُصبح قويا هكذا مثلك؟ هل أنا أكثر شبهاً بذلك الرجل الذي بدأت ملامحه بالتلاشي حين أحاول إستجماعها أحيانا من بين صور الذاكرة المعتقة، نعم لديّ عينيه نفسها ونفس تلك النظرة المترددة غير الواثقة... كلانا يا أمي إحتاج إلى عزيمتك المتوقدة... هو لم يستطع الخطو بدونك... كنت عصاه السحرية التي تساعده على جعل الحلم حقيقة... لم تتواطئي أبدا مع إي حلم، لا مكان للحلم لديها... وحين إستبدل عصاه ببندقية ظناً منه أنها الطريق... الطريق...(قهقه بحرقة) ... الطريق إلى حفرة... لا أزال أتذكر الرعب الذي إرتسم على عينيك عندما لمحتها ملفوفة بخرقة بين الإشياء القديمة مطمورة. حينها كنا نبحث عن القطة الصغيرة وموائها الذي

كان قريباً... إرتجفت يداكِ من قسوة مظهرها... كانت مزيتة نظيفة مستعدة إلا نحن، دهشنا بوجودها بيننا تكشر بفوهتها المعدنية الحادة الحواف... أعادت لفها بالخرقة مرتبكة، تحاول مداراة خوفها، وقراءة ملامح وجهي، ردة فعلي حين هتفت مندهشاً (أمي... أنها بندقية!! أنها بندقية!!... لمن هي؟! أمي لمن هذه؟؟ لا... لا أدري يا ولدي... ربما لأحد أصدقاء أبيك) كان صوتها مرتبكاً... خشيت أن تكون له... لكنك حاولتِ إقناعي وإقناع نفسكِ أكثر بأنها لصديقه، وطلبتِ مني بحرص شديد أن لا أخبر أحداً بوجودها حتى زينب. وخرجنا من غرفة المخزن قبل أن نجد القطة التي كانت تموء في مكان ما.

في منتصف الليل من ذلك اليوم صحوت على صوت شجار بينكِ وبينه... فعرفت لمن تعود البندقية، وأخلدت إلى النوم ثانية على صوت نشيجك وبكائك وأنتِ تتوسلينه أن يرجعها أو يدفنها وراء البيت في البستان. لقد سمعته وهو يرفض بثقة لم أعهدها فيه من قبل، أتراه أحب إسترسالكِ في توسله؟... أحب ضعفكِ أمامه؟... دموعكِ المنهالة لأجلنا؟... يا الله كم كان أنانياً!... إستخف بكلامك وخشيتك من المصير الذي كان في إنتظارنا... لقد ملأت أطياف أفراح النصر عقله وقلبة حتى

قبل أن ينتصر... لم يفكر بالعواقب أبداً... فليس للنصر من عواقب سوى الحرية والفرح الكبير... هذا كان رده عليكِ... لقد أغلق نافذة العقل وربما معها أُغُلقت نافذة الحظ في وجوههم... وجهه ماعدت أذكر ملامحه كاملة... تلك الملامح التي خُتم عليها بالأسى والندم حين لمحنا نلهث خائفين، والدم يتصبب من قدمك المجروحة من أثر الركض حافية تظللينا بيديك ونحن نركض بجانبك مرعوبين من صوت القذائف وأزيز الرصاص القريب، تخبطنا بين الحقول، إحتمينا بأشجار النخيل، تحايلت علينا الطرق وقاطعت سيرنا السواقي والجداول في متاهة مجنونة على إيقاع صراخنا المتناغم مع صراخ الدبابات التي تتقدم مهتاجة... وصلنا ولا أعلم كيف الى ضريح الإمام الحسين... مع جموع من النساء والأطفال كذلك بعضاً من الثوار الذين لم يجدوا ملاذاً لهم سوى الصحن الشريف، بعد أن أغلقت الدبابات المنافذ وحاصرت المدينة... أوه إستيقظي أمي فاتك إحتفال المدينة، أصوات العيارات النارية والهتاف لم يتوقفا، غداً لن أقص عليك ما جرى اليوم... أخبريني ألم يحتمل قلبك الفرح؟!... أمي إستيقظي أرجوكِ... لم أعتد أن أراك نائمة... فالجبال لا تنام... واقفة

تبقى أبد الدهر وأنتِ جبلي الذي راهنت على صموده دوماً... إنهضي أمي... لا أحتمل أن أراكِ ترقدين صامتة هكذا... لا بد أن أمين هو الآخر قلق... كان صوته متحشرجاً خائفاً حين هاتفني... كلانا بحاجة لكِ... أرجوكِ سامحيني ولا تنخدعي بتظاهري أمامك بالقوة والأعتماد على نفسي... أمي أنا لا أستحق، ولن أستحق كل تضحياتك لأجلي لكن أرجوك إنهضي، لن أستطيع المواصلة دونك حتى وإن إبتعدت وتعمدت مجافاتكِ... إغفري لي ذنوبي وسامحيني، أنا دونك لا أصلح لشيء. إنهضي أمي فالطريق أمامنا طويل... أستبد التعب بكِ بعد أن فقدتِ من دمك... حاولت وإياك شد الجرح في كتفك بخرقة قماش من ملابسك... كنت خائفاً من منظر الدم الذي لمع تحت ضوء القمر، رائحته... لزوجته ودفئه غمرتا يدي وانأ اساعدك في شد الخرقة عليه... سرنا لفترة من الزمن الى الأمام أم بشكل دائري حول الحفرة التي فررنا منها لا نعلم... فكل همنا الأبتعاد عن عيونهم التي تركتنا وجبة شهية للذئاب... التوغل في الصحراء هو أشبه بمتاهة لا تنتهي، كنا ندور حول أنفسنا وكذلك الكثبان تدور حولنا حارة جافة... يتداخل صوتها مع عواء بعيد فيبعث في القلب رعباً

كبيراً... ثقلت قدماكِ كذلك وعيكِ... توسدنا الرمال فراشاً... غفونا بعض الوقت إلا أني صحوت مرتعباً على صوت عواء يقترب أو ربما كان حلماً لا أذكر الآن بالضبط... لم تستيقظي بسهولة، نزف جرحك الكثير من الدم... سحبتكِ من يدك، كان جسمك ثقيلاً... أخذ منك التعب والإرهاق وعيك وتركيزك وحتى رغبتك وقدرتك على مواصلة السير... طلبتِ مني متوسلة أن أكمل الطريق وحدي أن أسير ولا أتوقف... لم أستجب لدموعك ولطلبك المتكرر أن أتركلكِ وأذهب... جلست قربكِ أبكي رافضاً التحرك خطوة دونكِ، خوفكِ عليّ من نهاية محتمة في صحراء كهذه بعث في نفسك وجسدك قوة وطاقة جديدة، هي قوة الأمومة التي لا تهزمها كل قوى الطبيعة... نهضتِ رغم آلامكِ... رغم الدم الذي إستنزف قواك وخشيتك من رائحته التي قد تجذب الذئاب نحونا... سرنا على غير هدى من شيء سوى الأمل بالوصول... الأمل بالنجاة من قدر غافلناه... أملاً بالخلاص... الخلاص... أمي عليكِ أن تنهضي فلا يزال الطريق طويلاً. (آخذاً يد أمه بين يديه الاثنتين حاضنا إياها مجهشاً ببكاء مر لم يعهده منذ زمن حتى أنه لم يشعر بدخول الممرضة الى الغرفة وإقترابها منه مواسية)

- لا تقلق هكذا... تبدو حالة والدتك مستقرة دقات قلبها كذلك الضغط (وهي تتفحصها عن كثب)

- نعم الحمد لله.

- غدا صباحا سيتابع حالتها الطبيب مرة أخرى، وإن شاء الله لن تحتاج الى البقاء أكثر هنا، ما الذي ألم بها؟

تنحنح قبل أن يجيب مترددا:

- صراحة لا أعلم... لم أكن حينها في البيت (فرمقته الممرضة بنظرة مستجوبة حثتة على إكمال حديثه) أنا أقيم في البصرة... أدرس في كلية القانون... لم أعلم بذلك إلا لاحقاً.

- نعم كان والدك معها قبل أن تأتي اليها، هو الآخر مشغول البال ومتوتر، لازمها طوال الوقت قلقاً خائفاً... يبدو أنه يحب والدتك للغاية، بابتسامة خجلى وأردفت قائلة:

- لمحته أكثر من مرة محمر العينين يذرف الدموع.

رسم كاظم مرغماً إبتسامة صغيرة على طرف فمه حين قال:

- لا غنى لنا عنها.

- أسال الله أن يمن عليها بالعافية، حتى ترجع الى بيتها، أدعُ الله لها يا ولدي.

وألقت نظرة أخيرة على المريضة ثم قالت:

- إن إحتجت الى شيء أخبرني... لا تتردد... غداً سيكون كل شيء بخير، إياك والبكاء ثانية، ماتحتاجة منك هو الدعاء... الدعاء يا ولدي.

«والدي... أين هو والدي؟ من هو والدي؟ أتعرف يا كاظم من هو والدي أم أنت أيضا تدعي عدم المعرفة أو تحاول طمس الحقيقة... الحقيقة التي تؤرقك دوما وستحمل وزرها، من أنت يا كاظم؟... أأنت أبن الشهيد! أي شهيد فيهما؟! فكلاهما قُتل لأجل قضية لا ناقة له فيها ولا جمل... أأنت إبن شهيد حرب الثمانينات أم إبن شهيد إنتفاضة التسعينيات؟... أيهما أنت؟ مسكين أنت يا إبن الشهيد محكوم دوماً بيتم الشهادة، وبشفقة من حولك... يا إبن الشهيد... فلماذا لم تخبر تلك الممرضة بأنك إبن الشهيد؟ وما ذلك الرجل سوى... إمك ومنقذنا الذي قبض الثمن وكل أرباحه... إبن الشهيد... الشهيد الذي أحمل إسمه الآن، أم الشهيد الذي طمر هو وإسمه في تلك الحفرة... إبن من أنت؟! إبن اي شهيد؟... كلاهما تحت التراب دون شاهد قبر أو دليل... لقد وفرا عليك يا كاظم مشاق زيارة قبرهما».

(مسكين يحبها للغاية... يذرف الدموع لإجلها) نعم يذرف الدموع، حتى التماسيح تذرف الدموع وهي تبتلع فريستها... كم أنت محظوظ؟!... كسبت تعاطف الممرضة من أول دمعة ولم يرَ أحدٌ دموعكِ يا أمي... لم يتعاطف معها أحدٌ، حتى أنا إبنك... أمي أنتِ ضحيتنا، ضحية الرجال... جميعنا أفسدنا حياتك بأنانيتنا... ضحية رجل لم يعرف أن يقدر يوماً سوء العواقب، وحين أراد أن يثبت رجولته، إشترى بندقية وتبنى قضية... ضحية من أحببتِ أنتِ... متى تعلمين... أنني لا أستحق حبكِ وكل تضحيتك، فانا الآخر رجل أناني يدور في رحى نفسه، يجوب في أعماقها بحثا عن سؤال السؤال، يتمادى في هلوسته، وفكرة الانتقام تتأرجح في مخيلته باستمرار... أمي لقد ابتعدت عنك، تجاهلت كل التضحيات ولربما أني حقدت عليك لاجل ذلك... لآجل شجاعتك وصبرك، مثابرتك وعزمك، يبدو أني مثله يا أمي... رجل يخشى امرأة مثلك، يغار منها أو يغار عليها... لا أعلم يا أمي، أنا لا أستطيع التفسير... لكني متأكد بأنك اكبر منا جميعنا... وقد هزمتنا بصبرك وقلبك الطيب الواحد تلو الآخر... وحتى سجانك، هاهو اليوم يبكي عليك، يفتقد ظلك المخيم على بيته

ولربما قلبه... ماذا أقول انا؟!... قلبه (ضحك ساخراً من حماقة خاطره) لم أفكر يوماً أن له قلباً... يبدو أن البرد بدأ يشوش على أفكاري... أمثاله ولدوا بلا قلوب، لا يعرف الرحمة... أستغل عجز امرأة، ضعفها، حبها لولدها. أشترت صمته غالياً... غالياً للغاية... لماذا يا أمي لم أستطع إستيعاب ذلك... كم أكره أن أكون السبب في كل الآمك وكنت... كنت السبب، كما كان هو السبب... يا الله كم أمقت وجه الشبه بيني وبينه... كم أكره الرجال... هي لا تعرف كم أخشى عليها مني... أقرأ في عينيها الكثير، عتباً وملامة، وربما أحياناً حقداً وتصنع لامبالاة وعدم إهتمام... لكني أفرح مستاء من مشاعرها هذه، وأدعي أنا الآخر البلادة والغباء... التهرب منها في المرات الكثيرة التي حاولت فيها أن تلمح أو تقول... لكني دوماً كنت أجرحها بالهروب ممازحاً إياها، أو مديراً دفة الحديث... أتألم حين أرى الخيبة ترتسم على صفو عينيها وتكدره... أتألم حين ألمح دمعة تحاول جاهدة المكوث في مقلتيها وغصة تتعثر بها أنفاسها... أمي أنا قاس... أعلم بذلك... إلا أني رغم ذلك لست حجراً... هي لا تعلم من أنا... هي لا تعرف مدى خشيتي عليها مني، أنت وحدك أمي تعرفين، وحدك تعرفين...أرفض

أن... أرفض أن أكون سبباً في ظلم وتعاسة وفية آخرى... لا أريد وفية أخرى في حياتي... لا أريد، ولا أستحق يا أمي... لا أستحق... أرجوك هيا أنهضي ودعينا نعد الى البيت... لكن مع الأسف لا بيت حقيقي لنا... بيتنا الصغير داسته أقدام الدبابات مجرفة النخلات وشجيرات التين، حتى جدول الماء خنقوه بالتراب. أقتربت خلسة في أحدى المرات منه، ولم أشاهد سوى أرضٍ يعتاش عليها القصب والحشائش وكوخ في طرفه... تغير المكان كثيراً، لبس حلة جديدة مختلفة، كذلك الجيران، لا تخافي لم يلمح أحدٌ وجودي او حتى يميزني وزيادة في الأحتياط، إرتديت قلنسوة غطت معظم وجهي... صرت غريباً حتى المكان لم يستطع أن يشعر بوجودي... تجولت قرابة ربع ساعة، قهرتني غربة المكان وتنكره لي، كذلك لمحت حينها رفيق الدراسة، تغير هو الآخر لحية وشارب خفيفين، أصبح شاباً مخلفاً ذلك الصبي فقط في ذاكرتي، غمرت الدموع عيني وأنا أمر قرب رفيق الطفولة دون أن أسأله عن حاله، لكني تجرأت وسألته عن أرضنا، بقايا بستان مفجوع: أهي للبيع؟ مشيراً نحوها.

تردد، وشوك ذكرى إرتسم على وجه طلال وهو يقول (لا أظن... لقد صادرتها الحكومة) حاولت إستدراجه عن سبب المصادرة ومن هم أصحابها الحقيقيون، لكن تردده إزداد وتيرة وقال باقتضاب (لا نعرف شيئاً... نحن لا نعرف شيئاً) وإدعى إنشغاله بأمور اخرى مستأذناً... وددت ان أقول له... مابك يا صديقي هل نسيت صديق طفولتك؟ ومن حل محلي؟... أهو ذلك الصبي المدلل (أبن امه؟)، وراودتني ضحكة يائسة كبتها بصعوبة وانأ أتذكر مناكفاتنا ومشاكساتنا معه... فعلاً لقد تغير كل شيء أمي... أرقت تلك الزيارة وجداني الذي لا يعرف سبيلاً الى الراحة والسلام... تغيرنا نحن أيضاً، حصد الألم أرواحنا، جز سنابل إنسانيتنا، شغفنا وحبنا للحياة... لكن هذا اليوم ليس مناسباً لتستسلمي يا أمي ماعهدتكِ هكذا... الأستسلام ليس من طبعك أنت التي عافرتِ التراب... وأخرجتنا من القبر... من موت محقق ومصير مقدر مع العشرات التي أنت من جراحها في رحلتها الى العالم الاخر... كانت تتلقظ أنفاسها بصعوبة ودمها النازف إختلط بالتراب عند حافة الحفرة... حاولت أمي جرها من الحفرة... تئن بهدوء فحاولتِ إخراجها... سحبها... لكنها رفضت،

وطلبت منا أن نتركها في مكانها مع الآخرين... لم تكن تود أن تفوت رحلتها معهم قائلة: أهربي وابنك سريعاً، إلا أن أمي لم تستجب لرغبتها وحاولت رفعها، لكنها قالت (أرجوكِ أختي... لا تضيعي وقتك معي، أنا لن أنجو فجرحي عميق... لا تضيعي وقتك، الجرح ينزف بغزارة ولن يعود أمامي وقت... أنسيتِ أني طبيبة وأستطيع أن أقدر مدى خطورة الوضع... أرجوكِ أتركيني أنا أفضل البقاء هنا قرب أبي وأخويّ... لم يعد لي هناك شيء... أي شيء، أهلي هنا معي وسألحق بهم عما قريب جداً (وهي تتنفس بصعوبة لاهثة، خائرة القوى) أردفت مكملة: لا تتأخري يا أم كاظم... لقد ماتت روحي منذ زمن وما موتي اليوم ألا موت ثان أسهل من ذلك الأول... لقد قتلونا من أول مرة فلا تحزني أنا سأرتاح أخيراً... أرجوكِ (بصوت أجش مرهق كررت قائلة) أرجوك لا تضيعي الوقت ولا تنسي أن تقرأي لنا سورة الفاتحة وتصلي على أرواحنا حينما تسنح لك الفرصة) قبلتها أمي على وجنتيها باكية وهي تقول: (لن أنساك يا دكتورة إيمان... لن انساك وسأصلي لكم كل يوم... أعدكِ). أجهشت أمي في بكائها، كذالك أجهش الرضيع في الصراخ هو الآخر بقي حياً، يجاهد التراب الذي

غطى وجهه. سحبتني أمي من يدي، ولا يزال رأسي مستديراً نحوه ولمناشدته لنا صارخاً... كانت تجهش بالبكاء مرعوبة خائفة تتلفت حولنا فحاولت تنبيهها اليه قائلاً:

- أمي الرضيع لا يزال حياً... لا يزال حياً يا أمي.

وحاولت إفلات يدي منها والذهاب نحوه لكنها أمسكت يدي بقوة وسارت بنا.

- أمي... أمي ما بالكِ؟!... أخي ماجد لا يزال حياً... ألا تسمعين صراخه... سيخنقه التراب إن لم...

لم تدعني أكمل جملتي ونهرتني قائله:

- ليس لديك أخ... هو ليس بأخيك.

- ولكن يا أمي... كيف... كان في بطنك!!

- هو ليس بأخيك يا كاظم... ليس لك أخ... إنسَ ذلك.

لم أفهم لماذا تتصرف أمي هكذا مع رضيعها الصغير... والى الآن لم أفهم أو أتفهم قسوتك يا أمي... لماذا كنت قاسية مع طفل صغير... لماذا حملته وزر أخطاء الآخرين... كان صغيراَ يصرخ، يستغيث طالباً النجدة من أمه... هو لا يعرف سواك... أنت أمه فلماذا خذلته هكذا أمي؟... لماذا؟... لماذا تركته يختنق تحت التراب؟... هل طمرت الحقيقة عندما

طمرته تحت التراب حياً؟... لا يزال صراخه إلى الآن أسمعه يتشظى، يتردد صداه طالباً النجدة. أكملت الطريق وانا أبكي متوسلاً إياكِ أن نأخذي ماجداً معنا، وأذكر أني تعهدت لكِ أن أحمله عنكِ... كانت دموعك تنهمر لكنكِ أهلتِ تراب قسوتك عليها، ولم أصدق للآن كيف أستطعت فعل ذلك؟!! حتى أني في بعض الأحيان أظنه من وحي خيالي أنا ولم يكن حقيقة. بشاعة الحقيقة أعمت عقلي عن إدراكها أو تفهمها... لقد إفتقدت ذلك الصغير الذي كان يحبو نحوي زاحفاً على بطنه، كيف أستطعتِ؟... كيف؟! أتساءل دوماً أي ألم إختبرته؟ وأي وجع؟ حين قررت تركه والتخلي عنه مطموراً يستنجدكِ... يستنجد أمه التي لم يجف حليبها... كيف!!... كيف؟!... لماذا لم تغفري له ذنبه الذي لم يقترفه؟

كانت تلك اللحظات مجنونة... لا أستطيع تذكر هول الألم والخسارة، هول الأنتظار المرعب لرصاصة تنطلق نحوك في الرأس أو الصدر... رائحة البارود... صراخ توسلات... أجساد تتساقط حولك... فزع عظيم وأنت تنتظر دورك في رصاصة تخلصك من هذا الألم... لمحته وهو يسقط، رصاصتين كان نصيبه ليغادر في رحلة جماعية عائلية... هل

كان عقلكِ مغيباً بعد هول تلك الدقائق... لا أعلم، أحاول دوما إفتعال أسباب أو تبريرات لك أمي... شعرت بالحقد عليكِ في مرات كثيرة... شككت بقلبك، أن يكون موجوداً في صدرك... أمات هو الآخر في ذلك اليوم؟... كيف!... أشعر أحياناً بالذنب، هل أنتزعتُ كل الحب والحنان ولم أبق لذلك الرضيع شيئاً؟... قرأت ذات مرة أن ثدي الأم يحزن حينما تفقد رضيعها، فكيف بقلبك الذي طاوعك في لحظة مجنونة؟.. إبتعدنا ولا يزال صوت صراخه المستغيث يتبعنا... كان مستلقياً على ظهره، يعافر بقدميه ويديه الصغيرتين التراب... هم ضحايا ظلم طاغية مجنون... وهو ضحية حرب أم ضحية أم فقدت رشدها، أو قلبها في حفرة وسط أشلاء وأجساد. أتعلمين يا أماه، أني في كثير من المرات، حينما ألمحكِ تصلين وتلهثين بالدعاء ناشرة كفيك... يجول في خاطري سؤال... أتراك تستغفرين تطلبين منه الصفح والمغفرة أم كي يجود عليك بالنسيان؟... أمور كثيرة لم أفهمها ولم أستطع تفسيرها، أربكت وشوشت مداركي حتى بت بعيداً... كل البعد عنك أمي... سنوات صعبة مربكة... إختل فيها ميزاني فرجحت كفة العقل على كفة الحب... فآثرت البعد، الصمت... الصمت

الذي عذبني وأدخلني في متاهات وأسئلة لا جواب لها سوى الصمت والفراغ... لكن إقامتي مع أمين في حجرته قد خففت الضغط عليّ قليلاً، وفسحت لي فرصة أكبر في تحاشيكِ وتجنب الحديث معك، إلا أن الخيالات ظلت تطاردني وتقض عليّ مضجعي حين أشم رائحة عطره تنفث في الإرجاء يحملها الهواء لي كرسالة يقتلني مغزاها... يحطم فحولة في أول طريقها إلى البلوغ... كرهته وكرهت نفسي أكثر... كرهت أن أكون سبباً في شقائك، وفقدان كل ما هوعزيز عليكِ.. نعم أمي نصيبك في الحظ قليل مع من أحببتِ... كنتِ على الدوام القربان... ولم يستحق أي أحد منا ذلك... مسكينة أنت أهدرت كل حياتك... لم تنالي من الحب إلا ألمه، الألم الذي تحملته وحدك حتى أعيش أنا، حتى أنجو أنا... لماذا كانت حياتي هكذا غالية عليك؟ وفي المقابل حياة ذلك المسكين رخيصة مادمنا أبناء رحم واحد سؤال يؤرقني... حتى إني لمحت مرة بصورة عبارة لأمين... لعلي أتعرف على إجابة أخرى أو تبرير مقنع، لكن ما أعرفه، هو أيضاً كان قرباناً مثلكِ تماما. مثلك تماماً يا أمي... ولا أريدها هي الأخرى أن تكون قرباناً... أن يخيب أملها الآن وتحزن بعض الوقت خير

لها من أن تقطف ثمار حبها لي شقاء وذلاً، أن تكرهني اليوم أفضل بكثير من أن تلعنني غداً، غداً ستلعنني وتلعن تلك اللحظات الجميلة الصامتة التي جمعتنا أحياناً معاً، وانأ أتحاشى ما تحاول عيناها الأفصاح عنه ويعجز لسانها عن التفوه به... صعب، أدرك صعوبة موقفها... أدرك حجم ألمها... لكنها لا تعلم أني أجنبها ما هو أكبر وأشد من ألم الحب... أه لو تعلم... ما أجنبها الخوض فيه... أو حتى معرفته والاقتراب منه... ألم اليوم سيوفر عليكِ أعواماً من الشقاء يا شهد... شهد... آه كنت أظن إني قد طويت على الأقل صفحة واحدة... صفحة واحدة... لم أتوقع أن بذرة الماضي قد صارت شجرة جميلة مورقة... البرعم الصغير صار وردة... لم يعد أي معنى لتلك الساعة الصباحية التي تذوق فيها الشمس طعم جلودنا الباهتة اللون، المعتقة برائحة العتمة الكريهة... كنا معاً طوال الوقت حتى ساعة النوم، حين تجركِ جدتك جراً حيث مكانكما في الزاوية القصية من القاووش... وكم من مرة وبختكِ جدتكِ على أيقاظي... كانت دوماً تصحو قبلنا كالشمس... تسرع إلينا متخطية بقية النائمين... لم تترك لي فرصة البقاء دونها إلا في الليالي التي يأتي أحد الحراس

لأخذها إلى غرفة الإدارة... غرفة الضابط... وفي الصباح تأتي إلي بلوح كاكاو قائلة (واحد لك وواحد لي) كنت آخذه منها في البداية ولما تناهي إلى مسامعي بعض اللغط والثرثرة غير المفهومة بالنسبة لي حينها شككت بالأمر. سمعتهن أحياناً يهمسن (مسكينة لا تزال صغيرة على ذلك) أو (أنذال لا يستحون ولا يخافون من الله، هي بعمر أطفالهم)... إرتفعت وتيرة اللغط بين النسوة لا سيما حين يأتي الحارس لأخذها من القاووش وهي تجري بين إرجائه هاربة منه... لم أفهم ما يجري حولي ولم أفهم معنى نظرات الشفقة التي حاصرنكِ بها، والسباب والشتم على الحارس ولكل شيء... إلا أنه لم يتوانَ مرة عن أخذها معه رغم رفضها وازدراء وشتم الأخريات... كنت صغيراً... ولم... أفهم... الثمن الذي تدفعينة يا شيرين مقابل لوحي الكاكاو... الذي لم يشاركك أكلها سواي وسواي أنا... أه يا للذل والعار الذي لحق بي... تفرط الجدة في البكاء تتوسل الحارس أن يأخذها بدلاً عن حفيدتها، فيرد عليها ساخراً شاتماً. مشهد يعيد نفسه مرتين بين الجمعة والجمعة... حتى أنها طلبت مني مرة أن أساعدها بالاختباء منه بين الافراشة وأواني الطبخ البسيطة... أفلحنا مرة

واحدة... لكني أظن بعدما ناله الحارس من توبيخ الضباط وكدمات أعطت لوجهه الكالح لوناً آخر، لم يتساهل في التفتيش وقلب القاووش رأسا على عقب في المرة الثانية حتى وجدها... ساحباً إياها من يدين أختنقتا بين قبضة يده الفولاذية، لتدفع ثمن لوحي الكاكاو الذي تعود بهما... أذكر مرة إني سمعتكِ تهمهمين مع نفسكِ حين كانت زينب تبكي وتريد قطعة من شيرين (أنها لها... هذه الألواح ثمينة... ثمينة للغاية... فلا تطلبي ما ليس لكِ)... نعم أمي علينا ان نتخلى عن ما ليس لنا... أن نتبع صوت العقل، لا دقات القلب التي تتسارع حالما أراها مقبلة، وأنسى لوهلة ما وعدت نفسي به فتضيع المواثيق وتكسر العقود بيننا... آه يا الله كم أمقت نفسي المتأرجحة بين حبها والأبتعاد، حضورها والغياب، ترتفع حرارتي يتفصد العرق على جبيني، تتعثر مني الكلمات ولا أعرف بماذا أرد عندما تقول بصوت عذب بصري (مرحباً، كيف الحال يا كاظم) تلفظها بالظاء وليس بالزاي.

طالما حاولت أن أدربها على لفظها بصورة صحيحة لكن كل محاولاتي ضاعت سدى وعشقت أسمي حين كانت تلفظه (كازم)... كاظم وكازم، ضعت بينهما أمي، مثلما ضيعت

الهوية حين ضعنا بين كثبان الرمال ننشد طريق الخلاص مع قمر عجوز يمد يده الشحيحية لنا. تقدمنا في المسير، ببطء كنت تجرجرين قدميك الحافيتين، نال منا التعب ولولا عواء الذئاب الذي كان يوقظ كل حواسنا لإستسلمنا للنوم... طاقة نور تقترب... أضواء مصابيح سيارة تطلق نورها في الإرجاء، تمخر عباب الرمل على مهل، هلعت قلوبنا ظننا أنهم قد أطلقوا الكلاب... لكن باقترابها تبين لنا أنها سيارة مدنية، كذالك السائق الذي كان يغني مع مذياعه الصادح الصوت... إقترحتِ إن نقترب من السيارة ونقف في طريقها... خشيتِ أن يدهسنا... وإثناء ذلك وقفت في طريقه ملوحة مستغيثة... كان نصف نائم ونصف سكران بدا ذلك واضحاً من صوته، أوقف سيارته وأقلنا معه... لم تبح له أمي بالكثير، لكنه على ما يبدو فهم أكثر مما أخبرته... كان هو قد ضيع الطريق إلى بيته، فاستغرقنا وقتاً نجوب البادية حتى إستدل على الشارع الرئيسي... إنهارت قواكِ تماما... نزفتِ الكثير... حاول هو أن يوقف النزيف بخرقة من سيارته... يبدو أن منظر الدم أفزعه ورائحته قد أيقظته من سكره، فقاد سيارته مسرعاً نحو بيته وفي الطريق أقل معنا المضمد الذي إرتاب من منظرنا،

ليضمد الجرح ويخيطه بعد أن تركت الرصاصة أكثر من سؤال على وجهه، أجابها الرجل الذي أقلنا برزمة أموال وفيرة مزينة بحكاية وهمية، حين قال بأنك زوجة أخيه الشهيد وإبنها الهاربة من البصرة بعد إن أطلق أخوها النار عليها بحجة رفضها الزواج من إبن عمها. سمعت وقتها القصة وكدت أنا الآخر أصدقها.. كانت قصة مؤثرة... وكان رد ذكياً... كالثعلب تتلمظ عيناه علينا، وهو يحكي للمضمد هذه القصة التي ستلوكها أفواه الناس غداً صباحاً... يا الله كم كان داهية... لقد وقعنا في الفخ الذي أعده بحذر وحنكة عالية... أمي... أمي لقد عدنا إلى زنزانة أخرى، حجرة في أخر الممشى... حجرة للأشياء القديمة... حجرة للخادمات اللواتي توالين عليها، ونحن آخرهم، حجرة آخر الممشى... زنزانة بلا قضبان، فرضت سجنها على أروحنا التي بقيت مغلولة.

أمي سرت الإشاعة بين الناس بأنك زوجة الشهيد وأنا إبنه، لكنك صرت الخادمة الجديدة للبيت التي لا تتقاضى أجراً على أعمالها... وأنا إبن الخادمة الذي إحتقره الصبيان المراهقان، وكأن الكذبة لم تنطلِ عليهما أو لم يودا تصديقها، وبقيت في عينيهما إبن الخادمة الذي طالما تجنب الاقتراب أو التواجد

معهما في مكان واحد، لئلا أسمع منهما سيلاً من الإهانات والشتائم التي كانت تنغص عليّ حياتي البائسة... لكني أخذت بنصيحتك وتسلحت بالعلم الذي خشياه كثيراً، تفوقي في دراستي كان حجر العثرة أمامهما للنيل مني، فتعايشنا نجتنب بعضنا بعضاً... كنت محقة يا أمي... محقة... نعم محقة في أمور كثيرة، لليوم كنت أجهل أو بالاحرى أتجاهل وأتغاضى عن رؤيتها على حقيقتها أو فهمها بطريقة عقلانية بعيدة عن طيش المراهقين وجنوحهم... إغفري لي أمي... لقد تغيرت، ربما لا تصدقين ذلك... لكن شعوري اليوم لا يوصف حين هاتفني أمين وأخبرني بتوعكك... أمي لا أستطيع العيش دونك وأن حاولت الابتعاد عنك وصدك والادعاء باني كبير فلا تصدقي... أنا اليوم أيضا إكتشفت كذبي إدعائي وتصنعي... لا تصدقي كل ذلك زيف، وتبقين وحدكِ الحقيقة المطلقة في حياتي... الحقيقة الثابتة، غير القابلة للتغيير مهما حصل... الحقيقة التي بقيت ثابتة في هوية الأحوال المدنية الجديدة التي أصدرها لي عبد الجبار مع بقية الوثائق الآخرى حين قام بتسجيلي في المدرسة، كانت علاقاته واسعة ونفوذه كبيراً وبسهولة إستخرج لي أوراقاً ثبوتية أخرى من دائرة الأحوال

المدنية باسم أخية الشهيد... الذي إستشهد بعد زواجه بعدة أشهر، أسمكِ الوحيد بقي على حاله في الهوية، وبالكاد حافظت أنا الآخر على أسمي، فقد سمعتك وأنت تتوسلينه ليبقي على أسمي (ليس من السهل إن تغير إسمه، لن ينسجم مع أسم جديد... هو ولدي وأنا أعرفه... أرجوك لا تغيره... أبقه كاظم كما هو... هو صغير، لم ينتبه أحد لأسمه أو شكله و...) أذكر كيف بذلت كل جهدك ولم توفري منه شيئاً في إقناعه... إقناع ذلك السجان الجديد.. الذي عرف كيف يطوقنا بسلاسله ويمسك أعناقنا بيده... عرف كيف يستغل خوفك وخشيتك عليّ... ذلك المتوحش عرف... نعم إستغلك... أمي لو تعلمين كم أكره نفسي... كم أمقتها وأحتقرها... كل ما أنتِ فيه كان بسببي... بسبب خشيتك عليّ أهدرت ما تبقى من كرامتك... أنا وهو لم نبقِ على انسانيتكِ، أولاً هو... وأكملت أنا من بعده، دون قصد يا أمي... والله دون قصد... لم أكن أعرف الثمن الذي تدفعينه مقابل نجاتي... مقابل حياتي هذه التي أكرهها، لأجلي يا أمي دفعتِ الكثير... الكثير... حالما إسترجعت عافيتك من أثر الإصابة بدأتِ بالاهتمام بإعمال المنزل كلها، فربة البيت مستلقية على ظهرها ممدة طوال

الوقت منذ أكثر من خمس سنوات عندما إنزلقت قدمها في الحمام كاسرة حوضها، فأصيب الحوض بكسور جمة... كانت طيبة القلب، لم تؤثر على فطرتها السليمة سادية زوجها وخشونته معها... حتى أنها كانت سعيدة بوضعها الذي أبعد عبد الجبار عنها كما سمعتها تخبركِ بذلك يوماً... لا أعلم إن كانت قد صدقت روايته حولنا... لم يكن يبدو على ملامحها شيء، هي كتومة إلى حد بعيد حين تريد ذلك... هل صدقت فعلاً حكاية زوجها... لكن ماذا كان يضيرها إن صدقت أو لا... ولتكن ما تكون مادامت تهتم بالبيت الذي أصبح خارج إهتمامها ونفوذها ولا تعرف عما يدور فيه. كانت مطمئنة إلى عزلتها، تعيش الهدوء الذي كانت تنشدة وقد تحقق إثر تلك السقطة، لم تتبرم يوماً من حالها، لكن وضع أبنائها كان يقلقها... فتطلب منك بالحاح إن تعتني بهم وبالأخص أمين... آه يا أمين أنت الآخر حكاية أخرى. هو الوحيد الذي يشبهها، طيبٌ، عفويٌ، يملك نظرات طفل وابتسامة مريحة ترتسم على وجهه دوماً في أحلك أوقاته، لن أنسى ما مررت به بسببي، لن انسى صفحك لي ومغفرتك لكل ماقاسيته بسبب حقدي... لقد بررت لي كل حماقاتي وعذرتني... لكني يا أمين لا أستطيع

أن أصفح عنه مهما حاولت ومهما حاول هو أن يصحح من أخطائه... لقد شعرت بدونيته من أول مرة لقينا فيها، وهو يتفحص مخموراً بعينين محمرتين المرأة التي كانت نصف واعية غارقة بدمها، لقد شعرت بنظراته... فقد أخترقت قلبي محذرة رغم أني كنت صغيراً... لم أفهم مغزاها... لكني شعرت... أحسست... أوه أمي إي قدر كتب لنا؟ لم تكن تلك الأنوار، طاقة النور التي هرعنا نحوها من ظلمة الصحراء خائفين، هي المخلص. كشعلة من نار طوقتنا... لا أستطيع الصفح عنه أو المغفرة له ورائحة عطرة تزكم أنفي حتى في هذه الحجرة... بين ذرات الهواء تعلق، تتسرب إلى مسامي، تخدر ضميري... يا لذلك العطر، يحاصرني منذ سنوات، لم أعد أطيق حتى ملابسي... كل شيء فيها يعبق برائحة عطره... أصبح نومي على السرير قربكِ أمي عذاباً لا ينتهي، على الوسائد، الشراشف... أخشى إن إقتربت منك أكثر أن ألمحه راقداً على صفحة خدك، أو متغلغلا بين طيات شعرك... هو يتحداني باللحاق بي إلى كل مكان. أصبحت أكرة المكوث في تلك الحجرة ورائحته تسخر مني... تستفز قواي ومخيلتي... أصبح عسيراً أن أبقي في الحجرة التي...

ويسخر مني ذلك العطر اللعين في كل مرة... يسخر مني، داخلا إلى خياشيمي دون إرادتي... كل شيء يجري دون إرادة مني منذ ساعة ميلادي. لابد أن... لابد أن... أخلص نفسي وأحرر أنفاسي من عطره، لا بد أن أنجح حتى وإن فشلت مرة في قطع وريدي لأصحو في المستشفى على ذرات عالقة في الهواء تأبى إن تفارقني حتى بعد أن غادر... أرأيتِ يا أمي كم أنا تعيس وخائب الرجاء حتى في الموت، ذهبت إليه بقدمي فصدني، وكأنة يعاقبني... يعاقبني على الهروب منه مرة، لم يعد يقرب مني... أوه أمي هل هذا عقابي؟ أم لأنك إفتديتِ حياتك كلها لاجل حياتي. أخبريني متى ... متى قايضت الموت على هكذا صفقة متى عقدتها؟ أمي... أي قوة تكمن فيك؟... تحركك؟ وأين هي الآن؟ أرجوك إنهضي لا يليق النوم بك... حتى بعد أن تركت الحجرة وذهبت للنوم مع أمين كنتِ لا تنامين إلا بعد أن تطمئني علينا... مرات عدة حين ألمح مقبض الباب يدور، أطمر وجهي في الوسادة... أغمض عينيّ بشدة... مع قبلة على الخد تودعينني... تسحبين الغطاء عليّ... عذبني الإبتعاد عنك... النوم بعيداً عن جديلتكِ

التي أسرتني... أوه أمي لا أستطيع أن أتخيل أن جمال المرأة يكمل دون جديلة...

بعمري أشتري

لها

شريطاً ملوناً

مشطاً

سوداء كالليل

توقض مضجعي

جنوني وألمي

خيالي

واكبر همومي

سوداء كالليل

طالتها الأيادي

عبثت

قتلت

أرق أحلامي

مزقت فؤادي

سوداء كالليل

يحرسها من الأعادي

وقام بصورة لا إرادية من كرسيه نحو أمه، وكأنة يتفحص بقايا الجديلة المختبئة تحت ظلال رمادية وحجاب، فاستغفلته دمعة تدحرجت على خده، مسحها بكم قميصه مرتبكاً... أوه أمي كم أنا جاحد... ألا يزال شريطك الأحمر يذيل الجديلة بوردة كنت أداعبها وأشمها كل ليلة قبل إن أنام؟ ألا تزال حمراء أم هي الأخرى تغير لونها؟... أتذكر كيف إقتطعت جزءً منه عندما جدلت شعر شيرين في محاولة منك لتكبيل جنوح ذلك الشعر الناعم المسترسل، والذي نهيتني مرات عن الإمساك بضفيرتها وأنتِ تبتسمين قائلة (عيب يا كاظم... لا يجوز أن تمسك شعر البنت) وانا أنزل يديّ خجلاً من إبتسامتها مغمغماً... ما المانع؟... لم أفهم ما المانع لاسيما وأنها لم ترفض ذلك، بل على العكس... ساعدتها على تصفيف الجديلة وربطها جيداً لئلا توبخها جدتها مرات ومرات، كنت أود إن أقول لك ذلك... لكن إبتسامتك أوقفتني وأنت تقولين (لا يصح إن تداعب جديلتها، هي بنت وأنت ولد). أمي هل إحتفظتِ عندكِ بشريط جديلتها؟... لقد فتشت عنه بين أشياءكِ ولم أجده... تحينت الفرصة عدة مرات، حتى أفتش بين أشياء

الجدة... وكانت إحدى الصباحات عندما فرغ (القاووش) تماماً... كان متدلياً، وحيداً، يفتقد خصلاته الذهبية التي كان يحيطها باهتمام، يطبق عليها برفق، يخشى عليها من الأنظار الفضولية المتفحصة... خبأتة في جيبي... محاولاً طرد وحدته بوحدتي... شوقي... بشوقه إليها في أن نكون أصحاباً... هو الآن لا يفارق محفظتي. وأخرج محفظة نقوده الجلدية من جيب صدره، ليؤكد أو يتأكد هو من وجودة أو ليبثه شوقه وافتقاده. أخرجه من أحد جيوب المحفظة، تلمسه بأصابعه، مغلق العينين على دمعة وحشرجة في البلعوم. حرك قدميه الخدرتين وأخذ يذرع أرض الحجرة الصغيرة، إستوقفته النافذة، إقترب يستطلع الهدوء والظلمة خارجاً... كل شيء ساكن، حتى أصوات العيارات النارية تلاشت، برودة هذه الليلة أرجعت المحتفلين إلى مساكنهم بأيادٍ منكمشة وأنوف حمراء. وأخذ يدعك كفيه ببعض مستفيداً من تطبيقات الفيزياء مادام (الهيتر) هو الآخر يقاوم البرد بصعوبة يشحذ حرارته من آخر (شمعة) فيه.

عاد إلى كرسيه بعد أن إطمأن ثانية إلى موصل الأوكسجين وجهاز القلب الذي بدا عليه الاستقرار في التأرجح صعودا

ونزولاً بخطه الأخضر. أعاد ترتيب غطائها (أوه أمي... قضيت كل لياليك تعيدين ترتيب دفاتري، تطبعين قبلة على خدي أو جبيني).

لف نفسه (بالبطانية) وهو يتفحص ساعة متهالكة على الجدار، أضناها السهر واحتساب أوقات خرجت عن سلطتها وعمرها الأفتراضي، فُنسيت على الحائط، عشعش عليها الغبار، وعنكبوت صغير سد باب ونوافذ بيته بأحكام. تفحص ساعة يده، وأدرك أن ليس لهذه الليلة نهار... كانت ليلة حارة شاقة، أضافت إلى أجسادنا المرهقة للغاية ألماً كبيراً إضافياً ونحن نتوسد الرمال غارقين في عرقنا، في خشيتنا من المجهول الذي بات يهمس به البعض همساً... مع خطوط الضياء الأولى، وقفنا في طوابير أمام بوابة كبيرة تتوسط بناء موحشاً كالحاً، بانت ملامحه كوحش جبار يقبع في الصحراء، فاغراً فمه الواسع الذي إبتلعنا حال إكمال التعداد وقراءة الأسماء. أفضى هذا الباب الكبير على رواق إصطفت على جانبيه غرف صامتة وأخرى مظلمة، قابلنا باب آخر قد توسط الرواق وكشر عن أنيابه الحديدية الصدئة ليفضي بنا جميعاً إلى باحة مفتوحة كبيرة مستطيلة الشكل، ترقد على جانبيها

عشر قاعات كبيرة كأنها أضلاع ذلك الوحش الذي إفترسنا. خمسة إضلاع (قاعات) من كل جانب، وممر إسمنتي غطت وجهه الحفر يتوسط الباحة ليقسمها إلى قسمين، لعبنا عليه فيما بعد لعبة (الطاق) أنا وزينب وشيرين وبعض الأطفال.

إنتظرنا بعض الوقت مرة أخرى، نادوا بأسماء الرجال، فوقفوا في الجانب الأيمن، بعدها أسماء النساء والأطفال، فوقفنا في الجانب الأيسر، وهكذا تفرق شمل العوائل وأصبح كل في جانبه.

أستمررتِ يا أمي تكزينني بكوعك في كل مرة أحاول فيها الوقوف بصورة معتدلة حتى بعد أن انتهوا من فرز الأسماء وتعدادها... أوه كم خشيتُ أن يأخذوني إلى الجانب الآخر معه... فالحمد لله على قصر قامتي في ذلك الوقت وضعف بنيتي اللذين كانتا توحيان بأني اصغر من عمري بأربع أو خمس سنوات. لم تنفكي وأنتِ ترددين على مسامعي هامسة (أخبره أن عمرك تسع سنوات، حين يسألك الضابط عن عمرك، لا تنسَ يا ولدي تسع سنوات... إياك أن تخطيء تسع سنوات... تسع سنوات) وصار يردد بنغمة متهمكة ساخرة تسع سنوات... تسع سنوات... سنوات تسع، لم أنسَ يا أمي

وقبل إن يسألني أجبته: (كاظم جواد حسين، عمري تسع سنوات). وانا أقف عاقصاً ساقيّ قليلاً، وكأني بحاجة الى قصر إضافي لقامتي. أوه كم كان المكان مهيباً يثير القنوط... ضاقت الصدور منه ومن تلك الوجوه الكالحة الزرقاء القاسية، شواربهم الكثة وأصواتهم المريعة الفظة، وهم يسخرون من النزلاء الجدد، شتماً وركلاً بالإقدام أو بكعب بنادقهم بالأخص الرجال... نالت النساء أيضا نصيبهن من الإزعاج والمضايقة لكن بشكل آخر... لم أنسَ ذلك الشرطي حين إقترب منك متفحصاً بنظراته وابتسامة صفراء تطفو من فوق شاربه الأسود كاشفة عن أسنان صفراء قذرة... لم انسَ يده الوسخة حين إمتدت نحو ذقنكِ، ممسكة إياه وضاحكا غامزاً بعينه للآخر الذي كان برفقته حين قال (ما شاء الله... ما مبين عليك أم وعندك ذولي الجهال). وقعت كلماته الساخرة المتهكمة على سمعي كأنها صخر، وأحسست بيده كأنها أفعى تلتف حول رقبتكِ وأنت تشيحين بوجهك عنه ذليلة. كان هو على الجانب الآخر يرقب بعينيّ نسر أنثاه... فريسة بين مخالب ذئاب... لأول مرة منذ أشهر أشعر بالشفقة عليه، على كبريائه المهان، كرامته وشرفه المهدور المراق وهو يراهم... يرى أمام عينيه

كيف يتفحصونها... يأكلونها بأعينهم الجائعة الشرهة وأيديهم القذرة... إنتابتني رغبة مجنونة في إبعاد يده عنها، أحست بي فلكزتني مرة أخرى قاصدة إن أتداري بين ثنيات ثوبها حتى لا يتنبهوا لي فيأخذوني إلى الجانب الأخر، قسم الرجال.

فعلاً شعرت بالشفقة عليه وهلة، بعدها لا أستطيع أن أحدد بمَ شعرت بالضبط، وكيف إرتسمت على طرف فمي إبتسامه غبية حاقدة، شمتُ بك وأنت ترى زوجتك بهذا الوضع... شمت بك... شمت وانا أراك متقهقراً... شمت من النظرة الحاسرة التي إستوطنت عينيكَ، شمت... شمت ... شمت حتى من منظرك شعرك الأشعث وجسمك الهزيل المتعب... لا أعلم ما الذي أصابني حينها، كيف أشمت برجل أحمل أسمه، دمه، وحتى معظم ملامحه... شمت به حين تذكرت كيف تشاجر معك، وإفتعل مشكلة عندما سمع جدي وهو يزف خبر توظيفكِ معلمة في إحدى مدارس المنطقة، ثارت ثائرته وغيرته على زوجته التي لم يود أن يرى أحد ظلها... أتذكر كيف عانيت في أقناعة لكن دون جدوى، غيرته عليك أو منكِ لا أعلم، كانت أكبر من دموعك وتوسلاتك ووساطات الأهل في أقناعه، كان متزمتا حاداً في رأيه ورغبته التي فرضها عليك... تعنت في

رفضه، ورضختِ أنت لرغبته، لغيرته عليكِ أو بالأحرى منكِ. هذا ما ظننته أنا ورفضتِ أنتِ تصديقه حين أخبرتكِ بأسلوب طفولي إن تصبحي معلمة في مدرستنا وتدعي غيرته تأكله... (هو يغار يا أمي لأنك ستصبحين معلمة)... وبختني ومنعتني من تكرار مثل هذا الحديث أمامه... لكني يا أمي كنت مقتنعاً مما قلته رغم محاولتك في صرف إنتباهي عن هذه الفكرة التي نعتها بالغريبة وأنت تقولين (عيب يا ولد... كيف تقول على أبيك مثل هذه الصفات... هو أبوك... إياك أن أسمعك تردد مثل هذا الحديث أمامه أو إمام إي شخص آخر) كنتِ تخافين على مشاعره، فدفنتِ طموحك لتعيش غيرته وإستئثاره الرجولي... آووه أمي لم يوافق أن تصبحي معلمة للأطفال، وها أنت صرت كراساً تتلقفه أيدي الكبار أوه... أوه... أي تناقض وقعت فيه أنت ورجولتك الغبية!؟ أمعن النظر... أمعن النظر إلى زوجتك كيف تتحسسها الأيدي وتعريها العيون... أنظر لا تشح بوجهك... أنظر... أمعن النظر فربما هذه أخر مرة ترى فيها عائلتك.

كان يبدو عليه التعب وآثار الضرب والكدمات التي إزرق منها وجهه، بقايا ملابسه إتسعت عليه. طال ذقنه، إكتسحه

البياض، لوهلة دهشت من هيأته، لقد تغير للغاية، تركت تلك الأشهر بصمتها عليه واضحة، حتى أني لمحته يعرج في مشيته... أبي أشفق عليك أحياناً وأحياناً كثيرة أكرهك... أكرهك ورغم ذلك أيضاً أحبك أحب صوتك الهادئ، طريقتك الحنون في توبيخنا حين نتشاجر إنا وزينب والتي طالما أنبتك أمي عليها، طالبة منك إن تكون أشد صرامة في تعاملك معنا. أوه... لن أنسى كيف ساعدتني في إعداد (بوست) علق على جدار المدرسة، نال إعجاب المعلم والطلاب وانا أردد متباهياً بين الطلاب (إنه أبي... حتى أن بعضهم حسدني عليك... أوه أين هم الآن؟! أين أنت يا مصطفى؟)... مصطفى الذي تمنى دوماً أن تكون أباه... بدلاً عن أبيه القاسي السكير الذي لم يعرف في أي صف أولاده... أوه مصطفى أنا أقبل أن أعيرك أبي، موافق أن تأخذه تماما لك... لا أريد أباً أبدا... لا أريد رجلاً تعصف به أحلام اليقظة، فيشتري خلسة بندقية بثمن الثلاجة التي وفرتِ ثمنها أنتِ، وتهَرب هو يوماً إثر يوم من شرائها بحجة أنه أقرض تلك النقود إلى أحد أصدقائه لفترة من الوقت... أوه لفترة من الوقت... أي وقت كنت تقصد حينها؟... أي وقت؟ الوقت الذي تشهرون بنادقكم فيه أمام

المارد... أم الوقت الذي سيقضيه هو في إغتيالكم... مع ضوء الصباح وأشعة الشمس العالية، إكفهرت وجوهنا متسائلة واجمة، أهذه نهاية مطاف رحلتنا مع هذا المكان الموحش الراقد كتنين وحيد تحجرت أحشاؤه ولا يمل من قول: هل من مزيد؟

سرت همهمات بين الجموع، إرتسم الخوف والشحوب أكثر مع تزايد اللغط عن إسم المكان الذي هم فيه، لن يخرج أحدٌ من هنا... هذه نهايتنا... نهاية مطاف الثورة التي وئدت وهي طفل خديج... فُتح باب الزنزانة (القاووش) على رائحة نتنة تنتشر وتغمر الظلمة، الرطوبة تعشعش في الجدران الموشومة بتذكارات ورسومات من رحلوا... إتخذتِ لنا ركناً بعيداً عن تيار الهواء القادم من النافذة المسدودة بالورق المقوى والخرق العتيقة وأصبح لنا، حتى أصبح لكل نزيلة داخل القاووش مكانها الخاص الذي لا تنازعه عليه أخرى، فتحاول جاهدة على جعله نظيفاً قدر الإمكان، إذ كن يتشاركن في تنظيف القاووش بالماء وببعض مساحيق التنظيف التي يعطيها لهم الشرطي أبو جاسم خلسة وبمقدار قليل يستخدمنها في غسل بعض الأواني والاحتياجات الأخرى... إلا أن الرائحة النتنة لا

تنفك تنتشر منبعثة من الأجساد المتسخة المشبعة بالعرق ولا سيما في الصيف؟ إذ تتمازج كل الروائح مجتمعة منتجة عطراً نفاذا يزكم الأنوف، لكن مع الوقت لم نعد نشعر بتلك الروائح صرنا جزءً منها.

بشحوب وجوهنا وإمراض المعدة والأمعاء التي لازمت الكثير منا، فالماء الملوث يمزق نياط المعدة وتكاد تذوب منه الأحشاء، كانت إصابات الإسهال تتزايد بين النزلاء. لم يكترث بنا أحد، الجلادون كانوا هم رسل الموت إلينا، هم من يدير ذلك المكان... القبر، ولشدما يبهجهم لو فاضت الأرواح جميعاَ، فنحن قتلى بين شهيق وزفير. كانت زينب من أولئك الأطفال الذين لم يتحمل جسمهم تلك الجراثيم اللعينة، التي وجدت في أجسادهم الضعيفة مستقراً ومرتعاً لها. إفتقدت زينب كثيراً... كانت ألعابنا ناقصة بدونها، حتى شيرين التي كانت علاقتها بها في مد وجزر، كل واحدة منهما تجرني نحوها، بكت وفقدت حماسها في اللعب كما إفتقدت أنا تميزي الذكوري وشعوري الغامر بالأنا وهما يتنازعان عليّ، كأني الهدية الأغلى، فقدت كل هذه المشاعر بعدما رحلتِ يا زينب، لم يعد لشيرين منافس على قلبي، أوقفت حربها الضروس

وإهتمامها المبالغ فيه بي، وحين تجرني من يدي، أشعر بلمسة يدك الصغيرة تحاول جري نحو الاتجاه الآخر، نحوها... أوه زينب صغيرتي لو تعلمين كم أضحيت وحيداً بعدكما، وكم إشتقت إليكما والى نزالات لا تنتهي من الشد والشجب. أحببت غيرتكما عليّ، دموعكما المذروفة في محاولة كسب تعاطفي واصطياد تصريح مني على تفضيلي لواحدة دون الأخرى... يا إلهي حين أذكر الآن، لا أملك إلا أن أضحك وأسخر من... من تلك الدمغة الذكورية المتأصلة في كل ذكر مهما كان صغيراً... أحببت تنافسكما على قلبي الذي ضاع في تلك الصحراء... في الحفرة مع الآخرين... أه أمي لقد أنقذتِ جسدي ونسيت قلبي هناك بين الأجساد الحارة المضمخة بدمها... ليتكِ أمي... ليتكِ لم... لا أحد يخرج من جحيم الموت سالماً لا أحد... لم نكن الناجين مثلما ظننت... لم نكن الناجيين... لقد رحلت أرواحنا معهم.

أتذكر جيداً أماه تلك الفترة... وكم أستبد بك الحزن والقلق، نحل جسدك وشحب وجهك للغاية... أصبحت ساعات نومك قليلة وخاصة في الشتاء... كنت تسهرين جالسة قربي لا تنامين لئلا ينكشف الغطاء عني فأمرض، تبرعت بغطائك

لي... أمي كاد القلق والخوف على صحتي أن يقضي عليكِ... سمعت تأنيب بعض النساء لك على إهمالك صحتك وسهرك ليلا عليّ... أشفقت عليك وزاد حقدي عليه... زاد غضبي، نفوري منه، حتى وإن كنا لم نعد نراه هناك أو بالحقيقة أتجاهل النظر باتجاهه في الساعة التي يخرجونهم الى الباحة، بعد أن تنتهي الساعة المخصصة للنساء. أحاول الأبتعاد تماما عن تلك النافذة لئلا تلمحه عيناي دون قصد، ورغم ذلك فقد شاهدته مرات يجلس تحت الشمس متقزماً يحارب خواطره، أحلام يقظته، وذرات الغبار تعلق بشعره ولحيته الكثتين، فلا يظهر منه، من وجهه عن بعد سوى عينين غائرتين في تجويف يفضح بشدة عظمة خده الناتئة. لقد بدا أكبر من عمره بكثير في هذه الفترة، كذلك مشيتة لم تتحسن وظل يعرج، محدودب الظهر... أرهقته ليالي السجن الطويلة وساعات التعذيب، لم يعد جسمه يقوى أو يتحمل. كنتِ لا تضيعين فرصة لرؤيته، تجلسين قرب النافذة تراقبينه وعلى وجهك تعلو تعابير مختلفة... لم أستطع في كل مرة التيقن أو التأكد منها... حينها وددت أن أسالكِ أو حتى أمنعكِ من متابعة النظر إليه... متابعة النظر إلى جلادنا، الذي ستدق المقصلة رقبته

أولاً، وددت لو تنسيه، تنسين ذلك الأناني الثائر... أتراك غفرت له؟... إياك أمي أن تغفري له... لا تغفري أمي... لا تغفري فأنا لم ولن أغفر له ماحييت... أعلم إني حقود، لكن بذرة الحقد هو من زرعها في قلبي، وأنا أعيش... عذاباتي المريرة... وأنا... وأنا أراكِ كجارية توهب من رجل لأخر... أمي وان كنت حينها صغيراً، لكني كنت أسمع همسكن... أصغي الى أنينكن، دقات قلبكن المتباطئة... أشم رائحتهم عليكن... أمي عرفت أموراً كثيرة مزقتني، قتلت إحساسي وشعور الرجل فيّ... لقد كرهتهم وكرهت نفسي... كرهت أن أكون واحداً منهم... أن أنتمي إلى تلك الذكورة الشرهة الحقيرة، أو الى تلك الجبانة المتقاعسة... لقد كرهتهم جميعاً وقبلهم كرهت نفسي ومقتها أكثر... أنتِ لم تشعري بي، لم أدعكِ تشعرين وأنا أدعي النوم، مغمض العينين ملتفاً على نفسي، أربت على روحي لأجل أن تهدأ وتنام. لم أدعكِ تشعرين قط، حين ياتي ذلك الحارس الليلي طالباً إحداكن إلى الإدارة... لم أدعك تشعرين كيف أقبض أنفاسي المتسارعة اللاهثة حين يفتح باب القاووش... إلى حد ما عرفت دوركِ في ذلك الجدول اللعين، كنت أحاول أن أنام... لكني أتعذب فلا

أستطيع أن أدعي النوم... التقلص... الانكماش كجنين... الخوف... الهلع... الإرتعاش لا من البرد الذي كنت تحرصين عليّ منه، بل من خيالات وصور وحشية. أشيح بوجهي بعيداً عن رائحة الدخان التي تعلق بك حين تعودين، أسمع صوت نشيجكِ المبحوح وأنت تخنقينه بالوسادة، تتلوين ألماً وامتعاضاً، تنسلين إلى الفراش بهدوء حتى لا توقظي إبنك الأثير، تنكمشين وتتلاشين تحت الأغطية، تمسدين خصلات شعري بخفة وحنان وكأنهن العزاء لك في كل هذه الخسارات والآلام، أشعر بروحك التي تبقيها عازمة يقظة لأجلي... أدرك صعوبة أن ترسمي إبتسامة على وجهك وتتكحلي بضحكة في عينيك عند الصباح، وأنت تحاولين إخفاء دمعة تتوسلينها الكتمان وعدم البوح. نعم كنت ألحظ كيف تنتشلين روحك من قاعها لتنهضي في صباح اليوم التالي قوية كلبوة تدافع عن شبلها الصغير مهما كلفها الأمر... أوه أمي... تلك الأمومة صعبة... أشفق عليكن من تلك الغريزة القاتلة... بدأ الشحوب والوهن يلقي بظلاله الثقيلة على نشاطك اليومي، وازدادت حالات الغثيان الصباحي وفقدان الشهية، حتى أغمي عليك في إحدى المرات فجاء الممرض إلى معاينتك، تشاورت النسوة

بينهن همساً، لم أعرف أو أستطع سماعهن لكن تعابير وجوههن أوحت حينها بالكثير... الكثير الذي لم أستطع أنا فهمه في ذلك العمر... خشيت عليك أمي وأنا أرى الذبول يرسم بألوان صفراء لوحته اليومية على وجهك... سألتكِ بعد أن ذهب الممرض عن علتكِ لكنك أخبرتني مطمئنة، بأنه مجرد إرهاق وتعب ستزول أعراضه بعد فترة. وبالفعل كان ذلك، رغم أني لمحتك في مرات عديدة ورغم إرهاقك تقفزين وتقفزين في إرجاء القاووش عندما يخلو من النساء في تلك الساعة الصباحية... فاندهشت من هذا النوع من الرياضة الذي بدأت تمارسينه رغم مرضك... كنت من البداية أدرك أن للنساء سلوكيات غريبة لا يمكن تفسيرها أو وضعها ضمن تفسير منطقي، لهذا إفترضت أن ما تقومين به واحدٌ من تلك الممارسات الغريبة... أصبحت حركتك وطريقة مشيك مختلفة عن ذي قبل، حتى أنك قمت بتبديل ثوبك بآخر أوسع من إحدى النزيلات... إلا أني لمحت بطنك من خلف ذلك الثوب... لمحت تكوره، تحسست تصلبه عن غير قصد عندما تستلقين قربي... لم يستطع ثوبك أن يخبئه... لم تقدري على المشي بظهر مستقيم مهما حاولت أو تصنعت ذلك... أمي لقد

شعرت مرات كثيرة بمدى الحرج والضيق من وضعك دون أن أعي سبب ما أنت فيه من عزلة وقلق... لم أملك الجرأة على سؤالكِ، لكن زينب سألتك دون أن تلقى إجابة أو ترحيباً بسؤالها مدعية عدم الأنتباه أو الأنشغال بأمور أكثر أهمية، لكنها لم تيأس من السؤال وإستمرت بإلحاحها الأنثوي الطفولي، كانت عيناها تشع بالفرح والفضول عندما تهمس لي (سيصبح لنا أخٌ آخر يا كاظم... أخٌ آخر) فترمقني بنظرات متفحصة وهي تقول: (ألا تصدق ما أقول؟... ألا تصدقني يا كاظم؟! أمنا حامل... أمنا حامل... لقد لمحت بطنها خلسة عندما غيرت ثيابها مرة... أوه كاظم سيصبح لدينا أخٌ صغيرٌ مثل أم حسين).

لم أفكر حينها، وسررت أنا الآخر بمقدمه... بمقدم ذلك المسكين الذي إستقبلتهِ بالبكاء والقنوط الشديد حين جلبته إليك إحدى النسوة ملفوفاً بالخرق، بعد مخاض طويل بدأت آلامه من الليل حتى تباشير الصباح. في تلك الليلة لم أستطع النوم جيداً، وأنا أشعر بك تتلوين من الألم رغم محاولتك الشديدة في عدم لفت إنتباهنا، لكن آلامك كانت أكبر من تجاهلها... صحوت أكثر من مرة فلمحتك تتمشين كشبح خائف تنعكس

ظلاله على الحائط ممسكاً بأسفل ظهره متأوهاً... لم أعرف أو أتيقن مما يجول حولي، لكني شككت بهمس النساء معك وعلامات الحيرة والأرتباك اللاتي إرتسمت على وجوههن وهن يستفسرن عن حالك بين الحين والآخر. تلك الليلة لم يكن القاووش هادئاً، دبيب النساء الهامس، قيامهن بأمور مختلفة عن كل ليلة، لمحتهن يحضرن فراشاً في أقصى القاووش عند الزاوية ستارة من الخرق تحيط به، همسن إلى الحارس فجلب لهن علبة الإسعافات الأولية وكيسا أسودَ بلاستيكياً... دهشت من منظر علبة الإسعافات بهلالها الأحمر، وتسلل إلى نفسي بعض القلق منها... ترى من يحتاج إليها؟! لم يُمكنني النعاس من الحصول على الجواب إلا عند الصباح حين صحوت على صراخ رضيع آخر جديد.

نهضت من فراشي مسرعاً، متلفتاً إلى جانبي فلم أرك كالعادة بقربي تنامين، جالت عيناي، في أرجاء القاووش لتستقر على ستارة الخرق وأصوات النساء من خلفها يتخلله صراخ طفل وليد... كنت غبياً يا أمي لم أفهم بسهولة ما يجري حولي، وكانت زينب لا تزال نائمة، فمشيت نحو الستارة متردداً، أستطلع ما يدور خلفها، وقفت قربها أتفحص خلسة، فرأيتك

ممددة شاحبة منثورة الشعر تبكين، رافضة الأنصياع إلى رغبة الأخريات في إرضاع الوليد الذي يبحث عنك صارخاً... هيا أرضعيه يا أم كاظم... هيا أرضعيه هو جائع... أرضعيه قليلاً لينام.

أشحتِ بوجهك عنه حين قربته منك إحداهن، أملاً في أن تشفقي عليه حين ترينه يصرخ باكياً يبحث بفمه يميناً ويساراً، وضعته في حضنك عنوة وهي تقول موبخة:

حرام عليك يا أم كاظم... هيا أرضعيه سينفطر قلبه الصغير من الصراخ، ما ذنبه هو... حرام عليك أرضعيه... سيعاقبك الله هو لا ذنب له... روح بريئة.

واتفقن جميعهن في ترديد نفس الكلمات التي إنصعتِ لها أخيراً ولقمت فمه ثديك الذي تلقفه ملهوفا إليه.

شعرت بالغيرة... شعرت بالغيرة وانأ أراه في حضنك ترضعينه... لم أعتد على وجود آخر غيري يتقاسمني حبك وإهتمامكِ... إلا أني أحسست بفرح أكبر غمرني، فعدت أدراجي مسرعاً أزف الخبر إلى زينب التي لم تنهض بعد.

- زينب... زينب إنهضي حبيبتي،... زينب هناك مفاجأة في إنتظاركِ.

فنهضت زينب متثائبةً نصف نائمة تحملق في وجهي غير مستوعبة، فأخذت أهزها طارداً بقايا نعاس تحلق حول جفنيها وأنا أكرر ما قلته، فوثبت من فراشها ضاحكة وهي تردد بصوت طفولي شبه ناعس هو الآخر، فاركة عينيها:

- ما هي المفاجأة؟!... إي مفاجأة تنتظرني؟

لم أبح لها بشيء بل أخذتها ممسكا يدها نحو الركن وجلبة النساء، وقفت عند فتحة الستارة فاغرة فمها مندهشة غير مصدقة ما ترى... رغم أنها هي من أكدت لي أكثر من مرة عن حمل أمنا... لكن يبدو أن رفضكِ الدائم وتفنيدكِ للفكرة قد زرع فيها الشك.

أنتبهت النسوة الى وقوفنا فنادت أحداهن علينا مبادرة:

- تعالوا يا صغار... تعالوا... هذا أخوكم الصغير.

كان ملفوفاً بالخرق لا يظهر منه إلا جانبٌ من وجهه، مغمض العينين يجاهد في إمساك الثدي. إقتربنا نحوه، جلسنا قربك نتأمل الصغير الراقد في حضنك فرحاً وغيرة منه... كان الحرج والإنزعاج بادياً عليكِ، حتى أنك تحاشيتِ النظر إلينا ولم تنبسي ببنت شفة، على غير عادتك في ذلك الصباح،

حاولت زينب مداعبة الرضيع وطلبت وضعه في حضنها... لكن إحداهن قالت: ليس الآن يا زينب... هو لا يزال صغيراً.
لكن زينب لم ترفع عينيها عنه فرحة وأستمرت تداعب بأصابعها وجنته وذقنه الرقيقين... كان صغير الحجم لون وجه بلون التفاح، فمه مستدق لا يتوقف عن الصراخ، قدماه الحمراوين صغيرتان مكرمشتان، كذلك كل أطرافه متغضنة ناشفة... حاولت أن ألمسه مثل زينب لكني لم أستطع، كان رقيقا ناعم الجلد للغاية، إلا أنه بعد مدة تحسن مظهره إذ شبهته بعض النسوة بي حين قلن (هو يشبه أخاه كاظم) لكنكِ لم توافقيهن الرأي وكأنه لا يجوز خلط الدر بالحصى، فرددتِ عليهن مستاءة ضجرة من هذا التشبيه (أنتن مخطئات... كيف له أن يشبه إبني كاظم؟!) صمتن ولم تجرؤ واحدة منهن على قول شيء بعدما فهمن مدى الإستياء الذي يجتاحكِ في كل مرة يشرن إلى وجه الشبه بيننا، إلا واحدة واجهتك بعينين مفتوحتين وصوت قوي النبرة حين قالت: (إتقِ الله في هذا المسكين... مهما حاولت إنكاره أو التخلي عنه... سيظل إبنك... نعم سيظل أخاً لكاظم وزينب). لا أظن أنكما قد تحدثتما مع بعض بعد هذه المواجهة التي لم تغير من رأيك أو

موقفك تجاه الصغير، الذي لم تشاركينا حتى في تسميته متعللة بانشغالك وتعبك... كنت أشعر بتذبذب عاطفتك تجاهه... ألمح نظرات الشفقة التي ترمقينه حين تتركينه يبكي غير مبالية به... لم أستطع حينها أن أعلل السبب... لم أستطع أن ألُم بسبب قسوتك على ذلك الصغير... القسوة التي لاحظتها الأخريات اللاتي نصحنك بالخوف من الله فيه، مراعاته كيتيم وجدته على باب بيتك لا كأبن لكِ... تجاهلته يبكي جوعاً مرات كثيرة بحجة أنكِ نائمة... إلا أن زينب كانت تحاول إسكاته وإيقاظكِ لأجل إرضاعه... مسكين... مسكين هو الآخر طاله الكثير دون أدنى ذنب له فيه، دون أن يحمل إسماً كالآخرين، أنا وزينب وشيرين قد إخترنا له إسم ماجد تيمناً ببطل كرة القدم في الرسوم المتحركة. لم أسمعكِ يوماً تنطقين باسمه رغم أننا عدة مرات قد أبلغناكِ به... أكان نطق إسمه على لسانك صعباً؟ هل خشيتِ أن تقتربي منه؟... هل خشيت أن تتعلقي برضيعك؟... هل خشيت على نفسك أن تحبيه؟... مسكين لم يشعر بحنانك، بطيبة قلبك، لم تناغيه يوماً كما تفعل كل الأمهات مع صغارهن... لم تنظري في وجهه الملائكي الصغير أوه... أمي لم تدعي لنفسك فرصة في الاقتراب منه

وحضنه بحب ليتكِ فعلتِ... ليتك فعلتِ... ربما كان هذا... كان سيغير الكثير.. سيهبك السلام الذي تفتقدين، الراحة من تأنيب الضمير... نعم أمي الراحة والسلام اللذين ينقصان حياتك منذ سنين... ليتك أمي... أه ليتك جلبته معنا... لا يزال صدى صراخه خلفنا مستنجداً يملأْ روحي أسىً وندماً... مازلت أذكر تعابير وجهه وحركة يديه وقدميه المرتعشة الخائفة من التراب الذي غطا جزء من جسده... أوه أمي لا تزال صورة أخي الصغير ومنظره المنازع تخنق أنفاسي، تجثم كالصخرة على فؤادي... حقا لا أقاوم النظر الى الأطفال الذين في عمره دون أن ألمح شبحه الصغير بينهم ... أمي أنا أذكره باستمرار... أذكر صرخات كتمها التراب شيئاً فشيئاً، متلاشية بين ذرات الهواء الحارة التي لفحت وجهينا ونحن نبدأ رحلة جديدة... رحلة الحياة بعد الموت أو رحلة موت أخرى هي رحلتنا يا أمي... رحلة الموت البطيء... هم ماتوا في لحظات ونحن من نرغب فيه يعصى علينا، الموت الذي غض عينيه عامداً عنا، مكتفيا بشحنة الأموات التي لدية وكأننا عبء ثقيل عليه... أوه أمي حتى الموت نبذنا لنواجه مصيرنا في صحراء تلف على نفسها تأكل وتشرب من رمالها مكتفية

بذاتها وعلى ذاتها تقبع منذ عصور. نبذنا لنعيد الكرة، لنكون عبيداً من جديد، لتئدي أطفالكِ الصغار من جديد... أتظنين أني لم ألمحك وأنتِ تقفزين من السرير إلى الأرض من جديد أو تحملين كيس الطحين الكبير نازلة صاعدة به السلم... أمي... آه أمي إي شقاء تعيشين؟ وأي ضمير تحملين؟... ضمير معذب... لا أفهم لِمَ تتمادين في تعذيب نفسك، قسوتك على نفسك... أنتِ الضحية أمي فلماذا تتحملين عبء وذنب الجلاد... أمي ليتك تحاولين... أن تسامحي وفية... سامحيها أمي... هي ضحية... سامحيها ليس لأجلها بل لأجلكِ أنتِ... عيشي بسلام ودعي وفية... كلتاكما نالت ما يكفيها من العذابات والألم... كفي عن عقابها... عن قتلها وإحيائها، تجريمها... توبيخها، تصالحي معها... لا أريد أن يمضي عمرك هكذا... أمي آه لو تسمعينني الآن... آه لو نبدأ كلانا من جديد... آه لو نستطيع أن... آه لو نترك تعقب آثار خطوات الماضي المطبوعة في صحراء قلوبنا... نفك أغلاله، نتحرر من عبوديته... آه لو... توافقين على تركه، لا أعلم ما الذي يجبركِ على العيش معه... لم يعد يملك صك عبوديتنا... السيف المسلول على رقابنا... أمي هل أعتدتِ على ظلمه؟...

أن تكوني جاريته وخادمة رغباته... أمي منذ أشهر وأنا أتوسلك أن تتركيه... أن نعيش في البصرة بعيداً عنه... لكن ما من فائدة... أظنكِ لم تعودي قادرة على تنفس الهواء إذا خلا من رائحة عطره... أوه حتى هنا تعبق ذرات الهواء منتشية بعطره... أماه أحار في تفسير الكثير... الكثير، الكثير وفي كل مرة لا أحصل منكِ على جواب... أمعقول؟... أمعقول؟ (وهز رأسه وكأنه يطرد فكرة جنونية طفت على سطح دماغه المتعب، قائلاً بابتسامة مرة لمعت على قزحية عينيه وتمتم ساخراً: لا... لا من غير المعقول... حتماً أنه السهر... أنه السهر... يرهق خلايا المخ تتشابك الأوتار العصبية، فتصدر صوراً وخيالات غريبة أنه السهر... يودي بالعقل إلى متاهات وكهوف مظلمة لم تطأها إقدامه من قبل... نعم لا بد، وإلا من أين تسللت تلك الفكرة المجنونة؟ (وسخر من نفسه ثانية، ومن إنخراط عقله الى وسوسة شياطينه التي تومض فجأة كالنار في غابة قصب يابس عطش، فأشاح برأسه نافضاً إياها كذرات تراب علقت على حذاء قديم)).

إنه السهر... بدا يسري مفعوله فيّ... من الأفضل أن لا أفكر... حتماً يجب أن لا أفكر كذلك... أمعقول يا أمي...

أمعقول أوه حتماً لا... بدأت فعلاً أهذي... ولولا ذلك لكنت صدقت ما يوسوس به هذا العقل الذي أمسك بتلابيب هذه الفكرة المجنونة... يجب أن لا أفكر... عليّ أن أرتاح.

ونهض من كرسيه وقد تفصدت على جبينه حبات عرق من حرارة ما أشقاه به عقله، مشى في الحجرة عدة خطوات واقترب من النافذة، أبصر الظلمة والصمت خارجاً، أحس بشيء ما يطبق على أنفاسه، يخنقه مستحيل... مستحيل هذا جنون... مستحيل... إنه لجنون مطبق وخرج من الحجرة إلى باحة المستشفى ليستنشق بعض الهواء الخالي من ذرات ذلك العطر العالقة تختبر صبره، بقايا حلمه. وقف، يلامس الهواء البارد وجنتيه كإبر دقيقة تقرصه، تخدره، تشل عقلة وهذا ما هو أحوج إليه، تشبع صدره ببرودة هذه الليلة، إصطكت ساقاه، لم يعلم كم من الوقت ظل واقفاً في ظلمته، مشلولاً من فداحة فكرته. إستفاق من صمته على صوت بعض المارة الذين دخلوا مسرعين للطوارئ بالكاد لم يصطدموا به. عاد إلى الحجرة مذهولاً من تلك الفكرة التي شاطرته وحدته فأقلقته كثيراً، لكنه طردها، تركها في الظلمة الباردة وحيدة تموت.

في الرواق المؤدي إلى الحجرة حيث والدته، بادرته إحدى ممرضات الخفر الليلي بكوب من الكاكاو الحار ليدفئ معدته، رفض عرضها بأدب لكنه تحت تأثير إصرارها دلف إلى الغرفة مع كوب كاكاو ساخن يتصاعد بخاره أشبعت رائحته جو الغرفة البارد، وضعه على الطاولة المجاورة متمتماً: يا الله... يا الله ما بال النسوة والكاكاو؟... ما السر الذي يجذبهن نحوه؟... ما السر في تعلقهن به؟ والكبيرات قبل الصغيرات...وأنا الغبي كنت أتناول ما تدخرينه لي من جائزتكِ، مغتبطاً سعيداً به وهو يذوب في فمي... كما كانت طفولتكِ... إغفري لي عزيزتي... لم أعِ إي ثمن تدفعين لأجل قطعتي الشوكولا تلك... لماذا كانتا غاليتين هكذا؟!... لماذا أنتِ؟!... لماذا أنتِ؟... لماذا بدأت صحتكِ بالتراجع بعد كل قطعتين؟... بعد كل قطعتي شوكولا تلاحقك نظرات النساء المشفقة، همسهن الخافت بعيداً عن سمع جدتكِ، التي كثيراً ما جلست بعيدة منزوية في ركن القاووش يعتصر قلبها الضعيف الألم، القهر والعذاب. لم أنسَ كيف دفعها الحارس منحياً إياها عن طريقه ساخراً منها مقهقهاً، حين قالت له بصوت مرتجف وهي تخبئ شيرين خلف ظهرها النحيل (خذني أنا بدلاً

عنها... هي صغيرة لن تحتمل... خذني أنا أرجوك) فيقاطع توسلاتها ساخراً (إبتعدي يا(حجيه) عن طريقي... إبتعدي) ليقبض بشدة على يدك (الحمامة البيضاء) خارجاً بها من القاووش، تتبعه شتائم وولولة وتوسلات العجوز، همهمة النساء، إعتراضهن السافر... لم أعرف سبب سخطهن عليه وأحاديثهن الهامسة مع الجدة التي يزداد إرتعاش أطرافها حين تغضب... ساعة لا أكثر... ساعة تقضين من الوقت، لتعودي بعدها إلى القاووش... تجرين قدميك الصغيرتين على خيوط ضوء المصباح المتهالك خارجاً، بين صفوف النائمات... مرات عدة حاولت القيام من مكاني إليك، إلا أن أمي في كل مرة تمنعني وتقول دعها تنم في الغد... في الغد إذهب إليها. وبالفعل ترقدين في فراشكِ... صامتة لا تتحركين حتى الصباح، خلاف بقية الليالي إذ لا تتركينا إلا بعد أن ينام الجميع وبعد أن يرهق جدتك عنادكِ وهي تناديكِ... شيرين... شيرين هيا أبنتي... أوه المسكينة كانت مقسومة بيننا وبين جدتها، وجدت فيكِ الأم التي إفتقدتها.

في تلك الصباحات كنت ألمح آثار تعب وحزن في عينيك، إبتسامتكِ تبدو فاترة، شحوب على الوجه، حتى صوتكِ يفقد

حماسه الطفولي وأنت تقدمين لي حصتي من الشوكولا... حين أذكر، أتمنى لو أستطيع لفظ أحشائي، قطع فمي وبتر لساني... آه يا شيرين... كنت أشعر بأن هناك خطباً ما... أقرأه في عيونهن المتفحصة وفي عينيك اللتين تفقدان بريقهما مرة إثر مرة، ولا أستطيع تفسيره. أسمع همهمتهن حين تمرين ولا أفهم شيئاً... وعندما رحلت زينب سمعت أمي تتمتم باكية وهي تحمد الله على ذهابها قبل أن تصبح صبية، ويصبح مصيرها كمصير شيرين، التي لفت حسنها الواعد، وأنوثة تختبئ تحت ظلال طفولة غضة إنتباه مديرالسجن... سأجدكَ مهما طال الوقت لابد أن أجدكَ... اسأل الله كل يوم أن يدلني عليك لن أنسى تلك العينين الشهوانيتين، لن أنسى تلك النظرة الماجنة الكريهة ولو اختبأتْ بين ألوف، ستظل تلك العينان حقيرتين وإن هرمتا، ستحمل تلك البصمة أبداً ولو كفرت عن كل ذنوبك، لا أظنك قد كفرت أو أستغفرت... فمثلكَ لن يجد طريق الخلاص إلا على يد أمثالي... أصحاب الثأر.

حاولت مرة بعد أن لملمت ترددي، خشيتي وشكوكي وطرحت سؤالي عنوة بكل ما أملكه من غباء (ماذا... ماذا يريد منك المدير؟... ولماذا تذ...) نظرتها... أوه يا ألهي كم كنت غبياً...

لم أحتمل معنى تلك النظرة التي رمقتني بها... لقد أخترقت قلبي كرصاصة واستقرت هناك إلى هذا اليوم... أوه شيرين... مزقني معناها عذب قلبي ما رأيته... لكن بابتسامة حزينة تخبئ فيها صوتها الذي تحشرج وهي ترد عليَ (إنه... إنه يعطيني الشوكولا... لكي يعطيني... الشوكولا) وجرت نحو القاووش في ركنهم تحت غطائها تكورت... تلاشت لم أسمع منها إلا نشيجاً خافتاً مكبوتاً... لم تأكل في ذلك اليوم وبقيت محتجبة في فراشها طوال النهار... حتى ظنت أمي وجدتها أنها مريضة، فتأكدتا من حرارتها أكثر من مرة، كذلك توسلتاها أن تنهض بشتى الطرق فما كان مني إلا أن أجلب إليها ماجداً الصغير الذي أخذ يجرجر بخصلات شعرها، هو الآخر مفتون بذلك الحرير الذهبي... وقد أفلح في إخراجها من صمتها ورسم ضحكة على شفاه الورد القرمزية... أفلح الرضيع في إصلاح ما أفسده أخوه الكبير. تحاشت عيناها الاقتراب مني، الظهور في أفق عيني، فأدركت مدى الجرح الذي تسبب به سؤالي لها ومدى تعلقي وحبي الكبير لها. لم أيأس في الأيام التالية من التقرب منها والتحدث إليها رغم أجوبتها المقتضبة وعينيها اللتين لا تشملاني بعطفها وحنانها

الذي إعتدت عليه... أوه شيرين... كم عذبني إبتعادك... تجاهلك صمتك... أن تكوني غريبة وأنت قريبة... حاولت الأعتذار عن بلادتي وجهلي... لكنك في كل مرة تغيرين الموضوع وتتعمدين تجاهل ما أقوله عن قصد... لم أعرف حينها كيف أسترجع ثقتك ومحبتك لي... اللعب معاً. كانت أياماً مملة شعرت خلالها وللمرة الأولى بضيق وتوتر من الزنزانة... حقاً شعرت أني مسجون بتلك الجدران الموشومة بالذكريات، ترد صدى الآهات. إبتعادك عني جعل الأيام طويلة، ساعة الإستراحة في الباحة مملة لا تعني شيئاً، أقضيها في مراقبتك عن بعد... آه شيرين دونك عرفت معنى الوحدة والفراغ الذي لازمني بعدك إلى هذا الوقت... نعم الوحدة، شعور يسقيه الفراغ والضجر كل يوم لينمو حتى يصبح شجرة كبيرة تمتد أغصانها تتشابك داخل أرواحنا وتضرب جذورها إلى أعمق نقطة فينا. كبرت يا شيرين وحدي.... أصبحت شاباً دونك... لم أفِ بعهدي معكِ... كبرت وشاخت شجرتي فيَ... كبرت وانأ لا أزال أبحث عنك بين الصبيات في الشارع، بين فتيات الكلية... وحين لمحتها قرب الكشك تقضم قطعة من الشوكولا... تلك القطع التي أقسمت أنها لن تدخل

جوفي ما حييت... إذ كنت أرميها خلف جدار السجن العالي... أرميها عالياً علي أتخلص من همومي، من ألم أخذ يكبر فيَ... يغتصب طفولتي ويقتل رجولتي التي كرهتها سلفاً من قبل أن أصل أعتابها.

تقضم قطعة من الشوكولا... هربت منها، لم تحملني قدماي، إصطكت ركبتاي... حملت نفسي بعيداً بين جموع الطلاب حسبتها غشاوة بصر بسبب الشمس، وأطمأن قلبي إلى هذا التفسير... إطمأن بعد أن كاد يخرج من بين ضلوعي... أوه شيرين هي تشبهك إلى حد مخيف للغاية، تتطاير خصلات شعرها الناعم على وجنتيها، أمسك نفسي أحيانا كثيرة عن مساعدتها على لملمة تلك الخصلات المنسابة شاردة من ضفيرتها أمسك نفسي عن لمسهن، ربطها بالشريط، تأنيب جدتك المتواصل وهي تجاهد مرتعشة اليدين في حمل تلك الخصلات المجنونة الشاردة على الأنتظام في ضفيرة. لها نظرة عينيك حين تتسع الحدقتان إندهاشاً وفرحاً، ترمش مغمضة إياهن مع إبتسامة تظهر صفاً من العاج يخلب اللب. أضيع... أحار في التمييز بينكما أأنتِ التي تبسمين أم هي؟... إعتدتُ أن تلقاني في كل صباح ببسمة كبيرة... يا الله... يا الله

كيف إنطلقت روحك لتحل فيها... لأتعذب أنا مرتين... لأتعذب أنا مرتين. أصبح دوامي في الكلية كل يوم فرضاً واجباً... ينتابني التوتر والقلق حين تتأخر في القدوم، فيسخر مني صديقي علي ممازحا إياي قائلاً (على هونك يافتى... الطريق مزدحم) فأنتبه إلى نفسي رابطا الجأش، مدعياً الهدوء واللامبالاة، لكن إهتزاز ساقاي بشكل لا إرادي، يفضح توتري فيومئ علي إليهما باسماً ساخراً يقول (ما رأيك أن تقف عند الباب بانتظارها... لم أعد قادراً على فهمك يا صديقي... تحبها لكنك تتحاشى وصلها، تقترب حيناً وتبتعد أحياناً أخرى، لا أستطيع فهمك) يا صديقي تود فهمي كيف؟ وانأ نفسي أتأرجح، أتأرجح إقتراباً وابتعاداً... بين الماضي والحاضر أتضور جوعاً وشوقاً إليها... أم إليكِ... حقاً لا أستطيع... لا أستطيع وآسف على إندهاشي، تراجعي، صمتي الغبي إنذهالي حين طبعتِ على وجنتي قبلة بريئة جميلة إرتعبت منها أوصالي، هارباً تاركاً إياك مصدومة من رد فعلي. نادمة خجلة من نفسك... أوه ما أقبحني وما أتعس إختيارك ياعزيزتي... قبلتك المفاجئة زعزعت كياني، أربكت مشاعري، وخطواتي التي لاذت بالفرار... أهي القبلة نفسها؟ أهي شفاهك الملائكية التي

طبعتها على أديم صفحة خدي؟... حينها حلقت روحي الصغيرة في سماء تلك الصحراء الموحشة التي تخشاها الطيور.

أوه شيرين لا أنفك من تذكرك، إجتر تلك الأيام إجتراراً رغم قساوتها... أحياناً أواسي نفسي قائلاً: الحمد لله أنك لم تشهدي ذلك اليوم، لم تتلقي رصاصة في القلب أو تموتي خنقاً بالتراب... حقاً الحمد لله أن روحك لم تشهد ذلك العذاب... ذلك الإنتظار المرعب لرصاصة تأتي من الأمام أو من الخلف، ذلك الشعور وهم يحملوننا قبل غروب الشمس في شاحنات عسكرية دون سابق إنذار. هلعت قلوبنا شحبت الوجوه... عم لغط وفحيح هامس بين النسوة في القاووش حين فُتح بابه في غير موعده، ليدلف منه مجموعة من الضباط والعسكر معهم مدير السجن، يتلو أحدهم أسماءنا ويتأكد منها، يأمرنا مدير السجن بصوته الأجش الكريه أن نخرج إلى الشاحنات التي كانت عند بوابة السجن تحت حراسة رجال الشرطة تنتظرنا... هو يشبه ذلك اليوم الذي أتوا فيه بنا إلى هذا المكان. لمحته بين صفوف الرجال في الجهة الأخرى يبحث عنا، وعلى وجهه علامات هلع وخوف شديد، بعدما

سرت إشاعة بين الجموع بأن قرار إعدامنا قد وصل وسيتم تنفيذه اليوم. أخذونا بصفين إلى الشاحنتين المترقبتين لقدومنا خارجاً... رأيت كيف تغيرت ملامحه، إشتعلت النار في عينيه ورجع متقهقراً مبتعداً حين لمح ماجداً الصغير على يديها، لم يودعنا أو يلقِ التحية مثلما فعلت كل العوائل مستغلة تلك الدقائق القليلة المتبقية. كانت أمي تشد على يدي بقوة وكأنها تخشى أن تفقدني أو أضيع، لمحت إرتباكها، خجلها الذي جعلها تغض عينيها الى الأرض حين أبصرته يرمقها بتلك النظرة، ولاذ مبتعداً كعادته في الهروب... أوه مسكين لم يعد الهروب يجدي... حقاً أشفق عليك... أشفق على أنانيتك، على كبريائك المسفوح... على غبائك وتغاضيك عن رؤية حقيقة الأمور... ألا تزال تعيش أحلام يقظتك؟... ماذا كنت تتوقع؟... هل أنت غبي لهذه الدرجة ماذا كنت تتوقع؟... لماذا حتى اللحظات الأخيرة تصر فيها على عنادك، على معاقبتها على جرم أنت سببه... لماذا لم تنظر إليها بعين الرحمة والعفو عن قدر ومصير أنت... أنت وحدك صنعته لها... وفية ضحيتك أولاً... ضحية الرجال الذين أحبتهم من كل قلبها... ضحيتي.

كل قسم صعد إلى شاحنة، إلى مستقرنا الأخير، إلى نهاية الرحلة تلك الرحلة الشاقة القاسية... عم صمت رهيب حتى الأطفال كانوا هادئين وكأن شعور الفزع والخوف المترقب قد سرت ذبذباته إليهم. أوه... كم كانت الدقائق طويلة حين سارت بنا الشاحنة تجر خلفها سرباً متطايراً من الرمال الصفراء المودعة لتقف بعدها قرب حفرة كبيرة... حفرة قد أعدت سلفاً... مثوانا الأخير، مستقرنا النهائي. أوه يا شيرين الحمد لله لم تكوني معنا في تلك الرحلة ما كنت لأستطيع أن أخرج من تلك الحفرة إن لم تكوني معي.

تغيبتِ عن الكلية بعد القبلة... لتعودي بعدها بخاتم في إصبع يدك اليمنى... أوه شهد أتراك تعاقبينني أم تعاقبين نفسكِ؟... أنا لا أظن أني أمتلك جواباً لهذه الأسئلة... لا أمتلك الجواب حتى حين يصر ويلح صديقي لأجل معرفة حقيقة الجواب... أنا مسكين أكثر منك لا أعرف جواباً، وكل أجوبتي ليست في صالحك عزيزتي سواء كانت نفياً أو إيجاباً... لا أريد وفية أخرى، وفية تشقى معي أو تدفن حية بسببي... لا ... لا لن أكون مثلهم... لقد كرهتهم، كرهت نزقهم... شهوانيتهم، قسوتهم، أنانيتهم... شهد ليتكِ ما فسخت خطوبتك... ليت ذلك

الخاتم الذهبي اللامع الذي خنقني بريقه مع كل حركة ليدك... ليته باق في إصبعك... إحتملت أن يخنقني لئلا يخنقك غبار وتراب ماضيي وحاضري... إندهش علي مني للغاية حين زف لي الخبر، معتقداً أن الأرض لن تسع فرحتي بهذا النبأ الذي قابلته ببرود وبلادة حتى هو صاح في وجهي معاتباً مستاءً (ما بك؟... ما بك يا رجل؟... أقول لك أن شهد قد فسخت خطوبتها... شهد أصبحت حرة من جديد، يا صديقي لقد حرت في تفسير تصرفاتك أنا ذاهب... سأذهب الآن لا أود أن أخسرك) لا ألومك صديقي حين تستاء وتشك في طيبة خلقي ونواياي... لك الحق... أنا نفسي لا أعلم ماذا أريد ومن؟ في اليوم التالي تهربت من لقائك وإدعيت الأنشغال بكتابة وجمع محاضرات فائتة حتى أبقى وحدي... أوه أعلم إني أقسو عليكِ، ولشدما آلمتني تلك النظرة وخيبة الظن التي شعرت بها بسببي... لكن قناع قسوتي الذي أرتديته منذ زمن بعيد قد تجسدت ملامحه على وجهي، فضاعت إبتسامتي البريئة خلف تلك البلادة الباردة، تجمدت عيناي لن تقرأي من خلف الزجاج الذي أحاطها أية إشارات أو علامات، لطالما ألمحك تفتشين عنها بدأب وصبر كبيرين. آه لو أعلم لماذا تسيرين نحو النار

وبخطي حافية... لماذا تثقين بكاظم وهو نفسه لا يثق به... لماذا تسلكين طرقاً وعرة وأمامك عشرات الطرق المعبدة لجمالك وبديع حسنك... آه عزيزتي لو تفهمين... لو تدركين... أن كاظم هو شبح لذكريات وخيالات سنين، هو ذلك الفتى الذي وئد في بادية السماوة لا شاهد قبر، ولا حتى نسب أو لقب حقيقي... ماذا تريدين من كاظم وأي كاظم تعنين يا شهد... أصبحت الآن متيقناً للغاية من ذكاء وفطنة الذي قال أن الجمال والحظ في المرأة الواحدة لا يتفقان، وها هو حظك يسير بك إليّ... يأخذ بيدك نحوي... نحو مصير كمصير وفية... وفية.

ثقي أن تجاهلي اليوم لكِ، ضجرك وقلقك من خطواتي المتذبذبة سيوفر عليك في المستقبل حصاد دوانم من الألم والدموع، لأجل رجل أناني آخر قد حدد هدفه، هدف لا مكان لكِ فيه... ما أتمناه فقط أن لا تكرهيني، لا أستحق كرهكِ ولا حبكِ... إتركيني مع النسيان أمضي، مع ذكريات الأمس البعيد أتلاشى، فضميري لن يحتمل ضحية أخرى... أرجوكِ... أرجوكِ. (مكفكفا دموعا تسللت من عينيه عنوة على صوت صراخ في الحجرة المجاورة فهلع قلبه، وجرى نحو مصدر

الصوت المنبعث من صبية في عمر العشرين وقفت عاجزة تتلفت حولها، على فم فاغر تضع يديها وعينين استحالاتا إلى ضباب).

- ما بكِ يا أختي؟

هلعة متلعثمة قالت:

- لا أعلم... لا أعلم... جدتي ما بالها... لقد توقفت عن الكلام فجأة أهي...؟

إقترب كاظم من العجوز التي ترقد ساكنة بوجهها الشاحب المطمئن، أقترب وأمسك رسغها يتحسس النبض والصبية تقف قرب الباب مذعورة خائفة تسأله:

- هل... ماتت جدتي؟... هل... جدتي؟

لم ينبس كاظم ببنت شفة، ولم يعرف ما يرد على تلك الصبية المتقهقرة في مكانها سوى أنه خرج من الحجرة مسرعاً باتجاه حجرة الممرضات قادماً بواحدة منهن لتتفحص العجوز الراقدة، مؤكدة شكوك كاظم، إذ قالت للصبية: هل أنتِ وحدكِ معها؟ أخبري أهلك بأن يحضروا لتسلم الجثمان.

وقامت الممرضة بسحب الغطاء على وجهها وآثار إبتسامة خفية لا تزال حية عليه وكأنها تذكرت أو لمحت أحداً حمل

بهدوء وخفة روحها معه... ثم دعت الصبية أن تأتي معها إلى حجرتهن حتى يجيئ أهلها. تبعت الصبية خطوات الممرضة على غير هدى أو إحساس. ورجع كاظم إلى إمه وقد إنقبض صدره من هذا المنظر رغم أنها ليست المرة الأولى التي يرى فيها أناساً يودعون الحياة بشهقة مستذكراً تلك الأيام. تلك الأيام التي لا تريد فكه من أسرها، مستذكراً بصمت بارد كيف تراجعت صحة تلك السيدة العجوز، جدة شيرين التي تحبها حد الخيال. بعد رحيل حفيدتها عنها لم تعد تأكل إلا النزر اليسير وإنزوت في مكانها صامتة لا تتكلم أو تتحرك، وحتى حين تشاركها أمي الأحاديث اليومية عن حال القاووش والسجينات بقصد الترويح عنها، لا تبدي أي إهتمام أو إنفعال. غارت عيناها في محجرين ناتئين لا يغطيهما إلا جلد رقيق ناعم متغضن، لم يعد يُسمع صوت لنوادرها وسخريتها المعهودة من النزيلات اللاتي رأين فيها الأم أو الأخت، تكدر الجميع من وجومها فحاولن مراراً الجلوس حولها وابتداع مواضيع مختلفة وأسئلة شتى لأجل مدها بطوق النجاة من سفينتها المتجهة بهدوء نحو النهاية، حاولن كثيراً تغيير إتجاه البوصلة، لكن يبدو أن غياب شيرين قد أطاح باخر شراع في سفينتها...

إعتنائها واحساساسها بالمسؤولية والواجب تجاه حفيدتها التي فقدت أهلها قد أمدها بالقوة والجلد على تحمل آلام شيخوختها وإمراضها، فقدها الأبناء وظروف السجن التي قهرت أعتى الرجال لا النساء.

إستمر إنكفاؤها على نفسها، إستغراقها في الصمت، حتى يئست النزيلات من معاودتها ومحاولة دفعها على الكلام، لكنك أمي وقد شربتِ من كأس الفقدان والأفتقاد قبلها... أحسستِ جيداً بما ينتابها من مشاعر وألم مع فارق وحيد هو أنك لا تزالين تكافحين وتتجملين بالصبر لأجلي... لأجل كاظم... وهي لا... هي فقدت مصدر عزائها وسلوتها فيما تبقى لها من عمر. فقدت شهيتها تماماً نحفت للغاية وتضاءل جسمها، لم يفلح أحدٌ في إقناعها على الأكل، فلحقت بغضون شهرين بحفيدتها. وعلى شفتيها الرقيقتين إبتسامة تحدثت عنها النزيلات اللاتي كن قربها في لحظاتها الأخيرة. بقي ركنهم خالياً حتى الأطفال لم يجرؤا على الأقتراب منه أو اللعب، إلا تلك المرأة العجوز المجنونة، فقد كانت أحياناً تفترش فراش الجدة وتجلس لساعات في المكان دون إي كلمة أو حركة... هي مجنونة أو شبه مجنونة لم نكن متأكدين من وضعها، فهي

لم تسمح لأحد بالاقتراب منها أو التحدث معها إلا أنها كانت في بعض المرات تجلس قرب جدة شيرين صامتة وحين رحلت الجدة إستمرت تلك العجوز على الحال نفسه... سرت حولها شائعات كثيرة مصدرها نزيلات سابقات ومن لدن الحرس، كان أشهرهاً إنتماؤها الى الحزب الشيوعي، أُلقي القبض عليها متلبسة بالجرم المشهود..شعارات تروج للحزب في سلة متخمة بالخضار والفاكهة... قسوة التعذيب لأجل الكشف عن بقية أسماء المجموعة قد أفقدها عقلها، بعضهم يظن أنها تقطن ها هنا منذ ما يربو على خمسة عشر عاماً، حتى نسيتها إدارة السجن نفسها، وأصبحت من نزلائه المقيمين الثوابت... يتغير الجميع سواها من ضباط ونزيلات. أطلق عليها إسم العجوز الشيوعية، إذ لم تتعرف إي من النزيلات على إسمها حتى الحراس والشرطة لم يأبهوا يوماً بمعرفة إسمها الحقيقي. كانت تنتابها في بعض الليالي الكوابيس، فنصحو فزعين على صوت صراخ وصياح مجلجل، في البداية كان الأطفال يبكون خوفاً حين يسمعونها، لكن مع الوقت إعتاد الجميع على تلك الصرخات المستغيثة العالية وهي تردد (لا أعرف شيئاً... لا أعرف أحداً) وكلمات أخرى

بهذا المعنى. أوه... أمي لا أزال أذكر كيف كنتِ تعمدين إلى تهدئتنا حين نصحو مرعوبين على تلك الصرخات. حاولت الدكتورة إيمان أكثر من مرة التقرب منها لأجل فحصها، فقد كانت تشكو من علل مختلفة وآثار التعذيب لاتزال تترك ندوبها على جسدها المتعب الهش، آثار أعقاب السكائر المطفأة عنوة عليه تحكي رواية قاسية لم يستوعبها عقل تلك العجوز فتحرر من عقاله، تاركاً خلفه جسداً هزيلاً منكفئاً على ألمه وحزنه... أنا الآن أحسد تلك العجوز... نعم الجنون نعمة... الجنون نعمة لا يشعر بها إلا أمثالي ممن أرهقهم التفكير... الجنون نعمة يا أمي.

وحتى حين إقتادونا إلى الشاحنة كانت تركض أمامنا نحوها فرحة كأنها ذاهبة في نزهة، كانت تدور حول نفسها مشرعة ذراعيها، ورأسها مرفوعٌ نحو السماء في رقص صوفي جميل... صعدنا إلى الشاحنة والشمس بعيدة في أفقها تستريح بعد يوم شاق طويل، تلقي علينا وداعها الأخير، حتى الريح في ذالك العصر كانت تصفر بصوت غريب، تهمس في آذاننا لحنها الحزين... كان إسمنا في بداية القائمة، ركبنا الشاحنة أنا وأنت وماجد بين ذراعيك متوجساً يتلفت بوجهه الصغير

وعينيه المندهشتين يميناً ويساراً. صعد بعد فترة الجميع إلى الشاحنة إلا آثار أقدامنا بقيت مطبوعة على الأرض وكأنها هي الأخرى تقف مودعة لنا، وقبل أن تنطلق شاحنتنا أنتبه أحد الحراس إلى العجوز الشيوعية وقد جلست قرب الشباك فرحة ملوحة بالخلاص، فصاح بالسائق أن يتوقف قليلاً ليتسنى له إنزالها، هي التي تشبثت بالكرسي صارخة هائجة، فصعد شرطي آخر ساعده على جرها بعنف وإنزالها من الشاحنة، مضينا على صوت صراخها الوحشي يلاحقنا مطالباً بشده أن نقله معنا. بقيت الرقاب مشدودة نحوها وهي تجري نحونا فزعة العينين متجهمة الملامح تصرخ، لكننا إبتعدنا وتركناها تجري كظلال ضبابية بعيدة. حتى الموت مصر أن لا يشملها برحمته، أن لايعفو عنها، أن تكون عقوبتها الحياة... ونحن كذلك يا أمي كانت عقوبتنا الحياة، حين غافلت الموت في لحظة إنشغاله، متسللين منه بطوق نجاة... طوق نجاة أسمه الحياة، ذالك الطوق الذي يحكم قبضته على رقابنا... لم يشمل تلك العجوز أي قرار عفو أو حتى قرار إعدام، فبقيت على الهامش طوال هذه السنوات حتى نُسي أمرها... تماماً مثل إسمها ومدة عقوبتها، لتظل هناك في الزنزانة يردد صدى

عويلها وصراخها الجدران، ولتقوم بضيافة نزيلات جديدات، فهذا الوحش سيبقى فاغراً فمه على الدوام:

بانتظار فرائس

مختلفة التهم والتوجهات

أو حتى مجرد شكوك

أو توهمات

لاضير

مادامت الحكومات

في تجدد مستمر

وتصفيات

بالآلاف مرات ومرات

خيانة الوطن

في الغالب

هي مجمل الاتهامات

مسكين هذا الوطن

على ترابه

تتعاقب الإنهزامات

الأرواح البريئة

هي من تداس بالذات

خلتُ للوهلة الأولى حين وطأت قدماي ذلك المكان مرة أخرى أني حتماً سألاقيها واقفة عند باب القاووش أو جالسة في ركنها متكئة برأسها على ركبتيها، تلف على إصبع سبابتها بقايا خصلات رمادية نافرة، وبفعل لا إرادي جالت عيناي المكان تبحث عنها، تفتش عن آثار إقدامها مطبوعة على رمال الذكرى وهي تهرول خلفنا مذعورة تصرخ... ما بالي؟! كيف طرقتِ باب الذكرى سيدتي العجوز الشيوعية؟!

لم نكن نقترب منكِ كثيراً... فردات فعلك لم تكن متوقعة، ولو أنه لم يبدر منكِ أي تصرف خشن أو قاسي مع الأطفال، إلا أن أمي فضلت أن نبتعد عنك (هي مرية عجوز... وتعبانة لا تزعجوها). كانت في مرات عدة تراقبنا حين نلعب ونلهو فترتسم على وجهها الشاحب إبتسامة كبيرة ولاتتوانى أن تجري خلفنا في محاولة للأمساك بأحد منا، فتصرخ زينب عالياً حين تمسكها... وهي تأخذ بالضحك والقهقهة كطفل صغير... كانت زينب تخافها... تخاف من يدها المغضوضنة وأظافرها الطويلة المتسخة، ولايزال أثر جرح على شكل دائرة مغضوضن بني غامق اللون يقبع دون حرج على معصم

يدها اليمنى... تخافه زينب... تخاف كل شيء فيها، ملابسها الوسخة المرتقة... رغم أن النزيلات كن يساعدنها في تغييرها وغسلها لها وتحميمها هي أيضاً بعد عراك وصخب يعج في القاووش.

تعاملت النزيلات معها بود وعطف بالغين، لكنها مع ذلك ظلت منزوية على نفسها شاردة العقل معظم الوقت، تدور برأسها المرفوع إلى السقف، تهمهم، تلاحق خيالات أو ربما بقايا صور ظلت راسخة لم تطلها ذبذبات الكهرباء السارية إلى صدغيها عبر الأسلاك، ورغم أن آثار الحرق لا تزال باقية تمنع ظهور الشعر على جانبي رأسها، يستطيع أن يدرك المرء مسحة جمال ترتسم على تعابير وجهها حتى وأن طالته يدا السجان بالتعذيب، ومخالب حياة لم تكن منصفة معها. بشرة بيضاء رقيقة الملمس وعيون سوداء واسعة تنبئ بمفاجآت كثيرة حين تبتسم، أنف دقيق بأرنبة عالية، لون أحمر كرزي يصبغ شفتيها الرفيعتين، الغائرتين وسط خطوط مستدقة النهايات تتلاقى عند حافة الفم... أوه... ما بالي أنا؟! حتماً أن دبيب البرودة... قد وصل تلافيف خلايا الدماغ... حتى أرهق مخيلتي بجلب صورها من أرشيف ذاكرة عتيق

غطاه غبار السنوات... تلك السنوات البعيدة... القريبة، التي لا تسمح لي بالمضي دونها، لا تسمح لي بالفكاك... من يسمعني أتحدث عن خصلات رمادية متموجة كانت في سالف الزمن ناعمة، تنسدل نحو أسفل الكتف... سيظن... أنا موقن، أنه سيظن أني حبيب تلك الشيوعية العجوز ... ذلك الحبيب الذي أبت أن تبوح بإسمه في أقسى أنواع التعذيب... أبت أن تذكر حروف رسمه أمام أحد... ونالت نيابة عنه كل العقاب والألم... أوه أيها الرجل... كم تحصد في طريقك من ضحايا نساء... كل نزيلات القاووش كن ضحياتكم، ضحيات رجل أناني غلبت أحلام يقظته على واقع حملت إزره هي وحدها المرأة... في أحيان نادرة ومتباعدة عندما تداهمها الكوابيس وليالي الشتاء الباردة تستفيق مذعورة تصرخ (خالد... خالد) فتطفو علامات التعجب الممزوج بابتسامة خجول على الوجوه، تراه من يكون خالد؟!... إلا أن النزيلات يملن إلى إعتبار خالد الرجل الذي أحبت، ويقمن بنسج قصص وحكايات حولهما حتى تصبح بعد فترة تلك الخيالات حقيقة هن أنفسهن يصدقنها... ويتحسرن مرارة على ذلك الحب... على تلك الزهرة التي سحقتها أقدام الحقد والحسد، ومن القصص التي

نسجت حولها يقال... أن واحداً من زملائها في التنظيم كان مسحوراً بجمالها وفتنتها وحين أعترف لها بمشاعره إعتذرت منه، لم تحتمل فحولته رفضها له، فقام بالتبليغ عنها لأحد رجال الأمن... أيها الرجل ما أقساك؟!... أنت دوماً وراء عثرة كل إمرأة... آه... لو تفهمين يا شهد أه لو تفهمين... لكنتِ رحمتني من نظرة العتاب تلك التي تعكر صفو الشهد في عينيك وتقبض على أنفاسي خانقة، فلا يعود من سبيل لي سوى الاختباء... الاختفاء عن ظلالك الذي تنشرين، عن عينيك اللتين تجولان بالمارين... بحثاً عن أحمق لا يستحق ما تجودين... آه شهد متى تفهمين؟... متى تفهمين؟ أن من يحارب القدر يخسر ولو بعد حين... يخسر ولو بعد حين.

يؤنبني علي على قسوتي معكِ وتجاهلي... فيشتد في بعض المرات الجدال بيننا (لو لم أكن أعرفك صديقي، لقلت أنك تلعب على مشاعر الفتاة، لكن المشكلة أني أعلم جيداً أنك الآخر تحمل لها في قلبك الكثير... رغم إدعائك العكس) ألوذ بالصمت ولا أعرف بماذا أجيبه سوى الفرار من إمامه هو أيضاً... كثيراً ما يقول لي (يا صديقي لا تعقد الأمور هكذا... لِمَ أنت مغموم حزين؟! الحياة أقصر بكثير مما تتوقع... هي لا

تعدو أكثر من رحلة مدرسية الى مدينة الألعاب الترفيهية... فعشها... عشها الآن بفرح... ولا تؤجل ذلك إلى وقت آخر... نحن نعيش مرة واحدة... مرة واحدة لا غير).

هو لا يعلم أن هذه المرة الواحدة... هي حياة مسلوبة من فم الموت.

ما لهذه الساعات؟!، وكأن برودة هذه الليلة قد عطلت حركة عقاربها فغفت بعد سهاد، وتركتني وحيداً ألوذ من البرد بحرارة الهواجس والشكوك... الخوف من القادم... إجترار الأمس وكل ما فات... ليس عدلاً... ليس عدلاً أن أحصي الثواني والدقائق لتنام الساعات ما أطول هذه الليلة أمي... ليتكِ تنهضين... ليتك تصفحين.

تثاءبَ، يبدو أن سلطان النعاس قد أعطى الإيعاز أخيراً لجيوشه بالزحف إلى عينيه، قام من كرسيه سائراً عدة خطوات في الحجرة، وقف أمام الشباك لا شيء سوى الظلام في الخارج، مد يده إلى أحد كتبه، تصفح بعض الأوراق، تثاءب مرة أخرى لم يجد في نفسه أية رغبة بقراءة ولو حرفاً، أعاده إلى مكانه مع باقي أورق محاضراته، تفحص ساعة يده مرة أخرى، لا تزال عقاربها تتثاءب هي الأخرى عند

العاشرة، مقررة أن تأخذ قسطاً من الراحة من ذلك الدوران المتـواصل واللامجدي. عـاد إلـى كرسيـه يفـرك عينيـه المحمرتين، فاغراً فمه نعساً وهو يقاوم آخر الجيوش الزاحفة نحو عينيه، إلتف بالبطانية، قَربَ الكرسي من السرير، وانحنى برأسة المجهد وذراعيه على السرير قرب قدميّ والدته المستلقية صامتة تغط في نوم عميق من أثر الدواء المهدئ الذي وصفه لها الطبيب. غفا سريعاً، حتى قبل أن يتكئ برأسه على السرير. عم الصمت في الحجرة، نسائم الهواء الباردة سكنت عن اللهاث... وكأنها لا تريد أن تضيع عليها هذا المشهد الطافح بالدفء والحنان، كاظم ومنذ سنوات لم يقترب من والدته بمثل هذه الصورة المدهشة والمثيرة للمشاعر. ولولا الأحلام والكوابيس التي رافقت نومه لكان مشهداً مثالياً لا يرقى إليه الشك أبداً. إمتلأ أديم أحلامه بوجوه كثيرة مختلفة وصور ومشاهد مربكة لا رابط أو حتى علاقة بينها، كانت أحلامه متداخلة متشابكة زخرت بإبطال عديدين لكن صورة شيرين ظلت هي الصورة الأسمي والأبقى في كل أحلامه حتى وإن إختلطت أحياناً مع صور شهد، وصعُب على كاظم التمييز بينهما، إختلطت العيون معاً، الإبتسامة

والضحكات، الشعر الأشقر بذاك البني. أصبحت صورة سريالية رسمها العقل اللاواعي فيه، صورة شيرين تبتعد وتتلاشى بين الضباب، أمطار ورعد مفزع، بريق يطفو على سماء رمادية ، تتلاشى الصورة يمد يديه نحوها، يصرخ، يستغيث ، تبتلع دوامة رملية أقدامه، ساقيه، جذعه، يتعالى صراخه، إستغاثته، عيون ترقبه بلا رحمة، عيون حمراء ملتهبة بحجم الشمس، تضحك بصوت ساخر مجلجل مخيف. حشود عارية إلا من القليل تمشي على رمال كاوية، يصرخ مستغيثاً لا أحد يلتفت نحوه، يدان كبيرتان زرقاوان رمادية تمتد إليه، تستمر الرمال بالتحرك بشكل لولبي، تغطي كتفيه العاريين، ذئب بعيد يعوي، موقد نار يتصاعد لهبه الى السماء وخيط دخان ثقيل كئيب يرتفع ببطء يختلط مع عطره، وفية تقذف الذئب بجمرات من النار، يسقط وشاح رأسها، تمتد ضفيرتها نحوه، تتموج في سيرها على الرمال، يتعالى صراخه المبحوح، يمسك طرف الشريط الأحمر، تهدر بضحكتها الطفولية التي ما تلبث أن تتلاشى مع صوت عواء، وعيون حمراء تلمع، وقع أقدامه يقترب... يقترب يتعالى الصراخ... يصرخ مستغيثاً... أمي ... أمي... فيصحو فجأة

على لسان متيبس كالصحراء، وعينين دامعتين تحاكيان حنين صوت المؤذن وهو ينادي إلى صلاة الفجر... يفرك عينيه ليتـأكد... وفية تمسك رأسه وتتلو بعضاً من السور والآيات، حملق في وجهها، وهي تطمئنه (لا تخشَ شيئاً يا ولدي... أمك ستبقى معك لا تخشَ شيئاً، هو كابوس لا غير) ومدت يدها نحو إبريق الماء وناولته كأساً منه، شرب القليل، لا يزال لونه شاحباً وخفقان قلبه مرتبكاً. بقى صامتاً لوهلة، في الفراغ تاهت نظراته، إستجمع عقله بعد أن زالت صور الفزع والإندهاش، نفض نفسه واقفاً على حين غرة، رمق والدته بنظرة إرتعبت منها أوصالها، نادت في أثره تصيح بصوت ضعيف متعب (تعال يا كاظم... تعال الى أين أنت ذاهب؟؟!... تعال يا ولدي... لا تضيع مستقبلك).

الفصل الثاني (وفية)
ليلة الاثنين ١٥/ كانون الاول٢٠٠٣

بعد إنتصاف الليل بربع ساعة أو عشر دقائق على التقريب تشعر وفية بدبيب في أطرافها المخدرة، تفتح عينيها متمهلة، تجول بهما أرجاء الغرفة الضيقة وسقفها المملوء بالشقوق، لون الجدران باهت حمصي ينام عليه غبار سنوات طويلة، أغمضت عينيها ظانة أنها تحلم وحين فتحتهما مرة أخرى إلتقت نظراتها بالجدران نفسها. الآن تذكرت ولو أن مفعول المنوم لايزال يخدر ذاكرتها كما أطرافها، أقلها عبد الجبار إلى المستشفى كانت شبه مغمي عليها، يتصارع جسدها النحيل وقلبها الذي تسارعت نبضاته فجأة مع إرادتها القوية في البقاء. داهمها ألم وضيق في الصدر حين كانت في المطبخ لأجل تحضير سفرة الغداء بعد صلاة الظهر، الموعد الثابت للغداء. لم تستطع أن تتمالك نفسها فخرت مغشياً عليها، تنبه عبد الجبار إلى صوت إرتطام الصحون بألارض، فأسرع إلى المطبخ يدفعه الفضول لمعرفة ما يجري وصدم مرتعباً من منظرها مرمية على الأرض حولها الصحون محطمة. فقد

رباطة جأشه، رجفت شفتاه، وإتكأ بركبتيه على الأرض قربها يحرك يديها في محاولة لأيقاظها. جرى نحو كأس الماء ونفث ذرات منه على وجهها. فاستفاقت متعبة شاحبة «حتماً أن دواراً قد أصابكِ.. لا تأكلين كما ينبغي وتجهدين نفسك في أعمال المنزل،عنيدة... لاتسمعين الكلام» كلماته لا تزال يرن صداها في أذنها وهي تجول بعينيها نصف مغمضة محيط السقف. تمتمت بضع كلمات غير مفهومة، لكن نبرة صوتها دلت على إستيائها من مبالغة عبد الجبار وخوفه «هذا الرجل أصبح يغرق في شبر ماء... لا أظن أنه كان من داع أن يأتي بي إلى هنا... دوخة وراحت لحالها... لكن ماذا عساي أن أقول... سوى الحمد لله». لا تزال تشعر بثقل في رأسها ووخز في أطرافها فحاولت ان تستند براحتي يديها على الفراش لترفع رأسها وكتفها قليلاً، الضوء باهت ونعس، قرصت نسمات باردة خدها، فتنبهت الى سلك المغذي الموصل الى يدها حين حاولت فرك راحتيها ببعض طلباً للدفء. إستنكرت وضعها وعادت تهمهم «يسوون من الحبة كبة... آه يا عبد الجبار... آه منك... أظنني الآن أسوء حالاً مما كنت فيه» وحركت قدميها، فارتطمت بثقل لم تدرك ماهو إلى أن مدت

بصرها إلى قدميها «يمه... هذا وليدي كاظم؟!». طاقة وعاطفة قوية دفعتها عنوة الى الأرتفاع بجذعها لتجلس على فراشها بالقرب من كاظم، الذي يغط في نوم عميق بعدما جافاه النوم. مدت يدها ببطء وحنان نحو رأسه، وأعادت تغطيته بالبطانية التي إنزاح بعض أجزائها عنه. ترددت، وفي عينيها صحت دمعة، أن تلمس خصلات شعره الغافية على جبينه. خشيت أن توقظه من نومه أن فعلت هي ذلك «فكاظم نومه خفيف، يتحسس بسرعة». بانت إبتسامة عريضة لكن حزينة على طرفي فمها كشفت عن صفي أسنان لؤلؤية اللون لم يطلها زمنها الغادر. «آه بني... كاظم كم إبتعدت؟!... كم إبتعدت عن أمك يا كاظم؟» وامتدت يدها بصورة لا أردية نحو رأسه، تمسد برقه فراشة خصلات شعره البني اللون والذي يشبه كثيراً شعرها «آه بني... آه لو تعلم مقدار حبي لك... فقط لو تدرك أن أمك...» وسرحت مع أفكارها بعيداً يرافقها ظل إبتسامة إتشح بدموع كفكفتها براحة يدها اليسرى الشاحبة وعروقها الناتئة الزرقاء، لئلا تفسد عليها جمال ورقة تلك اللحظة، تلك اللحظة التي تبدو قريبة حينما توعكت صحتها ولازمها الدوار، الذي تبينت سببه طبيبة المستوصف

بعد أن تفحصت نتائج التحاليل لتزف لها بشرى حملها (مبروك أنت حامل) فخرجت من المستوصف ووجهها يتهلل بالفرحة «أنا متأكدة أنه صبي وسأسميه كاظم... ولدي كاظم» وصدقت نبوءتي يا ولدي بعد أن سخر مني الجميع حتى أبوك الذي بقي يردد طوال فترة حملي بك (صبي، بنت، كله رزق) إلا أني كنت دوما أرد عليه «هو صبي... وإسمه كاظم». وحين قدمت لم يملك أبوك إلا أن يذعن للأسم الذي إخترته لك من قبل تسعة أشهر، وأرجأ اسم أبيه إلى المولود الثاني... كانت فرحتي بك كبيرة... عشقت رائحة جسمك الصغير الذي عمت أجواء بيتنا، حتى أني إحتفظت ببعض ملابسك دون أن أغسلها... ولدي كاظم... لم أحب أحداً في حياتي قدر ما أحببتك، زينب الصغيرة أدركت ذلك رغم أني كنت أحاول مراراً إنكار ذلك وإقناعها بأنكما أولادي... جعلتني أصبح أماً في عمر صغير بعض الشيء... رغم أني لم أكن متحمسة للزواج من أبيك، لكني فرحت وسعدت كثيراً حين حملتك بين ذراعيّ لأول مرة... حبك عوضني عن أشياء كثيرة... (وشردت لوهلة من الزمن في ذكريات بعيدة).

كان قلبي يقفز من الفرح حين ألمحه واقفاً في الركن البعيد للمدرسة، كنت أدعي عدم الإهتمام أو حتى الإنتباه له حين تلكزني أخته ساخرة ضاحكة «هذا أخي كريم بالأمس عاد في إجازتة من الجيش... حتماً جاء ليراني»... وتستمر في قهقهتها وسخريتها من أخيها، الذي لامست الشمس جبهته وهو واقف ينتظر، وحين نمر قربه أشعر بثقل قدميّ واصطكاك ركبتي، هي لحظة أو لحظتان لكنها عمر، ترتبك كلماتي، لا أعود أسمع ما أقوله أو ما تهمس به أخته. كنت أخجل من النظر اليه، فبقيت ملامحه غير واضحة لديّ.

تمر الأيام السبعة مسرعة وهو يقف في ذلك الركن وقت إنتهاء دوامنا في معهد المعلمات. كانت تلك الأيام السبعة من أسعد أيام الشهر، أجترها إنتظاراً حتى الشهر القادم. لم تتطور علاقتي به خلال السنتين أكثر من تلك النظرات السريعة المتلصصة والأبتسامة الخجول التي ترتسم على وجهي المحمر الساخن، الى ذلك اليوم حين لم يكن واقفاً بانتظاري كعادته في أيام الأجازة، يحصد نظرة أو نظرتين. شعرت أخته بتوتري وقلقي دون أن أنبس ببنت شفة فبادرتني قائلة بحزن «لا تتلفتي يا صديقتي حولك، هو لن يأتي بعد الآن... هو لا

يستحقكِ صديقتي، فقد أغراه عمي بالمال وسبل الحياة السهلة حتى يتزوج إبنته».

تلك كانت أول وآخر تجربة حب أعيشها في حياتي... كنت صغيرة وكان حجم الألم والخيبة كبيراً للغاية، لم أستطع مواجهته أو تفهمه، فأغلقت باب القلب وتزوجت إبن عمتي في السنة نفسها. وافقت عليه دون أن أفكر، هو تقدم لخطبة أختي نجلاء، لكنها رفضته لأسباب مختلفة أهمها أنه إبن أمه، فاقترحه والدي لي، وصرت في بيته بعد شهر عروساً بعد أن إشترط عليه والدي أن أكمل دراستي في المعهد وهو وافق، رغم أنه بعد ذلك قد خلق أعذاراً ومعوقات في طريق إكمالي للدراسة لاسيما بعد حملي بكَ، إلا أني حاولت جاهدة أن أكمل السنوات الثلاث الباقية لي وكان ذلك، وتخرجت من معهد المعلمات، على أمل أن أحقق حلمي وأصبح معلمة.

وسخرت من نفسها قائلة: آه أين أنا من هذه الذكريات البعيدة؟!... بالله عليكِ يا امرأة، أنتِ في إي حال ألا تنظرين إلى ما حولك إلى نفسك؟ (وأخذت تتفحص ثوبها البني) وكأنك متشردة في هذا الثوب... الذنب ذنبك... في كل مرة تنوين رميه تترددين، وها أنت تستحقين صنيعة بخلك، أنت بهذا

الثوب المزري في المستشفى، حتما أشفق الجميع عليك بسببه يا شحاذة (ورجعت تتفحصه من جديد وتحسب عدد البقع عليه) الله يجازيك يا عبد الجبار... كيف أتيت بي بهذه الملابس؟ ألم تفكر ولو قليلا!! سامحك الله... سامحك الله (ومسحت بهدوء على شعر كاظم) وليتك يا ولدي لو سامحته أنت الآخر... لا تسامحه لأجله، بل لأجلك... لأجلك يا ولدي حتى تنعم بالسلام... السلام الذي فارقك منذ أن كنت طفلاً... آه يا كاظم ليتك تنسى، وتترك لحياتك الحرية أن تنساب كنهر... آه... آه لا جدوى من الحواجز والقيود التي تحيط بها نفسك... لقد خرجنا من الزنزانة يا ولدي... لقد خرجنا... إلا أنك بنيت واحدة أخرى في عقلك ووجدانك وحتى لروحك... أوه كاظم، جل ما أتمناه أن أراك سعيداً، أن تتلاشى تلك النظرة التي تظلل عينيك وتلقي عليهما وشاحها الثقيل والكئيب... أنا لن أيأس وسأظل أدعو لك في كل صلاة... أدعو أن يبرد الله قلبك ويلمسه بيد الصفح والسلوان لعلك تصفح وتسلو. لا تعلم يا ولدي كم تعذبني تلك النظرة القاسية الباردة، وذلك اللوم الذي تصوبني به في كل مرة تقع عيني عليها، ورغم أنك تتحاشى النظر إلى أمك إلا أني أستطيع

الشعور بها وهي تخترق قلبي وتحطم وجداني... لكنك يا ولدي تجهل كيف تكون الأم، وما تستطيع فعله لأجل أولادها.

كان بيت عمتي كئيباً يغلفه صمتٌ موحشٌ نما بين أركانه منذ سنوات بعيدة، منذ أن باءت كل محاولاتها بالفشل في إنجاب أخ أو أخت لجواد. وما زاد الطين بلة، هو هجر زوجها لها وزواجه من واحدة أخرى الأمر الذي حطم صومعة كبريائها من الداخل، فأصبحت أكثر قسوة في نظرتها للأمور وفي تعاملها مع الآخرين. وبالطبع جواد وحده من نجا من قسوتها، فقد أغدقت عليه كل ما تملكه من حب وعاطفة مكبوتة.

لم أنتظر موعد إجازة نزوله من الجيش ورغم أجواء البيت الثقيلة إلا أني لم أفتقده، لم أعد على أصابعي موعد قدومه، ولم يقفز قلبي فرحاً، إلى شراييني تندفع الدماء حارة تفور، لم تصطك ركبتاي أو تسري في أوصالي رعشة شوق... أوه فقدت تلك الأحاسيس إلا أني وبخت نفسي «مع الوقت ستحبي ...» لم أكمل عبارتي بل صححتها «مع الوقت ستعتادين عليه... هو زوجكِ». ولم تتوقف ثائرة نفسها عن المقارنة وإختلاق العلل والأسباب «ليس أمامك سوى التأقلم... الوقت... الوقت ياعزيزتي، سيكون رهانك الناجح» تمر أيام

الإجازة السبعة ببطء، رغم أني كنت أتعمد التغيب عنه وعدم التواجد معه كثيراً في الحجرة بحجة الإعمال المنزلية والطبخ، حتى أنه في إحدى المرات سحبني من قرب القدر الموضوع على النار على مرأى من أمه التي وبختني بطريقة ناصحة «إهتمي بزوجك أولاً يا إبنتي... أعمال المنزل لن تنتهي» وتنتهي أيام الإجازة بعد نفاد صبر، لأعود إلى طبيعتي... الى نفسي التي أقع معها في خصام شديد، وإختلاف في الرأي ووجهات النظر،لا أنا قادرة على إقناعها ولا هي تغلق فمها صامته أو متغاضية، كانت تصطاد في برودة مشاعره العكرة، ونظرات عينيه الباهتة لنسقط مرة أخرى في بئر مقارنة لا قرار له، ولا أحصد من ورائها إلا إنتفاخاً في العينين وصداعاً في الرأس «ما بكِ؟ كيف!...كيف؟!... وهو الذي باعكِ... لِمَ أنتِ غبية هكذا؟!». مع الوقت بدأت تقاطيع وجهه، التي لم أعرفها جيداً بالتلاشي، أحاول جمعها من تقاطيع أخته التي بقيت صديقتي، ولكن ظل شبحه يسكن تلافيف الذاكرة، ولم أنسَ تلك الظهيرة وبطني تتقدمني شبراً حين خرجت من المعهد، وترأى لي أني لمحت طيفه وافقاً في المكان نفسه، تباطأ نبضي... لا... شعرت بألم في نهاية بلعومي وحرقة،

ضاق نفسي عليّ، ضعفت قدماي، إستندت على الحائط وهلة. حتماً كنت أتخيل، أنها الشمس قد فعلت فعلتها ونسجت من خيوط ضوئها والظلال شبحه الذي إختفى بلمح البصر، كسراب يومض بين طيات روح عطشى. وهكذا أنهيت بقية اليوم في جدال وإستفزاز مع نفس تحاصرني بشكها، تتلاعب بي وتسخر مني، حتى عمتي التي لا توليني إهتماماً أو ملاحظة تنبهت الى وضعي قائلة «بطنكِ وصلت لفمك... هلا تركت عنك هذه الدراسة؟!»

كانت تتصيد الفرص لتسمعني هذه الترنيمة الأبدية، ظناً منها اني سأنزل عند رغبتها، حتى إبنها وبتأثير منها لمح مرات إلى ذلك تحت ذريعتك يا كاظم... بذريعة الولد الذي لم أرَ أية مشاعر ترقب أو تشويق لقدومه سواء على عمتي أو إبنها، الذي يضع لبنات جدار تعلو بيننا يوماً إثر يوم. لم يحاول التعرف عليّ عن كثب، واكتفى بي زوجة وفراشاً، لم أندهش حين لمحت عمتي يوماً ودون قصد خبيث بل على العكس، من أن ولدها كان معجباً بأخت صديقه «لكني رفضت بشدة أن أخطبها له، وطلبت منه أن يتزوج إحدى بنات خاله... وكنت

أنت نصيبه» رمقتني بتلك النظرة التي تعني «أنتِ المحظوظة التي سعدت وظفرت بابني».

المحير في الأمر أكثر هو أني لم أشعر بالغيرة عليه من تلك الفتاة التي أحبها أو أعجبته حتى أنها لم تثر فضولي في معرفة المزيد عنها، والتي كانت عمتي ستقدمها لي عن طيب خاطر ونشوة إنتصار في أن كلمتها كانت الفصل والأخيرة، لكني لم آبه بمعرفة أي شيء يخصها، حتى أني لم أستفسر من عمتي عن مدى جمالها أو هيئتها... فعلا لم أكن مهتمة وهذا ما أثار حفيظة عمتي إلا أنها إستدركت ذلك قائلة «فعلاً أنت عاقلة، وعقلك كبير» أوه... صار التبلد العاطفي واللامبالاة سمة من سمات العقل والنضوج، حُمدت عليها من قبل عمتي التي لم تنسَ وبشكل ضمني أن تثني وتمدح رجاحة عقلها وحسن إختيارها لزوجة إبنها، الزوجة التي ستحفظ إسمه وعائلته. وبطريقة ربما لاشعورية إشترت في اليوم التالي لي ولها قطعتي قماش وكأنها تكافئنا على رجاحة العقل وحسن التدبير، بدوري بذلت جهداً خاصاً في نيل إعجابها بالثوب الذي خطته لها، حتى أنها تباهت مفتخرة أمام نساء الجيران بموهبة (كنتها) وابنة أخيها وهي تردد على أسماعهن (الثوب لا يجمله

سوى خيط من نسيجه). لا أدري... شعرت حينها أنها تقصد بكلامها هذا إحدى النساء، أو أنها تريد أن يصل إلى إسماعها من خلالهن، فقد بالغت باطرائي أمامهن، حتى شعرت بالخجل وهن يتفحصنني كنوع من المقارنة بين ماسمعنه من عمتي وبين ماتراه أعينهن، ويبدو أني قد نلت إعجابهن أيضاً، الأمر الذي فتح لي باب رزق لم أكن أتوقعه أو أخطط له، حين إقترحت إحداهن أن يخطن أثوابهن لدي، فاعترضت عمتي مترددة، إلا أنها طمأنتها قائلة «لا تخشي شيئاً يا أم جواد... أنا سأتكفل ولن أسيء إلى نظام بيتك وطبعك المنعزل» فوافقت عمتي على مضض تحت إلحاح وإصرار بقية الجارات. وأظنها قد ندمت على ذلك فيما بعد، رغم أن دخل الخياطة كان جيداً وقد ساعدتها كثيراً في مصاريف البيت واحتياجاته. في البداية كانت فرحة وفخورة بذلك إلا أني أظن لا... بل أعتقد جازمة أنه هو... جواد من لمح لها بانزعاجه من هذا الأمر، على الرغم من أني لم أكن أقرب من ماكنة الخياطة حين يكون في البيت، فاخذت عمتي تبدي إستياءها من صوت الماكنة أو من طرق الباب، فبدأت تفتعل أعمالا منزلية إضافية لإجل إشغالي عن الخياطة، مما إضطرني الى تأجيلها حتى

ساعات الليل المتأخرة بعد أن أغلق فتحة الباب السفلية الصغيرة بخرق من القماش لئلا يتسرب الصوت إليها، فيقلق منامها ويربك شخيرها العالي... أنا لا ألومها... فقد إعتادت أن تلبي كل رغبات ولدها الوحيد الذي نشأ بعيداً عن أبيه، مؤسساً عائلة أخرى، ناسياً واجباته تجاه جواد وأمه. لم تطلب الطلاق منه بعد زواجه من أخرى، حافظت على مظهرها الأجتماعي، ولو ان زواجه قد كسر في كبريائها الكثير... الكثير وأحالها إلى إمرأة قاسية قليلة الثقة، كان يزور بيته الأول بين الحين والآخر كضيف يقضي بضع ساعات فيه، دون أن تسمح له أن يقربها أو حتى يتحدث معها في شؤونها الخاصة، فقط إقتصر حديثهم عن جواد الذي كبر هو الآخر مع ذلك الضيف الذي تتباعد زياراته لهم، مقتصرة على الأعياد وبعض المناسبات أو الحالات الطارئة. عند ولادتك يا كاظم هو لم يفوت ذلك داساً في سريرك هدية ولادتك، مبلغا ماليا جيداً، وحين رفضته عارضني قائلاً «هذا نقوطه من جده... لا تتدخلي بيني وبين حفيدي» خجلت من رده وشكرته على ذلك ممتنة، فربت على كتفي برفق متمتماَ «أرجو أن تعيشي بسلام في هذا البيت». كانت نبرة صوته الأبح محملة

بحزن معتق عمره سنين. لم أجرؤ أنا أبداً ولو لمرة واحدة على فتح زر حديث مع عمتي حول ظروف زواج زوجها من أخرى أو أي سؤال يتعلق بذلك الرجل الهادئ الملامح والطبع. إلا أني أذكر حديث أبي وأمي عنه، وكيف جاء إلى أبي مستعطفاً متوسلاً لكي تصفح عنه عمتي فتعود المياه إلى مجاريها، فكانت عمتي إمرأة حاذقة أعادت ربط المجاري لكن دون أن تسمح للمياه بالمرور. أظنه حاول أكثر من مرة إرضاءها وإستجداء عطفها وتفهمها، لكن دون فائدة. في المرات القليلة التي زارنا فيها كانت تتحاشى الحديث معه أو التلاقي وإياه بنظرة، حتى أنها كانت ترتدي ملابس طويلة محتشمة وغطاء رأس بوجوده... كنت أضحك في سري حين تدخل علينا بتلك الهيئة. وأذكر مرة أني مزحت مع جواد بهذا الشأن، فرمقني بنظرة باردة مهمهماً بصوت خفيف «إتركيهم وشأنهم... نحن لسنا بأحسن حال منهم» لم أكن متأكدة من سماع العبارة الثانية وما يقصده... فصمت ولم أطلب منه أن يعيدها على مسامعي، كنت خائفة... خشيت أن يُعيد ما شككتُ به أذني، مدعية أني قد تهيأ لي ذلك... لكن أظنه قال ذلك... في ذلك الوقت... في ذلك الوقت... تغاضيت عما قاله بحجة

أني لم أكن متأكدة من سماعه... أوه نحن البشر نغالط أنفسنا كثيراً... سماع الحقيقة ليس سهلاً كما يظنه البعض... فنكذب على أنفسنا، التي تجلدنا بسياطها، نسكن الألم باعذار ومبررات يختلقها العقل.

لم أشعر بحبه لي يوماً، ومع ذلك غالطت نفسي فيما سمعته، وكل تعابير وجهه التي رافقت ما همس به تؤكد صدق سمعي وظنوني... في البداية أقنعت نفسي وأخواتي اللاتي يسألنني عنه بأنه خجول لا يعرف كيف يعبر عن مشاعره... لكنه ليس خجولاً... أو متحفظاً كما إعتقدت... كنت وسيلته لا غايته... عُرق برودة مشاعره وصل الى قلبي، فتواءمت مع تلك البرودة... آه كاظم ولدي أعلم أنه لا يصح أن تتحدث أمك بهذه الأمور أمامك... لكن الحمد لله أنك نائم وأنا لا أعرف ما بالي اليوم أهو تأثير الدواء؟! ما لي رجعت عمراً الى الوراء؟... أتخبط بين عثرات الذكرى... كتاجر مفلس يقلب سجل حساباته، لعله يكتشف فلساً كان قد أهمله... ولعلي أكتشف أنا الأخرى جذوة حب كانت في صدر جواد لي وقد تغاضيت عنها (وظهرت إبتسامة على طرف عينيها البنيتين ضاعت بين الخطوط الدقيقة التي إعتلت الوجنتين منذ سنوات هامسة:

ما بكِ يا أمرأة أبعد هذه السنوات تلقين باللوم على نفسكِ؟ أو تمنينها بتلك الجذوة التي ربما كانت موجودة وأنتِ... أنتِ فقط من فوتها... ما هذه السخافة!... ألا تريدين الإعتراف... الإعتراف بماذا؟!.. الإعتراف بأن جواد لم يكن لكِ... لكنه كان زوجي... وان يكن!! كلتانا تعرف الحقيقة... عن أية حقيقة تتحدثين؟!... عن حقيقة أنه لم يكن لكِ، لم تمتلكي قلبه... كل الأزواج هكذا... لا أظن... لا أظن... المرض أثر على عقلك سيدتي... لا ضير إن إعترفتِ بأنه لم يحبكِ... لماذا تتصورين أن مسؤولية ذلك تقع على عاتقكِ... أو أن التقصير كان سببه أنتِ... كل هذا الوقت وانت تغالطين نفسك حان لك أن تفهمي... أن تفهمي أنه هو كان السبب لا أنتِ... حاولت معه... حاولت كسب عقله بعد أن يئستِ من العثور على طريق قلبه، وكسبته ولو على مضض منه ولكن التجارب العديدة جعلته يدرك أنك إمرأة من طراز فريد... ومن يدري... ربما هذا ما زاد الطين بلة... تميزك وحصافة رأيك، قوة إرادتكِ... صفات يكرهها بعض الرجال ولايحبذها في زوجته... أنتِ بشكل أو بآخر تشبهين عمتك... من انا؟ أشبه عمتي (أمه) كيف بالله عليكِ حتماً أن المرض قد ضرب آخر

سلك موصل إلى عقلك!!... كيف أشبهها وأنا التي إنتقدتها دوماً في قرارة نفسي؟!... نعم إنتقدتها... لكن الوقت كشف أنكِ نسخة أخرى من أم جواد، نسخة من قسوتها وصلابتها وتحكمها في الأمور... نسخة في حبك المرضي ودفاعك الشرس عن جواد... أوه أقصد عن كاظم... أنتِ تشبهينها مهما حاولت الإنكار، ولربما أو بالأحرى هو أدرك ذلك أيضاً، فجواد رغم كل تحفظه مع أبيه إلا أنه يدرك جيداً سبب إبتعاد أبيه عنه. فأمه لم تتنازل، كبرياؤها منعها أن تصفح أو تغفر له... فعاش مضطرباً تائهاً بين ولائه لإمه وبين حبه لابيه، الذي أهمل ولده مع الوقت، منشغلاً بشؤون أسرته الجديدة. هو لم يغفر لإمه ذلك، ففي مرات عديدة أسمعه يتمتم بأشياء من هذا القبيل حتى أني سمعته مرة «ماذا تريد؟... ماذا تريد؟هل أترك لها البيت مثل ذاك الرجل حتى ترتاح»، كنت أدعي عدم الإنتباه لما يقول. أوه يا كاظم... يا حبيبي (وأخذت تمسد شعره بلطف بالغ وتمرر يدها على جبينه كأنها تلمس جناحي فراشة)، أنت لا تعلم أن ظواهر الأمور قد تختلف للغاية عن بواطنها، فالجميع يعرف أن جواد إبن أمه المدلل، ولا يطال علاقتهما أي شك في مدى متانتها، لكني بعدما عشت بينهما،

أشفقت على عمتي، لا أنكر أنها معه في بعض الامور كانت حدية وكلمتها الأخيرة هي الفصل، لكن كانت معظم الوقت تدلله ولا تطلب إلا رضاه وسعادته، ذلك الدلال الذي أفسده عليها، فكلما أغدقت عليه حبها، زادت بلادته العاطفية ولامبالاته، وكنت أنا أيضاً وبلا شك أحصد معها من تلك البرودة وعدم الإهتمام... لكن صدقني يا ولدي، أنا مختلفة عن عمتي فلماذا أنت تعاملني كما عاملني أبوك؟... النظرة القاسية اللامبالية نفسها، نبرته المتهكمة معي ومع أمه... ما ذنبي أنا؟ إن رأني فيها... أوه من يعلم ربما كنت مذنبة بشكل أو بآخر، الأمر الذي جعله يقضي معظم أيام إجازته خارج البيت ولا يعود حتى ساعة متأخرة من الليل. وبعد إنتهاء الحرب وموت عمتي المفاجيء بالسكتة القلبية إستمر على مزاولة السلوك والإهمال نفسه، وهذه المرة بحجة العمل في الدكان وما يحتاجه من تفرغ ووقت. كنت أدرك جيداً أن الدكان ذريعة للتأخير خارج البيت، لم أحاسبه على ذلك... وربما كنت في سري مرتاحة لهذا الوضع، بعد أن يئست تماماً في مد الجسور بيني وبينه وإقتصرت حياتنا معاً إلى بضع دقائق متباعدة ثقيلة تنزاح ببطء كجبل، حتى أنه في إحدى جلسات السمر مع

أخواتي، رجحن أن له زوجة أخرى وان فرخ البط عوام، أول الأمر ضحكت من الفكرة ولم ألقِ لها بالاً أو إي أهتمام، فأنا التي أعرفه جيداً وأعرف طبعه المتحفظ تجاه النساء وتجاه أية عاطفة تذيب الثلوج التي تراكمت حول قلبه. آووه كم كنت مخطئة في حدسي،، حدس المرأة الذي لا يخطئ كما يقولون، وهذا معناه أني لم أكن إمرأة بالشكل الصحيح (وقهقهت بهدوء من هذه الخاطرة). وكأنني أرى تلك البقعة الحمراء الآن، مزروعة على طرف ياقة قميصه من الجانب... فركت عيني، وابتسامة دهشة أو خيبة (من يدري؟) تلمع على جانب فمي... ماهذه... أمعقول ما أراه؟!... وقربتها من أنفي، مسحتها بطرف أصبعي... ماذا أحاول أنا... أنها آثار قبلة دامية قد أرسلت إلي بشكل مقصود حسبما أظن... لم تثر ثائرتي... لم أبكِ أو أحزن، أتراني أنا الأخرى قد فقدت الإحساس بعد عشرتي معه!، فعلاً حاولت أن إستحث دموعي أستجديها على السقوط فأبت، أعتصر كل مشاعري وذكرياتي معه إلا أني وجدت الذاكرة شبه فارغة، حاولت أن أتشبه بالنساء اللواتي يكن في مأزق كهذا، لكن الأدهى والأمر من ذلك حين واجهته بالقبلة الغافية على قميصه، جال ببصره حولي بنظرة ساخرة

وإبتسامة حاسرة أظهرت الصف العلوي لأسنان بلون التبغ ورد ماطاً شفتيه «لاعليكِ... حتماً أنت يا وفية عقلكِ أكبر من هذه السخافات». فسألته عنها... لا لأني مهتمة لمعرفة ذلك... بل فقط لأثبت لنفسي أني إمرأة تغار على زوجها، لأثبت لها أني امرأة، بعد أن شككت وتهكمت ساخرة من برودة أعصابي، وحتى أشعره هو الآخر بأني مهتمة... ولا أظن أنه قد صدق ذلك... لكنه أجابني وهو يحملق في وجهي وصوب عينيه فى عينيّ وكأنه يتأكد من صدق ظنونه فقال «دعك من هذه السخافات... ولاتهدمي بيتكِ بيدكِ... كعمتك» وتركني دون أن يسمع الرد.

إستعطفتُ دموعي مرة أخرى، لكنها كانت أكثر عناداً مني ولم تنهمر، إلا أن ثقلاً قد أمسك بأعلى معدتي وجعلها منقبضة لأيام. لم أخبر أحداً بهذا السر سوى شقيقتي التي إصفر وجهها أرتباكاً، وظهر على رقبتها وأعلى صدرها طفح أحمر قان، ثم إنهالت عليّ باللوم والتوبيخ على الزواج من واحد مثله (إبن أمه) وفق ما تراه وتكنيه، وأصرت على معرفتها. من خلال التحري والسؤال من شخص لآخر في السوق عنه، إستطاعت أن تعرف من هي تلك المرأة... نعم أنها المرأة

نفسها... المرأة التي أرادها وأمه مانعت ذلك... وها هو يحقق رغبته أخيراً، تلك الرغبة التي ظلت حبيسة ضلوعه سنوات... بعدما ترملت بشهيد حرب. زواجهما لم يمضِ عليه عام حين أرسلت لي قبلتها، قبلة النصر.

ألحت علي نجلاء ان أواجهه وأقايضه بيننا... أوه يا أختي أنتِ لا تعرفين شيئاً... لا تعرفين أنها أسرته الأولى... حقيقة كنت مشفقة عليهما لم أتحامل عليه ولا عليها... أمك يا كاظم ليست طيبه لهذا الحد... لكن هي الحقيقة. لم أفعل ما أوصتني به نجلاء ولم أقايضه أو أفتح الموضوع معه، تجاهلت الأمر وكأنه لم يكن، مكتفية بك وبأختك زينب (دمعت عيناها دون إرادة منها عند لفظ إسم صغيرتها). كنتما عالمي الصغير وعبر الخياطة التي شغلت وقت فراغي كله وجادت عليّ، حافظة كرامتي، فلم تمتد يدي نحو جيب أبيك الفارغ معظم الوقت... بل خلاف ذلك، فقد ساعدته مرات عديدة بالمال لتجهيز حانوته بما يحتاج من مواد ومؤن. لكن بقيت نفسي بين الفينة والآخرى تضرب ذاك الوتر الأنثوي الحساس، لتعيد عليّ السؤال بأكثر من طريقة ووجه... أتراه كان سيختارك أنت أم هي؟ وإن إختاركِ أنتِ فلأجلك إنتِ أم لأجل أطفاله

وبيته؟! لِمَ لم تجربي حظك معه؟!... هل خشيت الخسارة أمامها؟ هل خشيتِ أن يفضل الحب على المسؤولية وأداء الواجب؟ هل يجد معها سعادته؟... نعم أظن أن لدي جواباً نهائياً لهذا السؤال بالذات... فقد تغيرت ملامح وجهه... أصبحت أكثر إشراقاً، وبدأت ألمح في عينيه لمعة كانت مطفأة، هي شحذت روحه... صارت خفيفة كفراشة... كذلك صوته تغير، أصبحت نبرته هادئة مسترسلة، إبتسامته التي كان يضن بها علينا أمست كإبتسامة طفل، حتى أنه بدأ يهتم بشؤون طفليه ويشاركهما اللعب والمرح. لقد إنطلق الطفل فيه، تحرر من أسماله القديمة، وبالفعل غير ألوان وتصاميم ملابسه، أصبحت أكثر بهجة وأناقة. شعرت أحياناً بالغبطة لأجله... فقد تغير كثيراً عما كان عليه، أنا نفسي صار ودوداً معي، كسر بعضاً من الحواجز التي بُنيت بيننا، صار يحدثني بعفوية دون أي إضطراب أو توتر... يبدو فعلاً أن الحب يصنع المعجزات... لقد صنع من جواد شخصاً آخر، وددت في بعض المرات التي كنت فيها منتشية سعيدة أن أرى تلك المرأة التي عشقها جواد... لكن نفسي دوماً تصفعني منبهة «ويحكِ يا إمرأة... ماذا جرى لك!... إنها ضرتكِ، التي

شاركتك زوجك، أو بالأحرى أخذته منكِ» فأرتد صامتة لا أعرف بماذا أجيبها، فتنتهز الفرصة لتعمل شعور الحقد والغيرة في صدري تجاههما.

وهكذا إستمرت مشاعري ومواقفي تجاه جواد متضاربة ومتفاوتة... تماماً كعلاقتي به التي تحددت بالبقاء معنا يومين بالأسبوع مقابل خمسة معها... لم أنزعج أو أثأر حينها من هذه القسمة، لولا توبيخ أخواتي وملامتهن المتواصلة لي على تضييع حقي حسب رأيهن. كنت أنا أختهن الصغيرة اللاتي يخشين على مصلحتها ويطالبن بحقوقها، لكنهن لم يدركن أن المشاعر لايمكن تقسيمها بعدالة وضمير مهما حاولنا، لذا لم أطالب بتلك القسمة التي يدعونها عادلة، ما الجدوى من قدومه إلى البيت في ساعة متأخرة عابساً عكر الملامح كأنه في مهمة أو واجب كما كان يفعل في اليومين اللذين خصصهما لنا... وها هو التاريخ يعيد نفسه وتتباعد المرات التي يزورنا فيها لتصل حتى إلى أسبوعين أو ثلاثةٍ في بعض المرات، تماماً كما كان أبوه يفعل مع عمتي، فكبرت أنت وزينب على إفتقاد الأب الذي أولى إهتمامه الكبير لبيته الآخر، الذي لم يمن الله عليه بالأطفال، الذين جرت زوجته لأجلهم خلف الأطباء

والعرافات، الأمر الذي أثار حينها بعضاً من شماتتي بها كرد إعتبار لي أمام نفسي أو ربما حتى أمام الآخرين. عندها أدركت أن السعادة لا تأتي كاملة لئلا يبغض البشر بعضهم البعض أكثر. ورجحت الكفة بالنسبة لي فلتنعم بحبها ولأنعم أنا بأطفالي. لكني أبداً لم أشعر تجاهها بالبغض إذ لم أعتبرها نداً أو حتى خصماً لي... لست مثالية أو مدعية... لكن هذه هي حقيقة شعوري نحوها وكثيراً ما خضت جدالاً مع أخواتي أو مع نفسي ولم أحصد من ذلك سوى سخريتهن من وضعي ومن تحجر عواطفي... لكن عواطفي كانت بخير... لا أعلم أو ربما تحجرت بغفلة مني لم يعد الجزم في هذا الموضوع أمراً هيناً، إلا أني كنت متأكدة من مشاعري تجاه جواد، تلك المشاعر التي لم تنضج أبداً ولم تحرك غيرتي عليه، مثلما فارت وخشيت أن يُسمع أزيزها عندما كنا أنا ونجلاء في إحدى المرات في السوق لأتبضع بعضاً من المواد الخاصة بالخياطة. لمحته مع زوجته وأبنائه الثلاثة، كانت نحيلة وطويلة تتلفع بعباءتها بينما يحاول إبنها الصغير سحبها من يدها التي كانت تمسك به. وقفنا على الدكان نفسه الخاص بمواد الخياطة، إشترت بعضاً من الدانتيلات الملونة والأزرار

والسحابات، فهمست لنفسي «هل هي الأخرى خياطة؟!»، كانت التجاعيد الظاهرة على صفحة وجهها الشاحب تظهر أنها أكبر منه عمراً، فهو لا يزال محتفظاً بحيويته وشبابه حتى بعد ظهور قطع من سحاب أبيض في ليل شعره الناعم، وإختباء كرش صغير تحت قميصه السمائي المقلم بالأزرق (لطالما سحرني هذا اللون عليه). مدت بيدها المعرقة الناشفة النقود إلى صاحب الدكان، وقبل أن تتهيأ إلى المغادرة لمحته قادماً نحوها، فتداريت بعباءتي، مصغية إليه وهو يسألها بنبرته الدافئة المعهودة «ها... هل إنتهيت من الشراء؟!». وأنا أسرق تلك النظرات منه (وها هي الشامة لم تتنازل عن مكانها أعلى طرف شاربه)... تلك اللحظات. إرتفعت الحرارة في وجهي، تيبست شفتاي ولساني وسرت شحنة غريبة في جسدي... شدتني إلى تلك اللحظات التي إختلستها من عمري كذخيرة لسنين عجاف، تلك اللحظات الجميلة التي أظل في إنتظارها من شهر لآخر... يا الله ماذا يجري لي؟! (وتأكدتْ مرة أخرى من أن كاظم لا يزال نائماً... خجلت من ولدها أن يسمع مثل هذا البوح)... نعم من هذه المرأة شعرت بالغيرة... لا من تلك، لم يتحجر إحساسي مثلما جعلوني أظن، لم يتحجر،

حي يرزق أحساسي، أفرحتني هذه النتيجة ... لكني وبخت نفسي وإتهمتها بالغباء حين نزلت دموعها على غير إرادة منها «هو الذي فضل العز والمال عليكِ، فلا تكوني غبية ولملمي أجزاءكِ التي تبعثرت... أمعقول أنك لا تزالين؟!... أمعقول؟!... خلتكِ قد نسيته بعد أن غدر بك... أمعقول أن تلك اللحظات التي لا تعادل ساعة لو جُمعت، هي عمر بأكمله... لا من غير المعقول... لكنكِ يا عزيزتي تبالغين... وهيا تحركي». إندهشت حينها نجلاء من تسمري أمام البائع كصنم، ضاعت مني الكلمات وعيناي تلحق خطواتهم المتباعدة حتى تلاشوا بين الآخرين، إلا أن تلك الصورة لم تتلاشَ من مخيلتي بعد كل هذا الوقت... أوه كم أشفقت على نفسي وهي تجرجر الخطى كسيرة، أكلمت نجلاء محاسبة البائع وهي لا تعرف ما الذي ألمَ بي، لكنها أوعزت ذلك معلله إلى حرارة الجو والشمس العمودية. مرضت مدى أسبوع إرتفعت حرارتي ووهن جسمي وانقطعت شهيتي للطعام (أو ربما لمواصلة الحياة).

إصطحبتني نجلاء إلى الطبيب الذي لم يشخص أسباب مرضي، إلا أنه وصف لي من الدواء ما يخفض الحمى

ويصارع الداء. خفض حرارة جسمي ولم يستطع أن يخفض حرارة نفسي الملتهبة، التي ذررت عليها مع الوقت الرماد وعدت ثانية إلى أعمالي المعتادة وحياتي، طاردة تلك الخيالات حين تهاجمني أو مستسلمة لها للحظات. وكانت تلك آخر مرة أراه فيها.

آه... آه يا ولدي... لقد جرت بنا الظروف على عكس ما كنا نشتهي أو نتوقع، سلبتنا أمننا وأماننا، حرمتني كل ما أحببت... لكن الحمد لله أنت لا تزال معي... وربما سيأتي يوم وتغفر لي وتصفح، فقط أود أن تعرف يا كاظم أني لست نادمة، لو عاد بي الزمن فسأتتبع آثار خطواتي السابقة... مادامت ستصل بك إلى بر الأمان. أعلم أني كنت قاسية وأنك كرهت قسوتي (تدحرجت دمعة من مقلتها، كفكفتها بكم ثوبها)... لكن لابد... أوه يا كاظم فعلاً لا أملك تفسيراً مقنعا لتلك القسوة والبشاعة لما فعلته، ولن أنسى تلك النظرات الحارقة الملتهبة التي رمقتني بها وأنت تجهش بالبكاء والتوسل لأجله... وانأ أجرك من يدك النحيلة بقوة، لا يزال صدى بكائه يتردد على جدران أحلامي، فأستيقظ في كل مرة مفزوعة يخنقني تراب العبرات والندم. أنا يا ولدي أسأل نفسي كل يوم عنه، أجلدها بالسؤال...

كيف هان عليك؟!... إي شيطان إستبد بروحك، ركب عقلك، وقتل فيك بقايا الإنسان؟... الإنسان الذي دمروه وإقتصوا منه إنسانيته يوماً إثر يوم... آه يا كاظم، أشعر بضيق في نفسي وقلبي حين أتذكر... يا الله حين أتذكر... أنا لم أنسَ يا كاظم... لن أنسى نسائم الهواء الحارة خلفنا تهدر بصوته الباكي المستغيث، همهماته المخنوقة وهو يحاول عبثاً بقدميه ويديه المستغيثتين إبعاد التراب عنه. قبل أن ألده جربت أكثر من مرة إجهاضه فلم أفلح، كانت إرادته في البقاء أقوى من كل السبل التي إتبعتها لأجل إسقاطه، حتى أقوى من النزف القوي الذي كاد أن يقضي على حياتي لولا تدخل الدكتورة إيمان التي أسعفتني طالبة متوسلة إدارة السجن نقلي إلى المستشفى... وبعد كل تلك المعاناة والألم أفاجيء بأنه لايزال متشبثاً برحم لفظ الكثير إلا هو. عند عودتنا من المستشفى بسيارة السجن مع حارسين أثنين، نبهتني الدكتورة إيمان عن عدم إعادة الكرة «جسمك ضعيف يا وفية، فقدت الكثير من الدم حتى أن رحمكِ مجهد، لاتحاولي ذلك ثانية، دعي الأمور تسير كما رسمها الله، من يدري ربما... لم تكمل عبارتها فقد إرتسمت على وجهها تعابير الإستياء والإمتعاض من قبح

الفكرة التي لاحت على بالها لكنها إستأنفت حديثها: أستغفر الله... أستغفر الله، لقد فقدنا إنسانيتنا» وختمت كلامها بتحذيري مرة أخرى عن عدم القيام بأي عمل متهور على حد قولها قد يودي بحياتي. إنتظرت حدوث مغص قوي أو نزف يخلصني منه لكن الأمور إستقرت وسار كل شيء طبيعياً عكس رغبتي تماماً حتى داهمتني آلام الطلق بعد منتصف الليل، فطلبت الدكتورة إيمان من بعض النزيلات المقربات تهيئة الماء الساخن وترتيب فراش في إحدى أركان القاووش وعزله بخرق من القماش ثُبتت على حبل يصنع ضلعاً ثالثاً مع ركن القاووش، ساعدتها إحدى النزيلات وبعد شهيق وزفير وتشجيع متواصل على الدفع، ملأ صراخه إذني، فأعتصر قلبي، صار حقيقة تتنفس، نظفنه قمن بتقميطه بخرق قد أعددتها سلفاً لأجله... سمعتهن يتهامسن «صبي... هو صبي» وقامت إحداهن بتقريبه مني «أنظري... صبي جميل يشبه أخاه كاظم» وقعت هذه الكلمات على قلبي كالزلزال... كاظم ولدي لا أخ له، ولا يشبهه إبن الحرام هذا. أشحت بوجهي عنه ودون أن إلقي نظرة عليه طلبت منهن أخذه. إستمر بالبكاء باحثاً بفمه، وضعته الدكتورة إيمان في حضني وقالت

«أرضعيه هيا... هو يتضور جوعاً ولن يسكت ما لم يشم رائحتكِ» رفضت، تقلصت بطني إمتعاضاً إلا أنها أصرت أن ألقم فمه المفتوح الذي تكالب على صدري ونام. كنَ دوماً يؤنبنني على إهماله وعدم الإهتمام به، لكني وطدت نفسي على عدم التعلق به أو التعاطف معه، حتى أني لم أحفظ ملامحه جيداً، كنت أتحاشى النظر اليه حتى لا تضعف مقاومتي وتنهض فيّ من جديد تجاهه غريزة أمومة أجاهد في كبحها كل يوم. لم أعطه إسماً لكنكم أطلقتم عليه أسم ماجد، وأصبح الجميع يناديه (مجودي) تحبباً إلا أنا، لم أستطع نطق إسمه. إتهمنني بالقسوة وفقدان الضمير... ربما... ربما، لكني لم أستطع تقبل ذلك الصبي الذي يذكرني في كل مرة تقع عيني عليه بما جرى... أوه يا كاظم لن تستطيع أن تفهم أمك... لن تعرف حجم معاناتها ومقدار ماتعرضت له من إنتهاك وبشاعة... لم يكونوا بشراً بل حفنة كلاب شرسة جائعة، وكنا لقمتهم السائغة... لا...لا لن أستطيع أن أعيش مع تلك الذكريات في كل مرة أنظر إليه، وأن أفكر دون إرادة مني، أنبش في مستنقع الذكريات عمن يكون أباه؟... وجوه قذرة تزدحم بها المخيلة، وأصوات لا يزال فحيحها يغمغم

على ذاكرتي. معصوبة العينين تلقيت الركلات، السياط، رائحة أنفاسهم الكريهة تبقى عالقة على جسدي... أوه يا ولدي تمنيت الموت مرات كثيرة، ولولا صورتك أنت وأختك تبزغ لي كالفجر في ظلمة زنزانة، أقبع فيها معصوبة العينين وموثوقة اليدين، لا أسمع فيها سوى نشيج وتأوهات نساء أخريات غيري يشاركنني الألم والمكان. كانت أياماً قاسية مشحونه بألم كبير طعمه باق على حليمات الذاكرة. كنت في تلك الزنزانة لا أفكر إلا بكما، ضاع عليّ عدد الأيام التي مكثت بها في تلك الزنزانة، أختلط الليل بالنهار... لكن جميعنا كنا شبه متأكدات من وقع أقدام الليل ورائحته النتنة المشبعة بهم، كان على مايبدو أن شهيتهم للعمل لا تبدأ إلا ليلاً، فتتوالى إلينا أصوات الصراخ، السب والشتائم. تهلع قلوبنا وسط الظلمة، ولا نعلم دور من فينا عندما يُفتح باب الزنزانة. نصيخ السمع، أصوات نشيج خافت، وجسد يسحب على الأرض ليترك يئن بيننا. بانتظار مرعب لقرعة باب لا نفقه قواعدها، تمتد يد خشنة غليظة تسحبني من ذراعيّ، عبر ممر طوله حوالي سبعين خطوة يفضي الى حجرة جهنم وزبانيته.

كنت أتلقى الصفعات والركلات والسياط لأجل الاعتراف بمنتسبي التنظيم، صحب جواد، لم تكن لدي أية فكرة عن كل الاسئلة التي وجهت لي ومع كل ركلة أسمع «أعترفي... أعترفي وإلا ستموتين هنا» أوه... كم وددت ان أموت لينتهي عذابي... ألمي المبرح، شقائي، كرامتي المسفوحة، وأصوات سخريتهم وتلفظهم بأقبح الكلمات، وتلك اليد البغيضة وهي تتحسسني، تريق آخر ذرة كبرياء وإنسانية فيّ حتى أعود إلى الزنزانة شبه فاقدة الوعي، مجرورة من قدمي على بلاط الممرالخشن، لأركن مثل كومة أشلاء نازفة، وروح ماتت مرات ومرات قرب الأخريات.

لا أعلم أن كان ذلك الذي تعرضت له وقاسيته يبرر فعلي، يبرر قسوتي على طفل رضيع. أدعوَ الله كل يوم أن يغفر لي ذلك، أن يجد هو العذر لقسوتي، يقولون أن الله يغفر الذنوب حين تتوب وتندم على فعلها، لكن... لكن... بصوت أجش أغرورقت عيناها معه بالدموع حين غمغمت قائلة: أنا لست نادمة... لست نادمة، رغم أن صراخه يحاصرني كل ليلة، يقض مضجعي... أراه في وجوه الأطفال، أحصي عمره كل سنه، كان ليكون شاباً بعينين بنيتين هو الآخر... بالفعل كان

يشبهك عندما كنت صغيراً، إلا أني دوماً أنكرت تلك الحقيقة، أبغضت ان يشبهك ذاك الصغير إبن... أحياناً كنت أختلس على غفلة من نفسي بعض النظرات منه وإدرك مدى الشبه الكبير بينكما... لكن... لكن أشيح بوجهي سريعاً، أتغافل وجوده حتى لا... حتى لا أقع في حبه... في حب تلك الابتسامة العذبة التي تكشف عن سنين، برعمين صغيرين في كل صف حين يفتح عينيه صباحاً باحثاً عني، يحبو باتجاهي فرحاً ينتظر أن تأخذه أمه بين ذراعيها... لكن... ويحي... كنت أتجاهل تلك الابتسامة، أمسكه من يديه الصغيرتين اللتين تعبثان بشعري وثوبي محاولاً الوصول إلى ذاك الحضن البارد القاسي. لطالما رمقتماني أنت وزينب بتلك النظرة المعاتبة الشكوك، إلا أن زينب لم تكتفِ بها كما تفعل أنتَ، فتظل تسألني وتسألني عن سر إبتعادي وعدم حمل أو إحتضان ماجد الصغير، حتى أني كنت ألمح في بعض المرات دموعها الصغيرة منحدرة وهي ترفعه بين ذراعيها النحيلتين محتضنة مقبلة وهي تقول بصوتها الطفولي المتحشرج «انا سأكون أمه عندما أكبر... وسيكون هو ولدي ولن أعطيكِ إياه».

ليتني... ليتني كنت أملك قلب طفل لينسى، ليبدأ من جديد... لكن هيهات... كنت أراقب حبكم وولعكم بهذا الصغير... زينب كانت تفي بوعدها وتعتني به كأنه أغلى ما تملك، بدأت باطعامة شيئا فشيئا وحتى عندما يصادفها سؤال أو إستفسار حوله، تذهب الى واحدة من النزيلات لتسألها. ما كانت ترغب بإشراكي في المواضيع التي تخص صغيرها ماجد، ولولا الراضاعة ما كانت لتقربه مني، حين تأتي به إليّ وتقول وهي حاسرة الرأس بنغمة خصام «الطفل جائع... ألا ترضعيه؟» وتضعه في حضني. أوه كنت المرضع لا غير لذلك الصبي... المرضعة فقط. وقد أجدت ذلك الدور لم أمسك يده الصغيرة، لم ألمس زغب رأسه، لم أشتم رائحته، لم أحضنه غامدة رأسي في عنقه الرقيق، أو أضمه الى قلبي تحبباً وشوقاً... مسكين ذلك الصغير الذي إستأثر بقلوب كل النزيلات والأطفال الصغار ممن تلقفوه من يد لآخرى وهو يضحك ويكركر بينهم مستقطباً كل التعاطف والحب، جاعلاً إياي الخاسرة التي عليها أن تسمع كل عبارات التأنيب والعتب «هو إبنكَ شئتِ أم أبيتِ، ماجد هو أخ طفليك مهما حاولت إنكار ذلك، حتى أن الشبه

بينه وبين أخيه كبير، لا تعاندي نفسك، إرضي بقسمة الله، إرضي به لعلك تشعرين بالسلام الذي فارق نفسك»

كانت هذه العبارات الأخيرة للدكتورة إيمان التي ترمقني أحياناً بعينين معاتبتين، فسئمت مما تعنيانه حتى أني واجهتها بوقاحة صحبها ندم عقبها، حين قلت لها « تستمرين في عتابي، فلمَ لا تنظرين إلى نفسكِ... ألم تجهضي نفسك أكثر من مرة، فلم اللوم والعتب...» وقبل أن أكمل عبارتي، تركتني راكضة نحو القاووش كأن مساً أصابها، تأثرت من ردة فعلها للغاية، وندمت على كلامي السخيف، حاولت بعدها أن أعتذر منها، لكنها في كل مرة تتحاشى الحديث معي أو حتى سماعي، إلى أن واتتني الفرصة مرة فأمسكت عليها طريق الهرب، معتذرة وآسفة لها من كل قلبي. كان يجب أن أدرك أن لكلامي وقعاً مختلفاً على المرأة حينما تكون غير متزوجة.

لم يكن يعرف أني قد أجهضت مرتين بعد زواجنا كان يريد بشدة طفلاً مني، ظاناً أن الطفل سيوثق علاقته بي ويربطني به للأبد. في إحدى المرات التي أخذني بها إلى الطبيبة، وبعد فحص السونار قالت «يبدو لي أنكِ قد إجهضتِ قبل فترة وجيزة» إنخطف لوني، إرتبكت وأنا أرد عليها بأني لم أكن

متأكدة من أن ذلك كان حملاً. لقد دفنتهما في المرتين قرب قبر زوجته السابقة وسويت القبرين بالتراب في كل مرة. من ملامح وجهه وعينية المحمرتين، فهمت أنه قد عرف حقيقة الأمر فبقى صامتاً حين خرجنا من الطبيبة وحتى البيت... ولكنه بعد أيام قال لي وهو يرمقني بعينين متعاطفتين حانيتين «لا عليكِ، سأصبر أنا إلى ذلك الوقت... إلى ذلك الوقت الذي تكوني فيه قادرة على... لن أستسلم أبداً وسأقلع شوكي بيدي..سأقلع شوكي بيدي». لم أنبس ببنت شفة وأكملت عملي بالمطبخ... هو إعتاد على ردودي الصامتة حتى أني أتوقع أنه يفهم كل ما أقولة وأنا صامتة فيبادر بالإجابة وعلى وجهه تعلو علامات التفاؤل والأمل «نعم الصبر سيكون الدواء الذي أتجرعه يومياً حتى أنال بعضاً من رضاكِ و...» لقد تغير عبد الجبار كثيراً... صار أقرب الى الطفل من ذاك الرجل القاسي السيء الخلق.

«أوه ما بكِ؟... ما بك يا وفية؟ أبدأتِ تتعاطفين مع سجانك؟ أنسيتِ ما صنع عبد الجبار معك؟ بالله عليك كيف تنسين!... هو وحش آخر إستغل ظروفك، إشتراكِ مقابل صمته وسكوته، هو لا يختلف عن أولئك الوحوش فلا تنزهيه أو تطلبي له

العذر. فلا عذر لدونيته معك... أمعقول أنك نسيتِ؟ ماذا يجرى لك يا وفية؟ لم أعد أفهمك... هلا نبأتني؟! آه لو يسمع هذا الراقد جنبك ما تقولين، حتماً لكان يقتل نفسه. ربما هو المرض وتأثير الدواء عليكِ... لكن حاذري أن تنجري مرة أخرى وراء هكذا مشاعر أو أحاسيس. سأدعي أني لم أسمعك... لكن ... لكن بغض النظر عن كل تلك الأمور... ألا تعتقدين أنه قد تغير؟ أختفى ذلك الرجل المارق فيه... نعم أكملي ذلك الرجل المارق، الذي جاء اليكِ متسللاً سكيراً بعد منتصف الليل... إلى غرفتكِ حيث ترقدين أنتِ وابنك، يده الخشنة التي كممت فمك وأنفاسه الكريهة تحرق صفحة وجهك... آمالكِ بعيش حياة كريمة كلها تبخرت فصار عليكِ لزاماً أن تكوني الخادمة والجارية في الوقت نفسه، الجارية التي تروح عن ذلك السكير الفاسد الخلق الذي يطالكِ ساعة يريد، حتى دون أن يأبه لابنك كاظم الذي يرقد قربكِ... أمعقول نسيتِ؟!... هل نسيتِ تلك الدموع التي ألهبت عينيك في كل مرة، الألم النفسي، شعور القهر والوجع، نظرات زوجته إليك، تلميحاتها الصادمة».

كانت ترقد على سريرها، الكسر الذي ألمَ بحوضها يمنعها من المسير تارة أخرى، بغريزتها الانثويه شعرت بكل مايدور حولها. هي تسمع وقع أقدامه المتسللة نحوغرفتي، فحيح صوته المنتشي الهادر وهو خارجٌ. «هل نسيت كيف كانت ترمقك بنظراتها من أعلى رأسك وحتى قدميك؟ لتغمغم بعدها بكلمات غير مفهومة أو مسموعة، لكنها تدرك أنك تفهمين قصدها حين تشير إلى خروجات زوجها الليلية التي قلت، وهي تلمح بشكل ضمني «لابد أنه قد وجد ضالته في مكان آخر» ولا تملكين رداً سوى أن تتحاشي نظراتها المتفحصة الثاقبة».

في أول وهلة كرهت ومانعت من إقترابي منها لأعينها على النهوض وقضاء حاجتها، إذ كانت تسمح لي أن أمسك ذراعها على مضض منها واشمئزاز. لم أحاول أن أشرح لها أو أبرر أي شيء، همي الوحيد كان هو حماية كاظم ولدي، لكنها مع الوقت أحست بخطأ ظنونها تجاهي حين قالت لي مرة «يبدو أنك ضحية أخرى من ضحاياه... أنت زوجة أخيه الشهيد كما أدعى... هو زوجي وأعرفه جيداً حين يكذب» وصمتت قليلاً تنتظر ردة فعلي، كنت مصدومه لكني بقيت صامته ولم أتفوه

بشيء ولو حتى هزة رأس أو أيمأة عبر قسمات وجه. فأرجأت حديثها «لاتخافي لن أطلب منك أن تبوحي بسرك أو تقصي علي قصتك... قلبي مكلوم وفيه من الهموم ما لا يسع لهموم أخرى. أعلم أن هناك خطباً ما خلفكِ... لكن أعذريني لا أريد أن أشغل روحي المتعبة وما تبقى لي من حياة (وسخرت، ناظرة حولها، من تلك الحياة الراكدة المملة والمملوءة بالمرض وأدوية المسكنات التي تفلح أحيانا في جعلها ترقد هي وأوجاعها)، في سماع أو معرفة قصة أخرى، تكفيني تعابير وجهك التي تخبئ خلفها الكثير من الحكايات والألم. رغم أني راقدة طوال الوقت هنا... لكني أستطيع أن أتعرف على ما تكنه وجوه الضحايا... جميعهم لهم نفس الوجوه، وأن إختلفت». وتلك كانت آخر مرة نتحدث فيها بهذا الشأن، وأصبحت أكثر قرباً وتوداً إلي، لاسيما بعدما شعرت بتعلق أمين بي للغاية، وحالته الصحية والنفسية التي تحسنت بشكل ملحوظ عن ذي قبل. أوه أمين ولدي الطيب، حبه لي وتعلقه بي أشعرني بأمومتي التي بدأت تخبو حرارة جمرها بإبتعادك عني يا كاظم، بنظرات الشك والأتهام التي تصوبها نحوي في كل مرة تتلاقى عينانا أوه... يا كاظم ماذا بوسعي أن أشرح أو

أفسر لك... ماذا أستطيع ان أقول يا كاظم، ماذا يا ولدي باستطاعة أمك أن تفسر لولدها أو تبرر... صعب للغاية صعب... وحتى عندما تركتني وشاركت أميناً حجرته، لم أجرؤ أن أسألك عن السبب، لم تجرأ عيناي أن تفسرا تلك النظرة التي إرتسمت فيهما... آسفة بني... لا أملك سوى هذه الكلمة... فحياتنا ليست ملكاً لنا كما تعتقد... هي مقايضة وأنا قبلت بها... ما من سبيل أمامي غيرها... أمك يا كاظم ماتت منها الروح من زمن طويل، منذ أول يد قذرة إمتدت نحوها في تلك الزنزانة المظلمة وكل ماحدث بعد ذلك هو موت مكرر، الروح يا ولدي تموت مرة واحدة وما تلاها فهو عبث وإجترار، إجترار لألم الموت وعذاباته. ولدي الحبيب ماذا عساي أخبرك... وكيف أخبرك وأنا التي نهضت من بين أشلاء جسد منهار مثقل مدنس، نافضة عن ضميري كل ما يؤرقه لأجلك... لأجلك أنت ولدي وتلك الصغيرة زينب التي لم أحزن لموتها... أوه ولدي لم أستطع الحزن بإخلاص على فقدها، مستسلمة لحكمة الله في ذلك، مرتاحة لفكرة رحيلها وهي بريئة غير مدنسة... أوه يا كاظم في قلبي مغارة من الألم

والقهر واللوعة، لكن ما من أحد يعرف كلمة السر ليلج تلك المغارة ويخلصني من بعض ما طفحت به.

مع أمين وتعلقه بي شعرت أن أمومتي غير ناقصة، وأن وطأة عذاب الضمير وتأنيبه لي صارت أخف فقط حين ألمح عينيه الحانيتين والمليئتين بالحب لي.

هو يكبر كاظم بستتين أقعده إهمال أبية المفرط، وعجز أمة وجهلها، على كرسي مدولب، أصيب بفيروس شلل الأطفال. كانت قدرته على الحركة صعبة للغاية أن لم تكن مستحيلة، فقضى عمره رهينة الكرسي، وقد ألقى ذلك ظلالاً وسحباً رمادية في أفق نفسه، لكنه لم يستسلم لها وأكمل دراسته الثانوية. بعزيمة وإصرار منه وتشجيع مني، نزل أبوه عبد الجبار عند رغبتنا واستأجر سيارة خاصة له تأخذه إلى المدرسة وتأتي به بعد أن أقعده عن الدراسة سنوات.

أمين ولدي الغالي، أوصتني به أمه ساعة إحتضارها وهي تكابد أوجاع إنسلاخ الروح من الجسد وبصوت واهن متحشرج همست «وفية... وفية أمين أمانة في رقبتك... أرجوكِ عديني بأنك سترعيه وتأخذينه معكِ أينما رحلتِ، أرجوك إعتبريه إبنكِ الثاني بعد كاظم... بعدي لن يحبه

ويرعاه أحدٌ مثلك... أرجوكِ هيا عديني» كان صوتها يتقطع وأنفاسها تتلاشى وهي تقول «أرجوك وفية عديني» فوعدتها «أمين ولدي لا تخافي عليه من إي مكروه مادمت أنا حية أرزق... أعدك يا أم مأمون... أعدكِ فاطمأني أرجوكِ» أحسست براحة طفت على محياها وبثقل قد إنزاح عن روحها التي تحاول الفكاك جاهدة من جسد متعب، أغمضت عينيها فترة لترتاح، وبعدها بصوت متجشئ بعيد كأنه يصدر من فوهة بئر «الآن أستطيع أن أموت في راحة».

لا أعلم أن كان في الموت راحة من عذاباتنا الدنيوية؟ ربما من يعلم ذلك... لكن إنتهى شقاء أم مأمون الذي إمتد إلى أعوام وليال طويلة لا يدع الألم لها جفناً يغمض. دُفنت في الحديقة الخلفية للبيت، حسب طلبها إذ فضلت أن تبقى في بيتها قرب أولادها الثلاثة وربما قرب زوجها عبد الجبار، الذي أحبته رغم قسوته وإهماله لها ولأولاده. تزوجته وهي صغيرة أبنة الخمسة عشر عاماً، فأصبح هو كل شيء في حياتها المكللة باليتم والقحط العاطفي بعد أن ولدت يتيمة الأب، قتل على الحدود العراقية السعودية مع آخرين في شحنة تهريب فما كان من أمها الشابة إلا أن تلقي بتلك الطفلة إلى أهل أبيها بعد هذه

الفضيحة والزواج من آخر. هي وعبد الجبار أقارب من جهة الأب، جمعتهما ظروفهما الأجتماعية المتشابهة الى حد ما من يتم وعوز وقهر، لكن لم تجمع قلبيهما أو بالأحرى قلبه الذي ظل يتيماً بعيداً عن الفتاة التي إختاروها له. لم يفلح قلبها المحب في لفت إنتباهه وجذبه إليها رغم محاولاتها الكثيرة لنيل رضاه، ورفع الرماد عن جمراته. هو أوجد له حياة أخرى خارج حدود هذا البيت، حياة كل شيء فيها متاح مادام الجيب عامراً دافئاً، سكر، عربدة، نساء، مراهنات وقمار من يستطيع أن يقف بوجهه ويقول لا... كلمة لا التي لاحقته طويلاً... حتى شب عن طوقها وما عاد لها حكم ومكان في حياته. لم تستطع تلك الصغيرة القليلة الخبرة في كسب قلب طُهر بالنار مرات ومرات حتى صار كالنصل قاسياً، حاداً، فابتعدت عنه تدريجياً مستسلمةً بعد أن طالها بعض الشرر من تلك النار... لكن أبداً لم تختفِ تلك اللمعة في عينيها حين تذكر أو تسمع إسمه حتى بعد هذه السنين، فأدركت أن أم مأمون ضحية أخرى لرجل... لم يكلف نفسه عناء النظر إلى ملامح وجهها الجميلة الهادئة، مكتفياً بها زوجة وأم أبنائة الثلاثة، الذين لم يعرهم أدنى إهتمام، فكبر مأمون ومؤتمن على صورة

أب يتسلل إلى البيت آخر الليل ورائحة غريبة تصحب مشيته المتعكزة المترنحة، وأم لا تملك من أمرها شيئاً سوى الصمت والدموع. أهملا الدراسة حتى إجتازهما أمين وكاظم، لينضما بعد ذلك إلى جماعة من المفسدين والمهربين، والآن كلاهما هارب من البلد بسبب الديون والمشاكل والمضاربات التي تلاحقهما.

حاول عبد الجبار حل مشاكلهما المتعلقة بالمال، إلا أن ولديه متورطان بأمور وتفاصيل معقدة، حتى المال لا يستطيع حلها، فالبعض لا يطالب إلا برأسيهما فما كان من عبد الجبار إلا أن يقف مكتوف الأيدي لا يملك حلاً لولديه الذين تجاوزا الحد.

ذات مرة حين كان يتحدث مستاءً عنهما، لمح ودون قصد مني نظرة في عيني، فتقهقرت دفاعاته، خافضاً صوته مسبلاً كتفيه ورمقني قائلاً «وفية... أرجوكِ... لا أطيق نظرتك هذه... حاولي أن تداريها عني... أعلم أني لا أقل بئساً ولؤماً عنهما... لكن كوني واثقة أن ظروفي كانت مختلفة تماماً عنهما... مختلفة تماماً... أنا الآن لا أُحمل الظروف سبب أخطائي وقسوتي... كوني واثقة أن تلك الظروف لم تكن بريئة ونظيفة اليد من خلق الرجل الذي أنا عليه الآن... وفية أعلم أنك ذكية،

وقد صقلت الحياة بتجاربها القاسية صخرة صبرك وعزيمتك، لذا أتمنى عليكِ أن تنظري إلى ما هو أبعد من القشور... أنا بانتظار ذلك اليوم الذي تستطيعين فيه الإصغاء إلي بقلبك حتى أستطيع أن أقص عليكِ بعضاً من حكاياتي... لا أطلب صفحك، إلا أني أطمع ببعض من تفهمك...».

لم أكن أظن أن الإنسان قابل للتغيير بالشكل الذي حصل مع عبد الجبار لاسيما في السنوات الأخيرة وقد تبين لي عبره، أن هناك بقعة ضوء حتى في الأرواح الأكثر عتمة تحتاج إلى نافذة، إلى سبيل لتنفذ منه وتتحرر، وعبد الجبار قد وجد تلك النافذة في روحه، وذلك السبيل إلى بعض من الضياء، محارباً أشباح عتمته المتربصة به.

«أوه عبد الجبار... عبد الجبار... أصبحت ترددين هذا الاسم كثيراً وتفكرين به... ماذا يجري لك وفية؟ أنسيت من هو عبد الجبار؟ أنسيت أنه سبب إبتعاد كاظم عنك واستيائه... هل أصاب ذاكرتك الخرف؟...أنسيت أنه كان علة كاظم لينتحر... ذلك اليوم المشؤوم حين لمحه كاظم من نافذة الحجرة... أوه ماذا عساني أن أقول أكثر سوى أنسيتِ حقاً كم توسلت به؟ كم ذرفت من دموع؟ حتى يتزوج بك ويجعل علاقته بك

شرعية... أنا لم أنسَ... لن أنسى إنسانيتك التي هدرتها وأنتِ تركعين قرب قدميه باكية متوسلة... تذكري... تذكري كيف سخر منك وهو يدفعك جانباً، وبصوت متذبذب أجش تفوح منه رائحة الخمر الكريهة (أمجنونة أنت؟... أنا أتزوجك!!... وأنتِ رهن إشارتي، ما الداعي لكل هذه التعقيدات... يبدو أنك نسيتِ من تكوني... لا أظن أنك بحاجة إلى أن أذكرك بمن أنت).

أظن أن هذا المقطع كافٍ لإنعاش ذاكرتك يا وفية أم...؟»

ولكن... هو بعد يومين من حديثي معه جاء بالشيخ الى البيت مع شاهدين وعقد لنا... أصبحت زوجـ... «ما باللكِ؟ ما باللكِ يا وفية لماذا لم تكملي نطق جملتك لماذا غصصتِ بحروفها؟ أعلم جيداً أين تحتفظين بعقد الزواج... أعلم كم مرة قرأتِ سطوره... حتى تصدقي ذلك... لكن عقلكِ وقلبكِ لم يصدقا تلك الحروف أو يقتنعا بها... لم تكن تلك الورقة كافية لتشعري أنك زوجته... لتقف حائلاً دون إجهاضكِ لطفلين آخرين... رغم معرفتكِ بمدى تشوقه بالحصول على طفل منك... وفية... ما كل هذا التناقض؟... تدافعين عنه وتجدين المبررات له، وفي الوقت ذاته تحرميه من أن يكون أباً لطفل منك... أنتِ رغم هذه السنوات لم تشعري بعد أنكِ زوجته... لاتزالين تخنقين

أنفاسكِ، تتشنجين كجذع نخلة يابس، تطول الدقائق عليك فتصير ساعات... وفية أستفيقي عزيزتي، أنا وأنتِ وحدنا فما من داع للمغالطة أكثر... أنتِ لم تتقبليه زوجاً لحد الآن... مهما حاولتِ أن تكوني طبيعية معه في تصرفاتك... هو يدرك جيداً ذلك الجدار الحاجز المرتفع بينكما، وكيف باءت فشلاً كل محاولاته في تحطيمه، مكتفياً بثقب صغير أوجده فيه بعد طول صبر، آملاً مع الوقت أن يصبح نافذة أو باباً إلى قلبك المحصن بالذكريات الأليمة وليال الشقاء الباردة. ترى هل ستفتحين باب صومعتك إليه؟... ألمح أحياناً في عينيك نظرة، أرتاب منها أو بالأحرى أخافها... أخاف حين أرى أن بعضاً من الجليد قد بدأ يذوب، راسماً في عينيك جدولا صغيراً من تفهم وشفقة وتعاطف... وفية لم أعد أفهمكِ... لم أعد أفهمكِ لاسيما هذه الليلة، لابد أنه تأثير الدواء، أنصحك بالراحة عزيزتي وعدم التفكير بعبد الجبار، دعي الزمن يقرر ذلك».

(ورمقت كاظم المتكئ برأسه على ذراعين يحوطانه كعش، من جهة وجهه الظاهرة تستطيع وفية أن تقرأ أسارير وجه إبنها الذي أخذ به النعاس في جيشه الجرار أسيراً مسلوب الإرادة، فغفا بهدوء تام بان على تلك الملامح التي تعشق

التطلع إليها، زغب الشعر على وجهه، ذقنه الحاد الجميل تلك النقرة الخفية التي نما عليها شعرٌ بنيٌ، أضفى عليه رجولة رقيقة فتية، سحنة وجهه الخمرية وقد لوحتها شمس البصرة، دامغة أياه كأحد أبنائها) .

أوه ولدي (وهي تحرك بخفة ورشاقة أطراف أناملها المتعبة خصلات شعره الناعمة) لقد فاتتني الكثير... إنسلخ ذلك الطفل الذي لاصقني فراشي وأحلامي. وحل محله هذا الشاب الساخط، الذي بت لا أراه إلا كل عدة أشهر، بحجة الدراسة والإمتحانات... كم أنا مشتاقة إليك ولدي... إلى تلك اليدين الصغيرتين وهما تسوران رقبتي، لتلك العيون المتلئلئة وهي تلاحقني... إشتقت إشتقت إليك ولدي... لا أملك سوى الدعاء والصبر لعلك تغفر لي أو تتفهم أسبابي... أنا يا كاظم... أنا يا كاظم (وتحشرج صوتها متهدجاً، فانخرطت في بكاء مر، اذ ليست هناك حروف أو كلمات تشفع لها أو تقف معها وهي تبرر له، تشرح له ما لمحته عيناه من خلف زجاج النافذة)... لا ألومك ولدي... لكن ماذا عساي أقول لك؟ ماذا عسي بأم أن تقول لابنها؟... إنها مقايضة روح أمام جسد... روحك يا كاظم... وجسدي المنتهك فأيهما أختار؟ سامحني ولدي أن لم

ولن أستطيع ان أفسر لك، إلا أني لا أطلب سوى صفحك... لست بالمرأة التي تظن... أنا أمك يا كاظم... أمك التي تقايض بأي شيء، وكل شيء لأجلك ولأجلك فقط، حتى وأن نزعتَ عني هالة الأمومة والطهر... فلن أدافع عن تفسي أمامك، لأحملك وزر أفعالي... الأمومة يا كاظم لغز، وشعور لا ينضبط تحت أي تفسير علمي أو منطقي... الأمومة يا ولدي هي سر بقاء هذا الكون قائماً لحد الآن.

وإرتدت بجذعها ساندة إياه إلى الوسادة بعد أن شعرت بتنمل يسري في أسفل ظهرها، لا تزال الدوخة تمسك برأسها وضعفٌ عامٌ في أوصالها، إلا أن روحها خفيفة لم يطلها هذا الدواء المخدر. تشعر بالغبطة تدغدغ حواسها رغم أنها مربوطة الى جهاز، على سرير ناتئ متعب يتأوة مع إي حركة في حجرة متقشفة مكتفية بجدران أكلت الرطوبة أطرافها ونسجت العناكب بيوتها في الأركان المغبرة، وإستمرت تحملق في كاشي الأرضية في محاولة لمعرفة لونه الأصلي أكان بيجياً أم حليبياً، فقد أخذت الأقدام والسنوات منه لونه ولمعانه لتتركه خشنا كالحاً، لا تستطيع مساحيق التنظيف أن تعيد له هيبته. حتى ذلك الموقد بشعلته الكسيرة الوحيدة،

والتي تكافح برودة الحجرة بصعوبة بالغة لم تؤثر على غبطة وفية، على ذلك الشعور المفرح. منذ بضع ساعات وحدهما هي وكاظم على مسافة قريبة كقرب كف لعين... تهدهد خصلات شعره، تمر بيدها على يديه ذراعيه وكتفه، تسمع صوت أنفاسه وبعضاً من شخير خفيف يتخلله، تستذكر سبب أثر الجرح الذي ركن إلى أسفل حاجبه الأيمن، عندما رمته زينب بإحدى العلب المعدنية، فجرحه طرفها، مسبباً دخول زينب في نوبة بكاء وهلع حين رأت قطرات الدم نازلة على وجهه لتستقر على كتف دشداشته، بقع حمراء صغيرة دفعت ثمنها على مدى أسبوعين أو أكثر من خدمة وتلبية لطلبات كاظم الذي بالغ فيها فارضاً سيطرته وسطوته على أخته الصغيرة... معشر الرجال ... يالمعشر الرجال كم هم طفيليون يشبون على حب إمرأة وتضحياتها ليكملوا دورة حياتهم على تضحية ولربما طموح أخرى... ولدي كاظم جل ما أتمناه أن أراك مستقراً راسماً حدود حياتك مؤطرها بإمرأة قادرة على قلع الحشائش وأشواك العاقول التي عسكرت في قلبك مانعة تسلل إي زهرة أو شجرة ياس.

لا تعلم يا كاظم أني قبل شهرين حين كنت في زيارة مرقد الإمامين الحسين والعباس (ع)، سرقت بضع ساعات من عبد الجبار، مختبئة منه بين الزحام متوجهة نحو بيت أختي نجلاء الذي لم يكن يبعد كثيراً عن المرقدين. وقفت على قرابة من الباب ملتفة بعباءتي السوداء وحجابي الذي يغطي جبهتي وكذلك الحاجبين، بقيت واقفة على مدى نصف ساعة أو أقل بقليل على أمل أن ألمحها هي أو أحداً من أبنائها خارجاً أو داخلاً إلى البيت، وتحقق لي ما كان... هي نجلاء أختي تتشح بالسواد، صارت أكثر سمنة عن ذي قبل، خيم الشحوب مفترشاً بساطه على وجهها وعينيها الغائرتين بحزن واضح كئيب، إختفت تلك الضحكة الرنانة التي لطالما نُهرت عليها من قبل أمي «عيب هيج تضحك البنيه». نادت بصوت متعب وهي تقف على عتبة بابها على فاطمة إبنتها مستعجلة إياها الخروج. لم أستطع أن أميزها لأول وهلة، كبرت تلك الصغيرة وتفتحت كزهرة جميلة، تلتفت نحوها الأنظار إعجاباً بجمال فطري يكاد أن يختفي مع وفرة مساحيق التجميل وإزديادها المطرد في الأسواق. تمنيتها أن تكون عروسك مثلما إتفقنا أنا وأمها حينما كنتما صغاراً «كاظم لفاطمة،

وفاطمة لكاظم...»، أتراك تذكرين ذلك الوعد يا أخيتي؟ وخاب ظني سريعاً حين لمحت خاتم الخطوبة الذهبي يلمع على بنصر يدها اليمنى... وهمست لنفسي شاكية معاتبة «يبدو أنها قد نسيت وعدنا وفرطت به». لوهله شعرت بالحقد على أختي، لكني تنبهت إلى نفسي متراجعة عن ذلك الشعور الذي ألمَ بي «ما ذنبها هي؟... نحن في عداد الأموات عندهم» شدة لمعان الخاتم وبريقه في يدها لم يثنني عن تمنيها عروساً لك، وتذكرت كيف تركتك عند والدتي صغيراً في عمر الأشهر لألحق بها في المستشفى بعد أن لازمتها آلام الطلق، وحالما وصلت إليها، كانت فاطمة قد أقبلت إلى الدنيا بصراخها وبحثها الدؤب بفمها، حضنتها بين ذراعي في محاولة لإسكاتها ومنح قليلٍ من الراحة لإمها... لكن أبنة خالتك لم تتوقف عن الصراخ، فما كان من حيلة لدي سوى أن أضمها تحت عباءتي وألقمها أحد مصادر غذائك، فتنبهت بعد فترة نجلاء التي كانت تمسك أسفل بطنها متوجعة إلى سبب هدوء إبنتها، واستحلفتني أن لا أعيد الكرة... مسكينة أختي لم تُرد أي عائق يقف في طريقكما «لا ترضعيها مرة أخرى يا أختي... لا أريدها أن تكون أختاً لكاظم بالرضاعة... لا

ترضعيها مره أخرى» سخر القدر من كل مخططاتنا مقهقهاً بضحكة مدوية مخيفة مرعبة، شتتنا كلاً في مكان. إستمررت المشي خلفهما لكن على مسافة، وأنا أحاول لف نفسي جيداً بالعباءة، سمعت بعضاً من حديثهما عن الخطبة والنيشان، يبدو أن خطوبتها حديثة عهد. إجتزنا الأسواق والمحلات فشعرت بضيق داخلي يجثم على صدري وأنا أتبع خطواتهما نحو المقبرة، وقبل أن تدخلا إشترتا من إحدى البسطات القريبة ماء الورد والبخور والشموع التي يشعلها الإحياء لتنير الدرب للأحباب في طريق رحلتهم الأبدية. إشتريت أنا أيضاً وقلبي يخفق متسائلاً من تراه يكون؟ أي حبيب غادرنا؟ تعثرت بعباءتي التي إلتقطت بطريقها الكثير والكثير من التراب في تلهف لمسقط رأسها وخاتم عمرها، «لا بد أن أوصي عبد الجبار... كيف فاتني؟ أريد... نعم أريد أن أدفن هنا، سأوصيه حالما أرجع»، كانت خطواتي مرتعشة تصلبت ركبتاي وانأ أحث طريقي خلفهما متدارية بين القبور المتجاورة المتداخلة، وولولة ونحيب نساء متشحات بالسواد، يصببن ماء الورد على قبور أحبتهن مع تلاوة سور وآيات من القران الكريم، ظناً

منهن أن ماء الورد برائحته الزكية سيفرج قليلاً من وحشة القبر وضيقه، ويبعث الاطمئنان في نفوس أحبتهم.

وقفتا تتلوان سورة الفاتحة، ناشرتي اليدين متذرعتين إلى القدير بالرحمة والمغفرة لإرواح القبور الثلاثة المتشابكة ببعض، حتى لا تضل أصحابها أو تفترق، وليعتني بعضهم ببعض هناك، فنجلاء لن تأمن على إبنها حسن الشاب الذي لم يتجاوز العقد الثاني من عمره، بعد أن إقتنصته رصاصة جندي أمريكي إلا مع والديها. تفتقت في قلبي الأحزان التي كنت أرتقها باستمرار لئلا أغرق باحدى أمواجها العالية الغاضبة، إلا أني في تلك اللحظات إستسلمت للمد، رميت المجداف لأغرق... أغرق، مشتهية أن أتمدد بينهم في قبر رابع، أشاركهم موتاً بدلاً عن حياة حرمتني وصلهم، غمرتني موجة بكاء عارمة فتواريت خلف أحد القبور، تحت عباءتي، ولم أتنبه وهما تخطوان بعيداً، بعد أن أوقدتا الشموع عند رأس كل قبر، ورائحة ماء الورد قد بعثت بشذاها في الأجواء. أوقدت شموعي ورششت ماء ورد آخر وتلوت سورة الفاتحة على أرواحهم، متسائلة من تراه سيوقد تلك الشمعة التي ستؤنس وحشتي في طريقي اليك يا الله؟... أعلم ان اللقاء

سيكون...، أدرك أنك ستشيح بوجهك عني رافضاً سماعي، في حضرتك لن أبرر أو أفسر، تلك الغريزة وذلك الحب أنت من زرعه فينا. لا أملك أن أعتذر أو أندم على ما فعلته... فلأجل كاظم... ولدي أقبع في درك العاصين والمضللين... ربي أنا آمل بصفحك ومغفرتك... لتلك الذنوب التي تؤرق ليلي... أعلم أن باب التوبة مفتوح، لكن كيف أمر منه أو أقترب من عتبته... لا أستطيع أن أتوب عن حبي لكاظم، عن شراستي في الدفاع لأجله... لن أكذب في حضرتك... ماذا عساي أن أقول؟ فأنا لا أستطيع أن أسترجع حياة أو أستردها لأرواح أزهقتها على يدي، بكامل إرادتي، خوفي، وإضطرابي، حقدي ويأسي، قسوتي وعصياني، معارضتي لإرادتك، عنادي مع قدر لم أرضَ به، عتبي الدائم وسؤالي المتواصل: لماذا نحن يا الله؟... لماذا نحن يا الله؟ لا يصح أن أعترض؟ لكن هذا السؤال ينام وينهض معي، أستغفرُ، أُكثر من الأستغفار، فأحياناً كثيرة ودون أن أعي الى نفسي، أجد لساني يلهث بهذا السؤال، ألعن الشيطان وأبصق عليه ثلاث مرات عبر كتفي الأيسر، الشيطان الذي إعتاد على البصاق واللعن، هازئاً ساخراً مني.

دهش عبد الجبار من منظرعينيّ المتورمتين الحمراوتين، ومن عباءتي التي حملت معها نصف تراب المقبرة، دلفت الى الحمام بسرعة أغتسل من التراب أنا وعباءتي متحاشية سؤاله الذي قرأته في عينيه حالما خرجت من الحمام:

- أين إختفيتِ؟... خشيت أن تضيعي وسط الزحام.

كان صادقا في كلامه، عيناه كانتا تحملان الكثير من القلق.

- نعم لقد توغلت في الاسواق والطرقات الفرعية حتى فقدت طريق العودة، كنت أبحث عن قماش جديد لستائرغرفة الاستقبال... وكربلاء فيها محلات تختص بهذا النوع من القماش

- وهل وجدته...؟! ما كان عليك أن تذهبي وحدك!

- الحمد لله وجدت اللون الذي أنشده.

وأخرجت قطعة من القماش القديفة الناشفة، لازوردية اللون من الكيس وقربتها نحوه، فأبدا إعجابه بنوع القماش واللون.

- أنتِ يا وفية كاملة... والكامل الله.

تحشرج صوته خجلاً وهو ينطق هذه الكلمات، متطلعاً في وجهها تارة وفي القماش تارة أخرى مدارياً إرتباكه. لم تتفوه وفية ولا حتى بكلمة شكر وأخذت الكيس من يديه الى حقيبة

الملابس ففي الغد موعد عودتهما الى البيت الذي تركاه منذ يومين بعهدة كاظم، بعد أن حضرت كل ما يحتاجه هو وأمين من طعام، ورصته في قدور وزجاجات داخل الثلاجة. لا يطيب لوفية ترك البيت، إلا حين يلح قلبها بالنداء لزيارة المراقد والتبرك بتلك الاجواء الروحانية، فينزاح عن كتفها بعضٌ من الحمل، آملة برب كريم، يصفح بشفاعة الأولياء المعصومين. عبد الجبار رغم عدم تدينه إلا أن حبه لأهل بيت رسول الله لاشك فيه ولا خدش، وحين تطلب منه وفية أن يذهبا الى الزيارة لا يمانع أبداً حتى لو كان في خضم أو معمعة ألف عمل وإنشغال. يطيب له ان يرى الأنشراح يكلل قلبها ويسور العيون الجوزية بابتسامة طفولية عذبة، قلما يراها... ويبيع روحه ربما لأجلها.

لم تعد تعبأ بمشاعر أو حتى حب أي رجل، بعد سلسلة رجال أو بالأحرى أشباه رجال مروا على حياتها، دنسوا كل شبر فيها من أول شرطي بالتوقيف لآخر ضابط في السجن، لتختم أخيراً تلك السلسلة بعبد الجبار فعذراً أن طفح قلبها وذكرياتها من أولئك الذين إستغلوها ليثبتوا رجولة دنيئة وغريزة حيوانية

شرهة لا تشبع إلا وهي تلوك تحت أضراسها حلم وكرامة امرأة.

بصوت هادئ وخطوات متئدة دخلت عليهما الممرضة لأجل الإطمئنان على صحة المريضة قائلة:

- جيد... لقد صحوت... أول المساء عندما قدمتُ الى هنا كنت تغطين في نوم عميق... الحمد لله. يبدو أن أمورك أحسن.

- الحمد لله.

- كان إبنك قلقاً عليكِ... لكن يبدو أنه قد نام هو أيضاً.

- نعم... وهمست لنفسها مغمغمة (كاظم... ولدي الحبيب)

- لقد نصحته أن ينام على هذا السرير المجاور... إلا أنه على ما يبدو لا يريد فراقك أو الابتعاد عنك، ربي يحفظكما لبعض.

- ويحفظ لك أهلك جميعاً.

وهمت خارجة بعد أن تفحصت جهاز القلب وسلك المغذي الموصل الى يد وفية.

تراجعت في جلستها مسندة ظهرها الى الوسادة وممددة ساقيها ببطء وهدوء لئلا توقظ كاظم من أحلامه، تنبهت الى أنين الساعة لاتزال العقارب تراوح عند الثانية عشر ليلاً. بحثت عن بقايا نعاس بين جنبات جفونها فلم تجد، العقل واع تماماً

ليخيط من الذكريات ثوباً يلبسه على عري الجروح. تحملق في السقف والجدران وتعد من الواحد الى المائة... المائة ذاك الرقم السحري الذي عبره تنجو الرغبات والأحلام. فعدت عشرات المئات آملة في إحداها أن تغفو مرة أخرى، أن تهرب من الذكريات وطرقها المتعرجة، الموحلة في أغلب المرات، إلا أن هناك حتماً بعض الأزقة التي لاتزال تنفح برائحة الشاي المهيل والخبز الحار، حين تجرها نجلاء الى أحد الأسواق بحجة شراء بعض المستلزمات فيتبعهما طوال الطريق شاب وسيم، حنطي البشره، كشراع قارب بدشداشته البيضاء اللامعة «نجلاء... نجلاء هذا الولد يتبعنا منذ فترة... نجلاء» ونجلاء ساكتة تكتم ضحكة تشدقت على فمها وترد عليّ بأقتضاب «دعيه وشأنه... هل الشارع ملكِكِ؟» «ولكن يا أختي...؟!»، ولم تفسح لي بالتفوه بكلمة وأفسحت له المجال أن يسير بمحاذاتها وتسمع همسه وكلمات الشوق والغزل التي تطاير بعضٌ منها الى أذني دونما قصد. خرجنا من السوق، أصبحت الضوضاء والإزدحام أقل، لكننا لم نسلك الطريق نفسه الى بيتنا فنبهت نجلاء التي كانت غارقة لأذنيها في لجة كلماته المعسولة «نجلاء... هذا ليس طريق البيت!!» لم تجب عن

سؤالي وأخذتني خطواتي معهما الى متنزه صغير ينأى بعشاقه عن أعين المارة والفضوليين.

كنت أتصبب من حر الخجل والإحراج وأنأ أكزها بكوعي رفضاً واستياءً «لِمَ لم تخبريني؟... أنت قلت الى السوق»، واستمرت دمدمتي وتحاملي عليها لأنها كذبت عليّ. وعلى إحدى المساطب المركونة بعيداً تحت شجرة السدر جلسنا، الكل في هذا المكان يحترم خصوصية الآخر، المكان هادئ إلا من لوعة المحبين وأشواقهم. جلست عند ركن المسطبة مشيحة بظهري ووجهي عنهما، أفكر بطريقة أثأر بها من نجلاء التي توردت خدودها، ونما الكرز على شفتيها اللتين أسفرتا عن صفين من حبوب الطلع. لم أسمع منها سوى همسات تخنقها إبتسامات وضحكات صغيرة خجول، يبدو أنها المرة الاولى، لكن كيف ومتى وأين تعرفت على هذا الشاب؟ الذي جلس على مسافة نصف متر أو أكثر قليلاً عنها، أهو أحد الجيران؟... لا.. لو كان من شباب المنطقة لميزته حالاً، فأمثاله يصعب غض البصر عنهم أو إدعاء عدم النظر والاهتمام. هذه الملعونة أين إلتقت به وكيف؟ حينها سخرت من نفسي، ما كل هذا الفضول؟ أهي غيرة من أختك؟

أغار؟!... لا أنا حتماً لا أغار... كنت صغيرة ويخشى قلبي الفطام من ذلك العالم السحري البريء الطافح بحكايات الجان على حكايا الحب والمحبين. قرابة ساعة كنت أفور وأغلي في مكاني على أمل أن ينتهي ذلك اللقاء المحموم بالمشاعر، وعند منتصف المسافة الى البيت إفترق الحبيبان، وأكملت نجلاء الطريق معي صامتة، لم تصغ أو تلق بالاً لأي من شكواي أو تذمري من صنيعها وعواقب أن يلمحها أبي، إخوتي أو أحدٌ من معارفنا والجيران. حسدتها على الجرأة التي تميز شخصيتها وتزيدها قوة وبأساً، تلك الجرأة... الجرأة التي خولتها اللقاء به أكثر من مرة في المتنزه نفسه وعلى المسطبة ذاتها إن كانت غير مشغولة بعشاق آخرين، الفارق الوحيد هو قلة تذمري وإستيائي عن المرة الاولى، متزينة بالصبر قلادة وبالأدعية والتضرعات أحمر شفاه على فمي، بينما تسير نجلاء أمامي واثقة الخطى جميلة، تعبق برائحة الياسمين والفل عباءتها السوداء البراقة.

لم تكد تنتهي السنة إلا ونجلاء عروسٌ تذرف الدموع حين ودعتنا تاركة مسقط رأسها الى مسقط فؤادها، الذي رفضت لإجله في مرات عدة طلب أبي وكل محاولاته في إقناعها

للزواج من جواد إبن عمتنا، وحيد أمه، الراغبة بشدة بواحدة منا زوجة له، تأتمنها على إبنها المدلل، فوقع الخيار عليّ، بل كان خيار أبي وعمتي الأخير، لم تشجعني نجلاء على الموافقة بل على العكس «أنتِ غير ملزمة يا أختي بالزواج من هذا أبن عمتنا المعقد والمدلل، لا تزالين صغيرة فلمَ التسرع دعكِ من أبي ورغبته... وفية عزيزتي لا أظنه مناسباً لك... فكري رجاء» حينها لم أود التفكير أو التأني في قراري رغم كل إستغاثات القلب الذي كُلم حديثاً. من ذلك اليوم أغلقت باب القلب، مؤمنة أن بعض القلوب لا يُجبر كسرها وتصبح غير صالحة لإحتواء أي حب آخر. وبالطبع أنا لم أصادف ذلك الحب الآخر حتى أختبر قلبي أو ألومه على نضحه وعدم الحفاظ عليه. جواد هو أيضاً أغلق بابه في وجهي مكتفياً بي كنة لأمه، التي أصرت على زواجه من إحدانا بدلاً عن تلك التي إختارها قلبه. فالتقى القلبان المكلومان تحت خيمة الزواج التي عصف بها إختلاف طباعنا وأمزجتنا وحتى رغباتنا، لكنك يا كاظم كنت الوتد الذي أمسكها وضبط إيقاع دقات قلبينا المتنافرين في ترنيمة صغيرة إسمها الأبوة، الأبوة التي جمعتنا للمرة الاولى على حب مشترك ألا وهو حبنا لك يا كاظم.

تنسج حكايا الأمس باليوم في حصيرة مختلفة الألوان بين الزهرية والرمادية وأخرى سوداء تتدرج، ومن خوص نخيل كربلاء تارة والسماوه تارة أخرى تنقع الحكايات في أصباغها وتعود لتحيكها مع بعض في متوالية غريبة لا تتبع منهجاً أو منطقاً محدداً. تترك لقلبها ونزواته أن يرتبها قرب بعض حسب إرتفاع أو إنخفاض وتيرة دقاته.

ركبنا البلم العشاري وكانت فرحتي كبيرة وأنا أداعب وجه الماء بيدي، ورائحة شط العرب، وقت العصر بعد أن أخذت الشمس إستراحة من حراسته، تحملها نسمات هواء رطبة دافئة لكن لطيفة ملأت فؤادي قبل أنفي. أخيراً تحققت رغبتي في نزهة بالبلم العشاري بعد أن أدهشتني مشاهدته في التلفزيون وهو يمخر عباب شط العرب فتتطاير ذرات مائه على وجهي وعباءتي. عندما دعانا أحد أصدقائه في الجيش الى حفل زواجه، حاول جواد التملص من تلك الدعوة، لكن أبداً لم يتقبل ذلك الصديق أي رفض أو عذر، مؤكداً على جواد أن يصطحبني معه. وكان أن حطت بنا الحافلة الكبيرة في كراج ساحة سعد، حيث صديقه البصري في إنتظارنا يتوارى من الشمس التي تلاحق خطواته دون كلل في لعبة ظل

وضوء، تفوز فيها على الدوام، مانحة إياه هويته البصرية المعروفة. إستقبلنا بحفاوة وكرم جنوبي مميز كتمر برحيها، الذي لم يفته أن يرص لنا بعضاً منه في زنبيل كهدية مع أصناف وعطور لاذعة لبهارات وإعشاب مختلفة لا تجدها إلا في البصرة.

ولجنا سوق العشار الذي سقفت سماؤه في أجزاء كثيرة، طرق فرعية، ملابس ومعروضات مختلفة ومتنوعة إنبهرت عينيّ بكثرتها إلا أن جواداً كان كريماً وعرف بالضبط مايشتري لي. في هاذين اليومين كان قريباً مني، يرمقني بنظرات مختلفة حنون حتى أني خلته شخصاً آخر، أولاني إهتمامه ووهبني من الدلال وكأنه يوم عرسي، خفق قلبي له بعد أن حسبته قد أمسى آلة صماء لنقل الدم، لا تخالطها أية مشاعر أو أحاسيس. تمنيت لو نبقى في البصرة يبدو أن نسائمها الحارة قد أذابت الجليد من على رؤوس مشاعره ووجدانه، وصار طيع القلب ليناً في يومين عددتهما شهر عسل حقيقي، لم أحظ به قط.

عدنا من البصرة محملين بالهدايا وأكياس حناء الفاو الجيدة النوع، وحلاوة نهر خوز التي لا تهدى إلا للمقربين والأحباب. ودعت البصرة ومقلتايّ محاصرتان بدموع لم تجف على

وجهي، خزنت ذاكرتي صورها الجميلة كمؤنة لأيام العوز والفاقة، أكنت أعلم أن أكثر سنين حياتي عجاف؟! لو كنت أعلم لخزنت الكثير من المؤن... لكن من أين آتي بالمؤن وفراشي بارد طيلة أشهر السنة؟! فجواد إما يحرس حدود الوطن ويطمئن على سلامتها من صقيع الأعادي أو يقضي الليل مع آخر نجمة تطل عليه من باب دكانه، يحصي، يجمع، ويطرح على نغمات أم كلثوم وهي تصدح «هو صحيح الهوى غلاب... ماعرفش أنا». كان البيت فندقاً له يأتيه متسللاً قبيل الفجر، صوت المفتاح يدور مرتبكاً في قفله ينسل الى طرف الفراش بهدوء، فقد حفظتْ خطواته ظلمة الغرفة ووحشتها، يغط في نوم عميق مصحوب بموشحات وأنغام متعددة، وكأنه يعوض عن صمته وهدوئه في صحوه. من أين آتي بالمؤن وقد قضيت معظم أيامي بين المطبخ وغرفة الخياطة؟ ساعة أنكبُ على الخضار والقدور والحلل وساعات على الماكنة والأقمشة التي تشبه البشر، منها السهل البسيط القابل للقص وتخطو أبرة الماكنة عليه بيسر، ومنها الرقيق الحساس الذي ترتجف عليه الأصابع حين تمتد بالمقص نحوه، وفيها الخشن القاسي الذي تلهث خلفه الماكنة بحثاً عن طريق أو سبيل نجاة.

وحتى يوم جاء أبي الى بيتنا ليزف لي خبر قبولي معلمة في أحدى المدارس القريبة من البيت، إستقبل جواد هذه البشارة راعداً رابداً بألف عذر وحجة كأنه مهرج السرك الذي يخرج تارة أرنباً من تحت إبطه وتارة حمامة من خلف أذنه. إنهالت عليّ أعذاره ومخاوفه من عملي وما سيجره عليّ من مشاق التوفيق بينه وبين أعمال المنزل والعناية بالأطفال، ومعاكسات الطريق التي سأتعثر بها وكأني أول امرأة تسير في الشارع، أعذار لا حصر لها، وحجج يستلها من تحت الأرض، كما يقولون. إدعى أنه يغار علي، لا يحب أن يلمحُ أحدٌ حتى خيالي، وكان هذا العذر أكثرهم إدهاشاً لي لأنني أعرف تماماً أن الغيرة أحد أركان الحب، فكيف يقف الركن دون عموده؟! بالطبع لم أصدق هذه الذريعة، إلا أني أدركت مع مرور الوقت أنه بالفعل يغار لكن ليس عليّ وإنما مني... أزعجني هذا الخاطر في البداية... حتى إكتشفت صدق إحساسي بأنه فعلاً يغار مني... لن يحتمل أن يلقى الضوء عليّ حتى ولو من شمعة صغيرة. أبدى عدم موافقته ورفضه غير الصريحين من خلال تركه البيت عدة أيام، خلالها لم أكمل أوراق ومعاملات تعييني وضيعت على نفسي فرصة إمساك الحلم بعد أن دخل

الى قفص الحقيقة، الحلم الذي قض مضجع جواد ولم يطمئن باله حتى طار بعيداً، فبعض الأحلام عزيزة نفس، لا تطيل الطرق على باب الأمنيات، لتعود من حيث أتت، وهكذا حلمي بأن أكون معلمة ذهب من حيث أتى.

وبخني أهلي كثيراً على عدم إقتناص فرصة كهذه، ووعدني أبي أن يقنع جواد الذي لم يملك الشجاعة ليقول لا أمام أبي، لكني أفهمه جيداً، أفهم مراوغته وعدم وضوحه فيما يبغيه. لامتني نجلاء على التضحية الجديدة هذه «هل ستعيشين في ظله أبد الدهر؟»، حينها لم أعرف بماذا أرد عليها، لأنني حقيقة لا أفهم لِمَ تخليت عن حلمي لأجله؟ ألأجل كسب رضاه؟ هل ترى أن سهم الحب قد ضل طريقه وأصاب قلبي بالصدفة؟ ما هذه الترهات... لقد فوتنا على أنفسنا الموعد مع الحب وما تبقى بيننا لا يعدو أكثر من عشرة وتعود، لاسيما بعد أن عاد وهج الحب ودفئه لقلبه ثانية على يد المرأة التي أشعلته فيه في أول مرة.

غمغمت مع نفسي وأنا أستمع الى محاضرة نجلاء وتوبيخها الذي تعطيني إياه مجاناً دون طلب مني «إطمئني أختي أنا لن أعبث بما أملكه من كرامة حتى أتوسل حبه أو ألفت إنتباهه

لي، كل ما أبغيه أن لا يكون كاظم جواداً آخر، وإن يتربى وسط أب وأم، سأقف عثرة في وجه التاريخ الذي لا هم له سوى إجترار الماضي ورسم خارطة الحاضر بمقياس رسم الماضي، لتعود من جديد عمتي أم جواد بملابس وهيأة وفية... لا لن أسمح له أن يعيد الكرة، لن أكون كريمة، ولن يصبح كاظم ولدي كجواد إبن كريمة».

الليل طويل وهفيف نسائمه الباردة خارجاً تُلوح لوفية من النافذة الصغيرة، سامحة للبعض منها بإلقاء التحية عليها عن قرب بلسع وجنتيها الشاحبتين، تماماً كما كانت تفعل نسائم بادية السماوة بنزيلاتها المرهقات اللواتي هدهن شظف العيش في السجن، وإنتهاك أجساد وِشِمَ الكثير منها بأعقاب السكائر، وبكدمات مختلفة الحجم والألوان، تتراوح بين الازرق المحمر الى البني الرمادي. حارت الدكتورة إيمان في كيفية التخفيف منها فكانت كمادات الماء الدافئ هي وسيلتها أو بالأحرى وصفتها الوحيدة للنزيلات.

توسلت أمها بالحاح كبير في أن تقنع أباها وإخوتها بالموافقة على إبن الجيران الرائد عمار. تردد والدها وإخوتها في الموافقة على ضابط عسكري في جيش النظام الذي يبغضونه،

وما يرثه أغلب الضباط من سمعة. إلا أنها أصرت مدافعة عن حب حياتها وعيناها متورمتان من شدة البكاء وهي تستجدي أمها عند قدميها، تلتمس رحمتها وتعاطفها «ليس كل الضباط ماعدهم أخلاق وشرف... عمار غير». لم تخبر أمها أن زهرة صباها تفتحت على يد عمار، وإن كل الأطباء الذين تقدموا لخطبتها أو فكروا بذلك لا يعدون أي شيء مقابل نظرة من عينيه الدافئتين اللتين نضجت عليها مشاعر وعواطف المراهقة إيمان حتى صارت الدكتورة إيمان... لا يزال لسانها يرتجف تتساقط حروف إسمه مرتبكة، يغشى عينيها ظلال دمعة خفيف حين تقول عمار. خاضت حربا ضروساً مع إخوتها الذين أجتمعوا على كلمة واحدة وقالوا لأبيها «لا... ضابط ما ينفع أختنا»، لتستمر الحرب الباردة بين رفض وقبول وتأنٍ الى أكثر من أربع سنوات، خطبها خلالها ست مرات، ست مرات يذهب الى أهلها بكبار الرجال من شيوخ العشائر ورجال الدين ووجهاء المنطقة ولا يحملون في أكفهم وهم خارجون سوى بضع وعود وكلمات باردة تحمل بين ثناياها عدة وجوه ومضامين «يصير خير على ما تتخرج البنيه». ولبست ثوب التخرج الأسود ذا الأشرطة الحمراء

الساتان اللامعة، وطيرنا القبعات السوداء في الفضاء لتأخذ أحلامنا وأمالنا بعيداً، ولم يكن لدي من حلم سوى أن أظفر بعمار الى جنب شهادة الطب التي بذلت لها ما إدخرته من جهد مهول لا يوصف. وكان الجواب «تحتاج الى الوقت لتثبت نفسها كطبيبة»، وجرت أيام السنة نفسها جراً بين مستشفيات المحافظة، وأنا أسحب نفسي متعبة قلقة من أعذار ومبررات قادمة جديدة، فقدت من وزني الكثير وبدا عليّ الهزال، لم يرق لي أكل المستشفى ومشاركة المرضى طعامهم فاكتفيت بقطع البسكويت في مرات كثيرة. كانت ساعات الدوام مرهقة طويلة ملآى بالمفاجآت لاسيما في ردهة الطوارئ التي تغص ليلاً بحالات وأعراض غريبة تستحق التدوين والحفظ، ما تعلمته في تلك السنة وأنا أشبه بناعور يدور دون هدى في فضاء مترام بين ردهات المستشفيات عادل أو ربما تفوق على تلك السنين الست، حالات وأمراض لم تمر عليّ في مجلدات الكتب والدوريات الطبية، فللعراق أمراضه الخاصة التي فرضتها الحروب. تعاملت مع أناس من شتى الطبقات، لهجات وأزياء مختلفة، الأفكار والمعتقدات تباينت كتباين المرضى والأمراض. نحول جسمي وإهتمامي المقل بمظهري، أكدا

لأبي وإخوتي إنغماسي في العمل وإجادته كطبيبة، فتشجع عمار بعد نهاية العام على رفع عريضة الطلب لأهلي مرة أخرى، ذلك الطلب الذي غطاه غبار التردد، ومد وجزر أمزجة أخوتي الجنود مكرسين حقدهم في شخص عمار، الذي تحمل تبعات عثرات وطن فارسه دكتاتور، وأخوة إستنفدوا كل الأعذار والبغض للضباط وحياة الجيش، لكن أخيراً وبعد المداولات المطولة والشروط الكثيرة صدر إعلان ببراءة الضابط عمار من التهم الموجهة اليه، وتوجَ بنصرُ يدي اليمنى بخاتم الخطوبة الذي رافقتنا أمي لشرائه من صائغ عائلتنا، الذي تحمس للغاية في مشاركتنا الرأي باختيار خاتم عملي جميل يبقى معي أبد العمر يا وفية. (وحسرت عينيها نحو إصبعها، متحسسة بيدها الأخرى مكانه. هي لا تعلم في أي زنزانة تعذيب أو حجرة مظلمة إنسل من أصبعها ليتركه فارغاً كقلبها).

هل تعتقدين يا وفية أنه قد بحث عني بين المعسكرات والسجون أم خجل مني؟ هل سأل رؤساءه الضباط أم أستنكف أن يسأل عن خطيبته التي سحلها الجيش من المستشفى إثناء الدوام على مرأى جمع غفير من المرضى والأطباء

والموظفين، بتهمة خيانة الوطن ومساعدة الجرحى المناوئين والمتواطئين مع قوى خارجية أشعلت فتيلة إنتفاضة قادها شعب قد أرهقته الحروب المتتالية، قتلت الأمل فيه بالخلاص الذي كانوا على أعتابه، حين تشتت الجيش وتاه في الصحراء بعد أن حصده طيران الأمريكان، فمات من مات وهرب من هرب بملابس ودشاديش مدنية إستعارها من الاهالي. كان الخلاص وشيكاً، بعد أن أعلنت أغلب محافظات الجنوب تحررها وهروب رجالات الحكم فيها أو قتلهم على يد المنتفضين، الذين فيما بعد أزكمت رائحة رفاتهم أنوف الشوارع حتى عافها الكلاب ملقاة في الساحات والدروب، التي عجت مختنقة بجيش الحرس.. قساة دكوا بلا هوادة المدن والآمنين حتى أمست الحدود هي الملاذ الأخير.

أتراه فعلاً يا وفية إستنكف أن يسأل عني؟! أن يسأل عن خطيبته؟ أن يبحث عنها بين أشلاء الجثث والأكياس السوداء، في مكب النفايات، بين النساء المنتهكات في دهاليز الظلمة والقهر. أتراه سمع نحيبي؟ صوت صراخي المكتوم في زنزانة تحت الارض باردة تفوح منها رائحة القبح والدم، رائحة القهر والألم؟ أتراه لمح ملابسي المقطعة المشقوقة عند

الصدر والكتف؟ شعري المنكوش الذي يبس الدم والعرق عليه؟ هل شاهد الكدمات والجروح التي زرعت على جسد لم تمسه يد من قبل ولا حتى يده؟

أسئلة كثيرة تراودني يا وفية، تقلق راحتي وتهز وجداني رغم أن الأمر قد إنتهى، وها أنا أنتظر معكن في هذا السجن الصحراوي، المنفى الانساني، ننتظر دورنا الى رحلتنا الأخيرة، جميعنا قد حجز كرسياً، وأعد عدته، نحن فقط بانتظار سماع جرس الإنطلاق، وقلبي يحدثني يا وفية أنه قريب... لقد خذلتنا أجسادنا، طمست آخر وهج رقيق في أرواحنا. آه... لو تعلمين كم أكره نفسي، كم أكره هذا العظم وهذا الجلد... كم أتوق الى حريتي، الى روح سقفها السماء، الى خلاص من هذا الجسد الموصوم بالعار... وفية أتوق للغاية الى ذلك اليوم... الى غسل عار أبي وإخوتي... لقد فقدت كل شيء... كل شيء لحظة فقدت... (وإنخرطت في بكاء مر، كل سكر العالم لا يفلح في تحسين طعمه)، الرحمة على روحك الطيبة يا دكتوره إيمان (لمعت دمعة على طرف عينيها إستقرت عند الرمش ثم سقطت نازلة لتفسح المكان أمام تدافع دموع أخرى، لا تسعهن مقلة العين ولا حتى القلب)...

ما بالي أنا في ليلة كهذه؟! هل أقسمت عليّ أن ترج بركة الذاكرة؟ أن تخضها بالعصا؟ أن تقلب عاليها أسفلها؟ أن تثير نقيق الضفادع في موال ليلي متناغم حزين؟ ضجيج الذاكرة يصدح في رأسي مؤلباً مشاعر ووجوهاً ظننتها قد إختفت أو تلاشى بعضٌ من ملامحها، لكن يبدو أنها كأبي الهول ثابتة لا تؤثر عليها عوامل التعرية والعمر، فلا ترسو على وجوههم التجاعيد أوتصبغ شعر رؤوسهم بغيوم رمادية بيضاء. يا لهذه الذاكرة!! صور... جميلة تلك الصور التي لا تمتد لها يد الزمن بألوانه الشاحبة المنتهية الصلاحية (وتسمرت عيناها على الساعة المحكومة بالوقوف أبداَ على حائط هزيل، لتحمل عقارب كسولة ناعسة تجر بعضها بعضاً في دقائق هي أطول من الساعات... حملقت بهما وكأنها تحثهم وتتوسلهم على المواصلة بقطع ظلام هذه الليلة والوصول الى عتبة فجر جديد).

كانت إصابتها في أعلى الكتف... لم تكن خطرة... وكم توسلتها على الخروج معنا من تلك الحفرة لكنها رفضت بشدة، وكأنها كانت على موعد مع حبيب إنتظرته طويلاً. إبتسمت كمن بلغ منتهاه وقالت باقتضاب «دعكِ مني يا وفية... لا

تنظري الى الوراء... وفية عيشي لأجل إبنك وأشعلي شمعة لأرواحنا على نية السلامة والتوفيق». كانت ممددة، يعلو التراب القسم الأكبر منها «دكتوره جرحك خفيف تعالي معنا نختبر الموت مرة أخرى أو ننجو ثانية». أصرت على موقفها وهي تبعدني بيدها حين حاولت إنهاضها وتستحثني على الإسراع خوفاً من قدومهم ثانية «إستعجلي يا وفية، وأخرجي مع إبنك قبل أن تغرق الظلمة طريق النجاة عليكِ... هيا أخرجي... هيا». إبتعدت عنها متلفتة خلفي، وصريخ إستغاثته البريء، غمغمته وهمهمته الخائفة لا تزال تطارد سكون ليلي، تخرمش بأظافر من حديد وجداناً تحطم كآنية زجاجية فوق إسفلت الشرف المراق والكرامة المهدورة. أوه... يا ولدي كم أتمنى يا كاظم ،أن تترك ذلك الماضي خلفك... أن تحب فتاة تمسح على قلبك بكف من حرير، أن تداوي جرحا سكينه كانت تضحية أمك وحبها الشديد لك، أن تفتح بيتاً لا يزوره ولا يطرق بابه إلا الفرح والسلام، السلام الذي إفتقدته أرواحنا منذ زمن طويل وقد آن لنا أن نقتنصه حتى ولو حاول الفرار أو التلاشي كعطر رخيص قليل الثبات.

وحركت أناملها برقة ورفق على خصلات شعره التي طالما أغرتها بتمرير يديها عليها منذ أن كان وليداً صغيراً، وشم رائحة الشامبو المنبعث منها. ثم أسندت رأسها وكتفيها الى الوسادة لعلها تريح وتهدئ ثورة الفكر والذكريات التي تجتاح رأسها وقلبها المتعب من زيادة وإفراط في عدد خفقاته، كأنه هو الآخر يستعجل عليها الخطوات والأيام والسنوات التي قضتها على أمل ان يشتد عود كاظم الضئيل ليصارع عود الحياة الثخين القاسي، وأن يعتني بدوره بأخيه الذي ولده لها رحم الأيام لا رحمها... أمين... الذي يهز وجدانها حين يناديها «ماما وفية» بعينين طافحتين بحنان وتقدير إفتقدتهما في عيني كاظم اللتين إكفهرتا بمزن ثقيلة ولم تمطران بعد.

حاولت أن تغفو وعدت من واحد الى المائة مراراً، حسبت الشقوق الشعرية في السقف، تابعت عقارب الساعة، تنهرها وتحثها لائمة تكاسلها أو بالأحرى حاسدة إياها على خدارها وثقل نومها. نام كل شيء حولها، حتى نسمات الهواء الباردة توقفت عن المرور على خدها لاسعة. كاظم متراخٍ برأسه ويديه على الفراش قربها يصدر منه بين الحين والآخر شخير خافت، الأصوات في الممر إنقطعت تماماً عن التسلل عبر

عتبة الباب الى أذنيها، لا صوت مريض في الخارج يطلب النجدة، أو حتى ولولة وصراخ لأجل فقدان عزيز أو قريب، ولامت نفسها على هذا الخاطر السخيف، معللة ذلك «حتماً أن حمى السكون والليل هي من تشوش على خاطري وفكري». فتعوذت من الشيطان ثلاث مرات باصقة إياه من على كتفها الايسر بلعاب ناشف، هي منذ صلاة الظهر لم يدخل الى جوفها شيء، كانت تستعد لتجهيز الطعام لهم الثلاثة، «لا أذكر بعد ذلك أي شيء، وكأني دخلت في نفق مظلم طويل، وخيالات وصدى أصوات تحاصرني بالأسئلة، طالبة مني العودة، بالربت على خدي ومناداتي، لساني ثقيل بقي ساكناً في جوفه، لم يسعفني حين حاولت أن أرد عليهم... لكني لا أزال أذكر صوت عبد الجبار المرتعش الخائف وهو يحاول إيقاظي». كانت شبه مغمية عليها عندما أقلها بسيارته الى المستشفى وها هي الآن تسترجع غير متأكدة أو واثقة فيما أكان صوت نشيج بكائه، توسله المستمر، لطمه على صدره وفخذه حقيقة أو حلماً. حاولت جادة أن تعصر خلايا ذاكرتها لتظهر لها حقيقة الصورة أو (الكوبي) الخاص بها. وبدأت العد من الواحد إلى المائة في محاولة أخرى، لم تكتمل، لإقتناص

غفوة عابرة، حين قرقعت معدتها جوعاً، فقفزت كل حواسها المتراخية «أمين... هل تغدى أم بقي على لحم بطنه؟ يا ليت عبد الجبار يحضر عشاء لكليهما، مسكين هذا الولد، لا يحكي ولا يشتكي... أه يا أمين... ماخذ قطعة من قلبي أنت... لابد أن أبحث لك عن بنت الحلال المناسبة». مطمئنة خاطرها إلى هذه الفكرة التي كانت غائبة عنها، وسرحت في حلم حفل زواج أمين، القاصي والداني أتى ليبارك ويهنئ، زوجته كفلقة قمر، أبهرت بحسنها الجارات، أولادهم الثلاثة يحيطون بجدتهم ويمطرونها بالقبل، يضج البيت بصياحهم فيخرج اليهم عمهم كاظم مزرق الوجه محتقناً، ولكن حالما يرى إبتساماتهم البريئة، يتصارع معهم لاعباً، لوهلة يعود طفلاً، بجري خلفهم، فيتحامون بجدتهم وفية التي تلمظ عيناها فرحاً وغبطة، تتذرع بالدعاء لله أن يطيل بعمر السعادة التي خصتهم ببعض من كرمها بعد طول شقاء. وتكمل حلمها بالذهاب الى البصرة حيث حبيبة كاظم بانتظار مع أهلها. في فستان عرس أبيض وثير تُزف كأميرة الى كاظم، حلمها الذي أقعدها ليالي طويلة في سهاد وأرق يرسمان بحبر أحمر خطوطه في العينين البنيتين، وآخر أصفر شاحب يزرعانه على الوجنتين،

فتستجوبها الصديقات ضاحكات مازحات عن ذلك الفتى الذي سرق راحة بال وهدوء الجميلة الحسناء. ينصحنها بالتروي في مشاعرها وعدم الإنقياد لتذبذب مزاجه وعواطفه المتأرجحة غير المفهومة. (تجاهلي أمره عندها سيأتيك نادماً، هكذا هم الرجال عزيزتي لا يبحثون إلا عمن تتركُ خلفها دونما مبالاة أثراً هنا وأثراً هناك، يستحث فيهم غريزة البحث عن طريدتهم ونصب الأفخاخ والشباك لها. دعيه يتبع روح الصياد التي بداخله، ودون أن يشعر سيدخل في فخك الذي نصبه، هكذا هم الرجال عزيزتي).

إستفاقت فزعة على نداء آذان الفجر مشيعاً بصوت ونشيج كاظم وصيحات إستغاثته، وبطريقة لا شعورية سريعة وجدت نفسها تجلس بالقرب منه تتلو عليه سوراً وأدعية تحفظه من الشر وهي تمرر يدها بحنان ودفء على رأسه، مطمئنة إياه بأن كل شيء سيكون بخير«هي أضغات احلام وكوابيس ماض سنطوي صفحته أنا وأنت يا ولدي. آن لنا أن نهيل عليه التراب إسوة بأحبتنا الراقدين تحته. آن لنا يا ولدي أن ننسى».

حملق في وجه أمه شارد الذهن، فقرأت وفية من نافذة عينيه المشرعتين ما يجول في صدر ولدها الذي هرع خارجاَ، تاركاً

إياها مرتجفة الأوصال تنادي «تعال يا كاظم... تعال الى أين أنت ذاهب؟؟!... تعال يا ولدي... لا تضيع مستقبلك».

الفصل الثالث (عبد الجبار)
مساء الأحد ١٤/ كانون الأول ٢٠٠٣

يخيم صمت ثقيل على جنبات البيت الغارق في الظلمة، لم يتذكر عبد الجبار أن يشعل المصابيح الأمامية والخلفية لحديقة البيت أو على الأكثر لم يهتم لذلك، لكنه حتماً نسي أن يلقم الدجاجات في القن، فنمن بعد نقنقة طويلة جائعات. أمين يركن الى غرفته الموحشة التي لم تطأها قدما وفية هذا المساء، بعد أن تنهي صلاة المغرب تجلس الى جواره، يتجادلان يقصان ويلصقان أطراف أحاديث من هنا وهناك، تجهد وفية في جمعها ورغم قلتها وتكرارها إلا أن الإنسجام والحماس بينهما في أوجه لا يخبو، الأمر الذي يثير غيرة عبد الجبار. فينكب في غرفة الجلوس على محطات التلفاز الأخبارية المختلفة والمتضاربة ساباً وشاتماً الخبر الذي لا يروق له، وأحياناً راضياً بالريموت كنترول. هذه اليد السحرية التي تقلب بين القنوات «الله يرحم أيام زمان، قناة بغداد وقناة الشباب والسلام عليكم». يأتي عبد الجبار بلفافة خبز من الجبن والخيار فيبتلعها أمين ببطء وبلا شهية ليغلق فم عصافير بطنه

المزقزقة منذ الظهيرة. يفترش عبد الجبار الأرض مسنداً ظهره الى الكنبة يزدرد عدة كؤوس من الخمر دفعة واحدة مع بعض الحمص وشرائح خيار تبقت من لفافة أمين. وبعينين غائرتين ووجه محمر محتقن، طالع دونما إهتمام آخر مستجدات الأخبار وتحاليل وتعليق القنوات المختلفة حول صحة هوية الرئيس السابق، والبحث في الأدلة المتعلقة به بعد أن تم إمساكه في سلسلة من الروايات والتمثيليات الهوليودية التي صفر لها الشعب وزمر محتفلين في الشوارع مع دخان وأصوات الأعيرة النارية التي أخيراً أذعنت هادئة لبرودة نسائم هذه الليلة، فانسحب المحتفلون الى بيوتهم. أفرغ نصف القنينة في جوفه، إمتلأ المكان برائحة السكر والثرثرة.

لقد شربت في تلك الليلة كثيراً إحتفالاً بالماخورالجديد الذي أخذني اليه أحد أصدقاء (الميز)، لكنك في كل ليلة تشرب!!. (يترنح برأسه) نعم أشرب... لكن تلك الليلة كانت مختلفة، فقد شربت أكثر من المعتاد. مكان جديد ونساء مختلفات، أكثر تحضراً، جئن من بغداد بعد كساد تجارتهن هناك على أمل إيجاد زبائن جدد وكان لهن ما تمنيَن، فحصدن ثمار الأمل وافرة من أول يوم إفتتاح، راجيات أن يستمر الأقبال عليهن

من رجال فقدوا إهتمامهم بأحضان بيت الزوجية الباردة. كانت ليلة مدهشة إنتهت بي وأنا أتخبط بعيداً عن الشارع الرئيسي، لا أعلم كيف زلق دولاب السيارة أو كيف لف بي (الستيرن) الى صحراء رملية موحشة تدور على نفسها لا شاهد بداية أو نهاية، كان رأسي يلف هو الآخر وأنا أدور حولها بسيارة غرزت دواليبها في الرمل، تجر نفسها جراً. عقلي الخدر أوحى لي بفكرة النوم في السيارة حتى الصباح، لولا عواء الذئاب، فاستأنفت سيري أو بالأحرى دوراني الذي قطعه أثنان خلتهما شبحين. إرتمى أحدهما أمام السيارة ولولا أن في رأسي بقية عقل لما أستطعت أن أوصل الإيعاز الى قدمي المثقلة المتراخية على الكابح، فتوقفت الدواليب عنوة مثيرة حولها صوتاً شق سكون الليل وغباراً تراقص أمام مصابيح السيارة بخفة ورشاقة ذكرني بتلك الخصور الرشيقة المتمايلة. لابد أن أعاود الكرة الى ذلك المكان لكن عليّ أن أخفف من الشرب، كأسين أو ربما ثلاث، هل أنت واثق؟ نعم أستطيع أن أتحكم بعدد الكؤوس لا تكن قاسياً معي مثلها... أرجوك لاتكن قاسياً مثلها.

(وأكرم نفسه كأساً آخر، إبتلعه جرعة واحدة).

وفية... لا تتركيني، فات أوان التعود على فقدكِ أو إبتعادكِ... وفية جدران البيت ستطبق على نفسي، روحي تضيق إن إبتعدت أو حتى فكرتِ بذلك، أنتِ تعرفين جيداً من كنتُ وكيف صرت، لأجلك... لا لأجل أحد نزعت كل أثواب الحقارة، النفاق، الحقد، القسوة، الاستغلال ووو... وبقيت روحي عارية أمام محراب عينيكِ. وفية فات الآوان على قتل جندي إستسلم في ساحة وغى حنانكِ ولطفكِ، نازعاً سلاح صبره وتجلده، فات الآوان على ترك رجل شابَ، وعقدة اليتم لاتزال تطارده تفرض سطوتها عليه، فلا تجعليها عقوبته الأبدية بعد أن وجد فيك الأم وتصالح مع كل النساء لأجلك (ألف عين لأجل عين تكرم)... وفية. وفاضت المقل بالدموع بعد أن كانت يوما بئراً مهجوراً لا يقربه أحد، نشف ماؤه فامتلأ بالحصى والحجر.

لم تكن قسمة عادلة، كرهته لأنه كان السبب، لم أسأل عنه أو أرَه ولو مرة واحدة إلا حين رأيته مسجى في تابوت خشبي ملفوف بالعلم. أكانت عادلة حين جاء بي جدي الى السماوة ورماني كخرقة بالية الى أبي «الكبير لكم والرضيع سيبقى عند جدتة»، وقفل راجعاً الى البصرة دون أن يطبع قبلة وداع صغيرة على خد حفيده المنبوذ بتهمة فقر وعازة جده، وضعف

صحة جدته، التي لن تستطيع رعاية طفلين فقدا أمهما في فترة النفاس . شهر من العمر تغلب على عمر ست السنوات، فأتاح له فرصة البقاء بين جدين وأخوال عطفوا على يتمه وأحبوه، وقسوا متناسين الآخر (إبن البطة السوداء) يغرق في رمال السماوة مجدفاً وحده لست سنوات أخرى حتى أستبد الشوق بقلب جدتي الضعيف، وأحست أن خطواتها تدنو من قبر إبنتها. شقت صحراء السماوة بحثاً عن حفيدها اليتيم لتبرئ ذمتها أمام إبنتها حين تسألها، ومرطبة في الوقت ذاته ضميرها الذي جف ماؤه مثلما جف ماء عينيها القابعتين خلف زجاج ثقيل يحمله أطارٌ أسودٌ بلاستيكي. فصارت قليلة البصر كما البصيرة من قبلها. إحتضنتني الى صدر عظمي ناشف خلت أن عظامها قد طقطقت تحت رأسي، وبيدين مغضوضنتين معروقتين مسحت على رأس اليتيم قاصدة عدداً أكبر من الثواب والحسنات، فكل شعرة بحسنة. لوهلة بحثت في بقية وجهها الظاهر من شيلة سوداء عن ظلال صورة أعمل يومياً على دعكها وصقلها لئلا تصدأ ملامحها، ولا يعود طيفها يشاركني حلمي ويقظتي، فلم أجد وحمدت الله على ذلك، إلا أن نغمة صوتها ورنين بعض الحروف يشابه الى حد بعيد

صوت أمي. وجل قلبي عند سماعها وهي تذرف الدموع في سواقي وحفر خدودها بقصد الارواء، لكني تماسكت ولم أنخرط معها بالبكاء على المرحومة، أنا الذي إعتدت على البكاء كل ليلة وحدي ولم أشارك حزني أحداً، فلتبكِ وحدها. فنحن لانتشارك الدموع والحزن إلا مع من نحب.

تملصتُ منها خلال فاصل البكاء الذي أدته على أتم وجه، هارباً نحو البستان شاغلاً نفسي بإرواء الشتلات من ماء شحيح تزداد ملحوته يوماً أثر يوم.

عند العصر وقبل أن تودعنا الشمس وراء الافق ذاهبة، إنتهت زيارة المندوب السامي الرامية الى ترميم صلة الرحم وتقويتها، واعدة إياي بزيارة أخرى، بقصد تعزيز العلاقات وتطبيعها تماماً كما يفعل السياسيون. ذهبت تاركة بقايا عطر عود، عبقت به ثيابها لصق أنفي، ودمعة تسللت الى خدي من خدها. حتماً إرتاح ضميركِ في تلك الليلة وأنتِ تضعين رأسك على الوسادة لتقطري عينيك المتحجرتين، فقري عيناً جدتي.

بالكاد إستطعت التخرج من إعدادية الصناعة بعد رسوب رافقني كظلي في كل صف، أعمال الفلاحة في البستان، وطلبات البيت وأبي المأخوذ بزوجته الصغيرة من جهة،

وجدتي وعمتي المتحرقتان غيظاً منه ومن زوجته من جهة أخرى، فكنت كالذي بين المطرقة والسندان. أكلت ضرباً من الطرفين وتحملت نيران قصفهم المعادية لبعض، هذا يشدني من طرف وتلك من آخر في لعبة جر حبل لا تنتهي حتى تمزقت وشائج قلبي كمداً، وحسرة على طفولة وشباب يضيع يوماً إثر يوم بين عقول فارغة وقلوب طافحة بالقسوة والحسد. فتلاشت طفولتي وأنا أحاول أن أسترضي هذا وأقبل يد الآخر، أستجدي عطف ونقود أبي المرهونة عند رضا زوجته الشابة وغنجها عليه. إن أقبلت عليّ أقبل هو، وإن أدبرت أنكرني وتجاهل وجودي وأنا الأبن الوحيد الباقي معه، رغم كل دعوات ونذور زوجته التي أخفقت في الانجاب أكثر من مرة، فحبلَ قلبها قسوة ومرارة، لم يستطع تحليتها كل دلال أبي وهداياه الفاخرة لها.

وفي المقابل جدتي وإبنتها العانس الحقود وأوامرهما التي لا تنتهي، كنت كالعبد بينهن أركض لهذه وأجري لتلك طمعاً في درء عقوبة أو ضيم يكننه لي. كان يغض نظره فلا يصل مدى رؤيته لي، فيرى أي عوز وقهر يعيش فيه إبنه تحت رعاية نساء يتصارعن كل يوم كالديكة على أتفه سبب، وعليً أنا

تحمل هزيمة وسب وشتم الديك الخاسر... آه وفية ماذا عساني أخبركِ أو أقول لكِ... أأقول لك أن جميع النساء قد متن في عيني بموت أمي. رفعت عنهن غطاء القداسة والأمومة، حين توغلت في أغوار أنانيتهن وكهوف كيدهن ومكرهن. تعلمت الكثير عن النساء، فُطمت طفولتي على مكر زوجة أبي وإخضاعه لسحرها بالكامل، وأخذت دروسا في بأس وقسوة جدتي، ولملمت دموع حسد وغيرة عمتي العانس من كل إمرأة متزوجة. آه... وفية البيت مظلم بغيابكِ كما هو قلبي الذي خفق متسارعاً وأنا أمسك بكتفك الجريح، أساعد المضمد في إخراج الطلقة التي إستقرت فيه، وأنت شبه مغمي عليك تتلوين وتأنين من الألم، فقد جسمك الكثير من الدم. كان وجهك شاحباً متعباً إلا أنه لا يزال شهياً يثير في شخص مثلي نزعته الغبية في الاستباحة والاستيلاء. لا أنكر أن هذه الرغبة حينها قد راودتني أكثر من مرة وأنت تغطين في نوم عميق من تأثير الدواء المخدر. إمرأة شابة، طرية بجمال فطري، جسد نحيل كأعمدة الرخام الأغريقية مستلقية يحرسها التاريخ وعيناي المحمرتان من الخمرة والسهر، بانتظار أن أقبض الثمن،

الثمن لكل شيء كما تعلمت ذلك طوال حياتي... لا شيء دون مقابل... لاشيء دون مقابل يا وفية.

قبضت ثمن سكوتي، تستري عليهن في لعبة أتقنت أصولها منذ البداية، منذ أن كنت صغيراً، فاستغللتها فيما بعد مبتزاً زوجة أبي، ومغلقاً فم جدتي أو عمتي في معركة يومية مستعرة دوماً، ومثل تجار الحرب قبضت ثمن حروبهن ونزواتهن. أتقنت اللعبة فصرت الرابح الوحيد الذي يرمقنه بنظرات الحقد والحسد، إلا أنهن إستسلمن بإلبقاء تحت فكيّ جشعي وإستغلالي، مقابل تزويدهن بذخيرة الحرب والمعلومات عن الطرف المعادي. كنت العميل المزدوج بينهن، ولا أخفيكِ أني في مرات كثيرة كنت أذكي نار الحرب بينهم، أنفخ في جمرات زوجة أبي، أذر رمادها في عيني جدتي وعمتي المتأهبتين لإقتناص أقل فرصة ربح على خصم أستغل إنوثته في كسب أبي الى جانبه، مقابل خسارة الأمومة والأخوة في أحيان كثيرة.

وفي كل مرة قبضت الثمن، إعتدت على قبض الثمن من الرابح والخاسر على السواء... وقبضت منك الثمن يا وفية.

وخر في بكاء ودموع إختلطت بنبيذه وهو يردد يائساً:

قبضت منك الثمن يا وفية... قبضت الثمن لكني كنت الخاسر الأكبر هذه المرة، وذقت طعم الخسارة المر الذي أنستني إياه حلاوة الأرباح الماضية... معكِ خسرت مرة أخرى المرأة التي أحببت، وعاد ذاك الألم البعيد المنزوي في قلبي يتحرك ثانية، أنعشتِ فيه الحياة بعد سنين طويلة من التخدير والتحنيط... معك وفية عرفت معنى الألم ثانية... معنى الأحباط والأحتقار... التجرد والوقوف بروح عارية أمام محكمة قلبك طمعاً في الغفران، والصفح عن الذنوب، طمعاً ولو في بعض من الحب... بعض من الحب يا وفية، فمعك شعرت بألمه، الذي لم أذقه وأنا في فورة الشباب. يا الله كم سخرت هازئاً بأصدقائي الذين وقعوا في حبائلة، لا أنكر أني قد شاركتهم الوقوف في ركن مدرسة أعدادية البنات ساعة الإنصراف، لكني كنت منصرفاً بالنظر اليهن كمخلوقات جميلة، لكن شريرة، على الواحد منا أن يحذر الإقتراب، أن يضع مسافة أمان كافية بين قلبه وبين دموع التمساح، فلم يصدف أن وقعت في حب هذه العيون أو ذلك القلب... مخلوقات جميلة، بالفطرة نصبو اليها ونميل، إلا أن رجاحة العقل هو ما حكم سلوكي تجاههن. كانت لي علاقات سطحية

متعددة مع بنات مختلفات، بعضهن قليلات الخبرة، فكانت قبلتي هي وسام حبهن الأول وهكذا علقتُ الكثير من الأوسمة والنياشين، كذلك القائد بعد نهاية كل معركة، متفاخراً بشجاعة وبطولة جنده، مثلما تفاخرت أنا بكثرة عددهن وشدة ولائهن لي أمام أصدقائي. ورغم ذلك لم آمن جانب أي واحدة منهن، فلم أشرب أو آكل منهن أو حتى أقبل أي هدية، خشيت أن أقع في السحر والشعوذة كما أبي الغارق حتى أذنيه مع زوجته التي إصطحبتني مرات عديدة الى نساء تلقمهن المال الوفير مقابل كيس صغير من الأعشاب والعوذ، هذه تحت رأسه، وهذه في جيب سترته وتلك في زاوية الغرفة، وماء ملون في عتبة الباب وآخر في الطعام مع المرقة. لم أدهش أبداً حين أشم البخور والحرمل محروقاً أو ألمح الشموع مصطفة في (صينية) مشتعلة حتى آخر واحدة تنازع لأجل البقاء مضيئة، كلها أمور إعتدت عليها أو بالأحرى كنت الراعي لها حين تصحبني عمتي الى أحد الرجال المشعوذين بحثاً أو إستعجالاً لقسمة طال إنتظارها، لنأتي محملين بأوراق صغيرة ملفوفة نقشت عليها رموز وحروف، تسبح بالماء المنقوع بتلك الأوراق أو تتبخر بها، فلا يأتي النصيب رغم أنها لم تخطئ

في إداء أي وصفة. لا تيأس من تكرار المحاولة مع أشخاص جدد أكثر بركة ويعطون باليد، لكن يدهم ظلت مغلولة أمام يد عمتي المفتوحة المنتظرة سنوات وسنوات لنصيب شحت به السماء عليها فلم يفلح المشعوذون بجلبه لها، وحين شح رحمها أيقنت بضياع الفرصة، وكفت عن التسول من هذا وذاك طلباً وبحثاً عن فرصة أخيرة. كذلك فعلت زوجة أبي، إنقطعت عن قفز القبور السبعة حين إنقطع الطمث وضاعت عليها فرصة أن تصبح أماً، الأمومة التي نأت عنها ولم تحاول هي تعويضها في الولد اليتيم الذي تناهشتة ألسنتهن وأيديهن. فقدها الامومة زاد من شعورها بالسخط وقسوة الحياة اللامبررة عليها، فكنت الفدائي الأول الذي تلقى نيران مدفعيتها المخلفة في بعض المرات آثاراً على جسدي... ماذا عساني أن أقول لك يا وفية... أأقول أني ذقت على يد تلك النسوة صنوفاً من الألم والقهر، وفي كل مرة لم القَ الذي يسعف ذلك الجسد النحيل الغائر في دشداشة مقلمة (بازة) عتيقة أعلى عن الكاحل بشبر. عملت مثل الأجير لديهن مع فارق أن الأجير يتقاضى أجره نقوداً، وأنا تعنيفا وضرباً على أقل زلل... فيالهن من نسوة؟!... ويالي من يتيم أخرق مسكين! نما وكبر في داخله

مارد دون أن يشعر به، مارد ينفث النار من مراجل قلب ذاك المراهق الذي لعب بالبيضة والحجر معهن. ففقدن السيطرة عليّ وشعرن ببعض الخشية مني وأنا الذي يعرف الكثير الكثير عنهن، وهكذا تعادلت نوعاً ما موازين القوى في ذلك البيت الذي حصدت فيه من الأسى ما أحال قلبي الى غيمة سوداء حقود أمطرت كراهيتها على النساء، مستغلاً عوز بعضهن أو مشترياً بالنقود أجساد وكرامة أخريات... يا وفية لا أريد الأنجرار في هكذا حديث يؤلمني ويؤلمكَ... يؤلمني أنكِ أتيتِ متأخرة... متأخرة، أما كان للقدر أن يضعكِ في طريقي؟ قبل أن أوغل... أن أوغل في الرذيلة والأحزان... أما كان؟ لا أعتقد أنكَ كنت لتتراجع أنت ملعون يا عبد الجبار... ملعون، فلا يطيب لك من النساء إلا الحرام، لا يطيب لك إلا أن تراهن تحت قدميك مذلولات مدنسات بالذنوب... ملعون أنت يا عبد الجبار... ملعون... أصمت... أصمت... لا تعرف شيئاً أنت... أصمت (وقهقه عبد الجبار بصوت مخيف مجلجل وأترع كأسه بالنبيذ، شافطاً جرعة كبيرة منه في مجة واحدة، مستأنفاً): لا تعرف أنت شيئاً أصمت... أصمت.

لم ترحم ذلها وإنكسارها، قبضت ثمن سكوتك في أقرب فرصة أتيحت لك... هل اكمل؟... رجاء أصمت... لن أصمت، هل تذكر كيف تسللت نحوها ليلاً ورائحتك تقطر زفتاً وفمك أصفر مزرق، لثمت فمها بكف يدك الغليظة الخشنة، تلوى رأسها نافراً، لكن قبضتك كانت أقوى، صوتها المخنوق الأبح وأنينه الرافض، ومن بصيص النور الساقط على المرآة لمحت عينيها الشاخصتين بغضب والدمع قد سلك طريقه هادئاً مستسلماً على خد لم تلمسه سوى الاشواك والأيادي القذرة منذ ذلك الحين. رأيت كيف إنكفأت على روحها، كيف قتلت أملها بالخلاص والحرية، رأيت ذاتها التي تقهقرت خوفاً وخشية على ذلك المسكين النائم قربها... لقد رأيت كل شيء، رأيت تقهقرها إصطكاك ركبتيها، شحوب وجهها وتعابيره المرتعبة، يديها المستغيثتين وهي تدفعك عنها خائفة مذهولة، لقد شعرت ببرودة أطرافها وتخشبها كجثة ميتة لكنك... لكنك لم تتوقف... لم تتوقف يا عبد الجبار... لا تنكر الآن... لا تدعي الندم، أنت ملعون منذ البدء... ملعون... ملعون... إخرس... إخرس أنت لا تفقه شيئاً ... أنت لا تفقه شيئاً... إخرس... إخرس (وصم أذنيه بباطن كفيه، مطرقاً برأسه بين فخذيه، تتنازعه الدموع

وصدى ذكريات تطرق الباب... ذكريات، ودَ لو باع نصف عمره ومسحها، وعمره كله لو عاد الى تلك الليلة المشؤومة وأتجه مباشرة الى فراشه دون أن يعرج الى ذلك الممر القصي الهادئ شبه المعتم حتى وقت النهار.الى تلك الحجرة الغافية تحت ضوء القمر المنساب اليها من بقايا نافذة نامت دون أن تغطي نفسها بالستارة تماماً).

لا سيدتي الكاتبة لا تنجري خلف إدعاءاته، لا تسقطي في فخ دموعه وحبائل كلماته. إخرس... إصمت أنت، كلا لن أخرس، وأنا أراك تزين الباطل، تلبسه ثوب الندم والتوبة أمام تلك الكاتبة التي إنخدعت بمكركَ، لكن أنا لا، أنا أعرفك جيداً... لم تكن تلك المرة اليتيمة، فقد أخذت قدماك تعرج الى ذلك الممر المختبئ وتلك الحجرة الغارقة في سبات الألم والحيرة مرات عديدة... مرات عديدة، قبضت الثمن... قبضت الثمن من جثة باردة مات فيها الإحساس. ملعون أنت يا عبد الجبار ملعون ووغد... هل نسيت أم أشحذ لك ذاكرتك بحذائك هذا؟... أنسيت في ذلك الصباح كيف دفعتها الى الحائط وطوقتها بذراعيك وأنفاسك الكريهة بلعاب تطاير الى وجهها هو الآخر مهدداً ومتوعداً إياها من أن تقفل الباب بالمفتاح. وسلبته من مخدعها

الى جيب قميصك وعيناك تبرقان دماً «لا أحد... لا أحد يغلق باباً في بيتي» نعم لا أحد، وهي كانت ممسحة الباب التي تحمل كل رذائلك وأوساخك.

بماذا سترد يا عبد الجبار؟ وماذا ستتلو على السيدة من أكاذيب أخرى؟... هيا أجب، لا تصمت... أجب، هل ضاع لسانك مع كومة أخطائك ومفاسدك، مع نوبات الندم اللحظي عن القبح نفسه، عن الدناءة نفسها، إلا أني لا أصدقك حين تدعي الندم، والالتزام بوعود تتقهقر على ذاتها مع أول عتمة، ويد خفية تدير مقبض الباب الذي خسر مفاتحه الى غير رجعة (إنغمس عبد الجبار في صمته ذليلاً، لم يجد من كلمة تتلجلج على لسانه... كلمة واحدة فقط كانت لتخرس هذا المتكبر الشامت، فترع كأساً أخرى عوضاً عن الكلمات التي خذلته قابعة في الحنجرة لا تخرج).

سيدتي الكاتبة أحذركِ أن تشفقي عليه، على صمته، فلطالما ملأ صخبه وعربدته آذان الليل، وشق ثوب ستره، بسبه وشتمه لأولئك النساء اللواتي دفعت بهن أيدي الشظف والحرمان، وأفواه جائعة لبطون صغيرة تتلوى، الى فكوك

بشرية تلوكهن كل ليلة لترميهن عظاماً على أعتاب الشيخوخة والترهل.

سيدتي لا تأخذكِ رحمة بهذا الرجل، فهو لم يرحمها عندما توسلته متذللة تحت قدميه باكية ناحبة، أن يأتي بالشيخ ليعقد قرانه عليها، لا حباً به أو بالزواج منه، بل لأجل ذلك الولد الذي قطع أوردة معصمه حين لمحه بقميصه الداخلي في غرفة أمه، سيدتي كادت كل تضحيات وفية أن تذهب سدى عندما نقلوا كاظم الى المستشفى غارقاً بدمه، ذلك المراهق الصغير الذي عشق والدته الى حد العبادة، ونفر منها كأنها جرب أو مرض جلدي يقزز النظر... توسلته بدموع تنهمر كالمطر أن يحفظ ماء وجهها أمام ولدها الوحيد، فلذة كبدها، الذي هجر حجرتهما، ولم تطأ قدماه عتبة بابها، مثلما هجر عتبة خد أمه، يدها، رائحتها، ضفيرتها التي لا ينام إلا قابضاً عليها بين كفيه بتهمة الجمال والنعومة، عينيها اللتين تلبدتا بغيوم الحزن والخسارة، الخسارة لأثمن ما تملك في هذه الحياة... الحياة التي جادت لها بكاظم رغم كل الخسارات... كل الخسارات... سيدتي لا ترأفي بشخص مثله، إبتل حذاؤه المترب بدموعها دون أن يرف له جفن أو يقشعر له بدن ...

بل على العكس تلذذ بانكسارها بانكفاء ظهرها الخاشع عند قدميه وهي التي طالما رمقته بعينين شزرتين، متحاشية إقترابه أو دنوه منها، جارية الى الحمام تغتسل من أدرانه، وصوت نشيجها المكتوم يصل اليه مع المياه الهابطة من مرش الماء المعلق بالسقف، فيفرغ خزان البيت، ولا يفرغ حقدها واشمئزازها منه، ومن جسد كل مساحيق التنظيف غير قادرة على ازالة بقعه وندوبه.

دفعها سيدتي بشراسته المعهودة قائلاً وهو يضحك متهكماً ساخراً: «ما لي والزواج أنا؟ وهل أتزوجك انتِ؟ أأفطر على بصلة؟! وحولي النساء من كل صنف ولون، يتفانين لأجل إسعادي وكسب رضاي قبل نقودي، ماذا جرى لعقلك يا وفية؟! كيف تريدين أن أشتري ما هو مبيع أصلاً؟! أين عقلك؟... أين عقلك حتى أتزوج أنا بكِ؟».

وأشاح بوجهه عنها متعالياً متكبراً، وأنتفض قائماً يا سيدتي تاركاً إياها في الحجرة على ألمها وضعفها راكعة، شاكية الى سماء بعيدة، جعلتها تكابد كل أنواع الذل والمشقات، في إمتحان أسئلته صعبة وناقصة المعطيات. تركها تعاني ذل نظرات كاظم، وإشمئزازه من أن يلمسه طرف إصبعها،

وطرف عينها بنظرة. تحاشى أن يكون معها في مكان واحد، وأندس من أول يوم رجع فيه من المستشفى مربوط المعصم لكن مثلوم الفؤاد والخاطر في حجرة أمين، لا يخرج منها إلا ماندر، مفجراً براكين حقد وغضب تلقفها أمين بصدر رحب، صدر إعتاد أن يفتح شراعه بوجه الملامة والذم مبحراً في نفوس البشر، يبحث لهم عن عذر يبرر قسوتهم وسوء تصرفهم معه، فصار أمين الأخ والصديق الصدوق لكاظم. سيدتي ماذا عساني أن أقول لكِ، أو أخبركِ عن ذلك المختبئ خلف قنينة الشراب الفارغة الى النصف والكأس اللذين صارا شماعة لكل أخطائه، نزواته وهفواته، معللاً دوماً أنهما والماضي السبب وراء قسوته وفداحة كل أخلاقه السيئة، سيدتي لا تاخذك رحمة به... أصمت... أصمت أنت، لماذا لا تخبرها بأنني بعد أيام أتيتُ بالشيخ وعقد قراننا؟ لماذا لاتخبرها؟ أني تراجعت عن كل مواقفي وأقوالي لها وصارت زوجتي... وفية زوجتي .. لا.... هي يا سيدتي لم تقتنع في قرارة نفسها أني زوجها، فبقيت بيننا مسافات شاسعة أقطع كل يوم منها شيئاً لأجل الوصول الى قلبها الذي تحطم على أيدي أوغاد مثلي. لقد نذرت نفسي مذ تزوجتها أن أرمم ذلك القلب،

ألصق قطعه المكسورة بعجينة من الحنان والحب والتفهم، هناك ثغور وفجوات كثيرة لا أنكر، لكن صبري أكبر وأملي في ردمها ومواراة الأثر (وقهقه الآخر ساخراً من آماله وثقته بنفسه) قائلاً: أخبرها... أخبر السيدة... كيف تتحاشاك وفية؟ كيف تصطك ركبتاها إرتجافاً ويخمد جسدها كقطعة خشب خاوية بعد كل هذه السنوات، عن أي ترميم تتحدث يارجل؟ وهل يداك المخضبتان بدموع وتعاسة أخريات قادرتان على صف وترتيب أحجية قلب تناثرت قطعها في أماكن مختلفة؟ أنت واهم أيها السيد... واهم كبير كعهدك دوماً، لم يتغير شعور وفية تجاهك، فلا تزال بنظرها المغتصب الذي إستباح أرضها، وكل مستوطناتك التي بنيتها فوقها ستجرفها يوماً جرافات الثأر والإنتقام، لتقتص منك... ذلك الإقتصاص الذي يقض مضجعك، والثأر الذي تخافه منتظراً، وأنت تراه يكبر في عيني كاظم الملتهبتين حقداً وسخطاً، تلك العينان اللتان تطاردنك في نهاية كل حلم كأنهما فوهة جهنم، تتعثر قدماك، تسقط الى قرار عميق، تتشبث بيديك فلا تمسكان إلا جمرات نار، تتوغل في تدحرجك في صراخك طلباً للنجدة، فلا مغيث إلا تلك العينان، تحاولان النفاذ الى روحك... تقتربان...

تقتربان أكثر، يرتفع صدى صوتك طارقاً باب اليقظة، لتصحو مرتجفاً مبللاً من العرق، تلهث، تتقطع أنفاسك، ولا يكف هذا الكابوس عن مراودتك بين فترة وأخرى، صار يقينك بتلك النهاية محتماً. تأتي وفية بكاس ماء ودشداشة أخرى بيضاء، كفنك لكن بجيوب، فتفقد بقايا صوابك وجأشك، تحرق في الصباح التالي كل دشاديشك البيضاء معاقباً إياهن بتهمة اللون دون أن تفسح المجال لوفية للدفاع عنهن أو إنقاذهن من يديك المجنونتين.

هي لا تعلم ما يعصف به عقله من وساوس ومخاوف، لكنها تدرك أنها الكوابيس، فتأمرها بالتراجع وهي تتلو عليك سوراً وآيات حفظ من الشيطان ووساوسه، حتى تغفو ثانية على إثر صوتها الهامس بالدعاء الطارد للشر.

حتى أنها لم تتورع عن اللجوء ذات يوم الى أحد من تظنهم أصحاب الكرامات، طلباً للمساعدة في التخلص من شرور تطارده بالأدعية والعوذ التي تضعها تحت وسادته، داعية الله أن يسري مفعولها وتتمكن من إيقاف تلك الكوابيس على حافة الحلم، ومنعها من التقدم. مسكين ياعبد الجبار... أرى النار التي أوقدتها بدأت تلتهمك، إستنفدت بنزين حياتك... أأشفق

عليك؟! لا لن أشفق... لا أمل لك معي، فانا لست تلك السيدة الكاتبة التي تتمسكن أمامها متعذراً ملقياً على شماعة اليتم والطفولة القاسية كل الأسباب، ولا وفية التي تحاول الصفح عنك وفتح صفحة أخرى، تحرص أنت على تركها بيضاء رغم كرهك لهذا اللون. أنت اليوم تستشعر جيداً، تسمع بوضوح خطوات الثأر المقتربة اليك، يجفل قلبك مع كل طرقة باب أو سماع صوت عيار ناري بعيد، تتعثر بظلك، تسبقه الخطوات. الى متى تكابد عناء غلق الأبواب؟ وتحصينها بأقفال إضافية لن تقف بوجه الثأر حين يستيقظ من عقاله... مسكين أنت تحصد شوك أعمالك... إخرس ... إخرس لا أريد سماع صوتك... أغرب عن وجهي... أغرب عن وجهي (ويعب كأساً أخرى لفمه دفعة واحدة، مستعذباً مرارة فمه على مرارة قلبه، يصيخ السمع حذراً، ولا يواجه المنون إلا بكاس دبق يحمل آثار أصابعه ودموعه ثم بصوت أجش مرهق) يقول:

لم أعد أخاف أو أقلق من إنتظار طرقاته أو سماع صهيل غضبه، فقد أعددت عدتي، ساتحرر أنا، سأتحرر من كل عقدي وذنوبي، سأعود عبد الجبار الصغير، الذي يغفو على

رائحة حضن أمه... إطمئن لم أعد قلقاً، فقد تغلبت على وسوستك وقلة حيلتي، لن تسخر مني بعد اليوم، لن تسخر... لن تتآمر عليّ مع تلك السيدة الكاتبة حتى وأن جذبتها نحوك أو تحيزت لك.

(أطل أمين بكرسيه المثقل هماً على والده من باب الحجرة التي اشرأبت بالدخان ورائحة النبيذ حتى بدا عبد الجبار وكأنه يحلق فوق غيمة، فتأكد من وجود والده بين القنينة والكأس، يمارس طقسه الحزين في تعذيب الذات، ورجع أدراجة بهدوء لئلا يقاطع عملية التعذيب هذه أو يصبح طرفاً فيها، فينال حصته من السب والشتم، إلا أن عبد الجبار في غمرة غيمته، لمح طرف كرسي أمين فأردف ساخراً هازئا):

أمين... أمين يا ولدي المسكين، يا ولد الكسل، بغضي والفشل، أنت ذنب آخر من ذنوبي يقرص ضميري كل يوم فأسمع صدى صوت أمك المتعب يحوم على أبواب ذكريات أقفلتها بالشمع الأحمر (الباب الي تجيك منه الريح سده وأستريح) وهي تتوسلني ممددة على فراشها مكسورة الحوض والخاطر، في أن أتابع تلقيح الطفل وأنا أتعلل في كل مرة بعذر «لقاح،

طعوم، أبر، من لقحني؟! جميعها خزعبلات علم تتغذى على خوف الناس ومناعتهم التي تلاشت مع الوقت».

كان صحيح البنية، قوياً لا تناسب قوته صغر سنه، حين أصابته حمى شديدة، تاركة خلفها أقداماً وسيقاناً ضعيفة لا تقوى على جريه ولعبه كالسابق، وعندما أبلغني الطبيب بمدى السوء الذي ألمَ بذلك الطفل النشيط أدركت حجم إهمالي وفظاعة وقبح سلوكي. لقد تناسيت تماماً تواريخ لقاحه، متكئاً على فكر ساذج لامبال، فهاجم فيروس شلل الأطفال أمين، صفعة على سخريتي واستخفافي بالعلم، إلا أن العلم أخطأ هو أيضاً ووجه صفعته الى طفل بريء. لم تذق قدماه طعم ملوحة الأرض، ولا لمست مداعبة كرة القدم المتسخة بالطين والمتدحرجة بين أقدام أطفال الحي، وإكتفى عند عتبة الباب يجلس مراقباً إياهم عن بعد، متحمساً في كرسيه يحرك جذعه ويديه، مشجعاً كرة تستدل طريقها نحو الهدف. في المقابل ضيعت أنا الهدف منغمساً في الإبتعاد... الإبتعاد بنفسي عن ذلك الطفل المربوط بكرسي أو الزاحف يجر خلفه الغبار، ومثيراً غبار الضمير الذي أحاول إخراسه كل ليلة بكؤوس من الخمرة، وعشرات الامتار من الإهمال والتحاشي له، وهو

يكبر على كرسيه، وينبت الشعر في وجهه مذكراً إياي بسنوات إهمالي وتقصيري معه. التقصير الذي عوضته وفية بحنانها وحبها له، فصارت له الأم والأب. لا تعلم يا أمين... كم مرة تمنيت أن أحل محلك على ذلك الكرسي لا بدافع التكفير عن أخطائي وإهمالي لك، بل بدافع الغيرة منك، ومن الرعاية والحب التي توليها لك وفية. أي أب أنا؟! ماذا أهذي؟ وكيف أفكر بهذه الطريقة؟ قف لمرة واحدة ولا تهرب، واجه ظنونك مساوئك وذنوبك. ها أنت تعترف بأنك لم تكن أباً جيداً ونسيت أن تعترف بأنك كنت زوجاً سيئاً أيضاً، وأن إبتسام قد إحتالت على كل الظروف والأمور لأجل التقرب اليك، لكنك في كل مرة تصدها بقسوة أكبر من سابقتها، ما ذنبها؟ هي واحدة أخرى من ضحايا اليتم والفقر، فلمَ تحاشيت الدنو منها كأنها ملابس عمل ملطخة بالدهن لا ترتديها إلا عند الحاجة، تلك الحاجة التي قضتها لك في كثير من الأحيان نساء أخر، لتعود آخر الليل مترنحاً، أجش الصوت على لسانك بقايا نغمات وأغان، وعلى ملابسك الوان مختلفة من الأسود الى الأحمر، عطور زهور تمتزج برائحة عرقك والنبيذ الطافح في رأسك.

في السنوات الاولى لزواجكما كانت تتشاجر معك وتعاتبك وتصبر عليك على نية التغيير والتحسن، لكن بعدها أدركت بفطرة المرأة وإحساسها الأنثوي أن لا مجال لإلتفاتك نحوها وترك ما أنت عليه، فاكتفت بأضعف الإيمان والدعاء لك بالهداية وولوج طريق الله الذي يضله بعضهم ولا يقتفي إثره.

لم تغفر لها ولم تغفر لهن إحتيالهن وتآمرهن عليك، تلك المرة الوحيدة التي تتلاقي فيها إرادتهن رغم سنين الحروب الطويلة المنهكة بينهن، إلا أنهن في مؤتمر نسوي عقدنه هن الثلاثة، وطلعن بأفواه مشرعة حتى الأذنين وعيون تتلمظ خبثاً ودهاء على نتيجة ختامية القينها في حضور والدك الذي إقتنع تحت تأثير مكر ثلاثة نساء لا واحدة «بضرورة تزويج الولد قبل أن يفلت عياره ويضيع فلوسه على النسوان، والسهر حتى آخر الليل مع أصحاب السوء والقمرجية»، فشدد عليك الخناق بالسؤال عن مواعيد دخولك وخروجك، تذمره المتواصل من إنفلات أخلاقك، صار الآمر في وحدة عسكرية، جنديها الوحيد هو أنت، الذي لا بد أن يمتثل للأوامر، ويتزوج من الفتاة التي حصلت على إجماعهن المطلق إلا موافقتك أو رغبتك بها. وما كانت هي إلا الوسيلة لنيل حريتك من جديد ورفع الحظر عنك

من قبل الآمر الذي أوصى مشدداً على أهمية الإسراع في إكثار أفراد وحدته، وكان له بعد أقل من السنة من زواج لم تنفخ أنت في جمره لتوقظ ناره، الحفيد الاول، فنال من دلاله ومحبته ما لم تنله أنت أبداً، لربما أعتمد على فكرة أن الثمرة حصيلة تعب الفلاح وجهده المتواصل على شجرته، لكنه لم يتنبه الى أنه لم يهتم بتلك الشجرة أو حتى يشعر بوجودها وكأنها سدرة طلعت طلوع ربها في أقصى بستانه ضعيفة تختبئ بظلال النخيل فوقها.

إنشغل الجد بالحفيد عن الأب الذي عاد الى عاداته القديمة وأكثر، ولم يتحمل وزر هذه الطباع والسلوكيات إلا تلك الزوجة المسكينة، زوجتك التي لم تلحظ تفاصيل وجهها بإهتمام، وحملتها حقائب ثقيلة من حقدك، يتمك، كراهيتك وإنتقامك الذي كان لها النصيب الوافر منه.

وقف في تلك الغرفة مترنحاً، وجر قدميه الى المطبخ، ومن إحدى الدواليب العالية سحب قنينة شراب عائداً الى غيمتة الرمادية بعد أن تفحص الباب الذي لم يقفله بالمزلاج كعادته في كل مساء، مبتسماً وفي عينيه لاحت أفكار مجنونة تركها تحرس عند الباب ومضى، البيت يعزف إيقاعاً موحشاً بارداً

بتناغم مع سعفات النخلات المرتجفة خارجاً، ونسمات كانون الأول الباردة تداعبها طلباً للدفء.

وضع القنينة الفارغة جانباً بعد أن أدت دورها بشكل جيد وأغدقت عليه كل مافي جوفها، فتأهلت القنينة الشابة لتجود بحياتها لأجل هذه الليلة.

قضى على كأسه في رشفة واحدة مستمرة، فسالت بعض من قطراته على جانبي فمه مبللة شعر الذقن الخفيف الذي شذب بطريقة أنيقة تتصل مع الشارب بانسيابية طبيعية تظهر يد الحلاق الموهوبة في إتقان عمله. أخذ الشراب بعقله وغربل الذكريات رأساً على عقب فغمغم عبد الجبار يقول:

جاءتا من الصحراء، كلتاهما بزغتا من باطنها وكأنها تنجب مرة كل عشرين سنة. فتحت لي باب بيتهم المعزول المتربع على أطراف الحدود، إرتسمت في عينيها دهشة وهما ترمقاني، فخلت أن في شكلي مشكلة أثارت إبتسامتها، ترددت خجلاً ولم أسألها عن السبب، فطنت الى إرتباكي وقالت بغمازتين غرزتا على الخدين مكانهما بوضوح مستدركة ومعللة إبتسامتها السابقة بابتسامة أكبر وأعذب حين قالت «عفواً... لكن لم يطرق بابنا أحد منذ فترة طويلة حتى خلنا

أننا آخر الخليقة على سطح الأرض». وذهبت منادية أباها، الذي لا تشبهه في شيء وعندها تأكدت فقط أن الغراب قد يبيض حمامة، زهرة وسط صحراء فتحت لي الباب الى روض وجنان. تعلق قلبي بثوبها حين ذهبت تنادي أباها لا هي عادت ولا قلبي رجع الى مكانه. تكررت زيارتي الى بيتهم بحجة العمل المشترك بيننا أنا وأبيها وفي كل مرة تثقل قدماي ويبيد جسمي وأنا أدعو الله أن تفتح هي الباب، وكان الله رحيماً، تلك الدقائق القليلة في كل مرة عادلت عمراً من اللقاء، لم تسمح تلك الوقفة القصيرة على الباب بأي حديث أو حتى مجاملة صغيرة، إلا أن عيوننا قد باحت بما عجز عنه اللسان وتعثرت به الحنجرة، فبقيت الكلمات آمنة في رقادها.

لم أكن في البداية متحمساً للعمل مع هذا الرجل المريب الهيأة مثل عمله، ترددت للغاية، وفكرت في الإنسحاب والتخلي عن هذا العمل الخطر وما يجره من مشاكل ومضايقات على الحدود، ورشوة هذا الجانب والتملق للآخر، إلا أني أستمررت بإعمال التهريب بين حدود الناصرية والكويت، تهريب كل ما يخطر على البال وقد درَ عليّ هو أيضاً بما لا يخطر على البال من أموال. أموال لم أفكر بها أو أطمح إليها يوماً، الأمر

الذي زاد من طمع كل الجهات فيّ، أبوها وأبي من جهة، زوجة أبي وجدتي وعمتي من الجهة الأخرى، أصبحت المدلل المهاب بين ليلة وضحاها... كم نحن قذرون... إلا فضة التي كانت أغلى من الذهب، وأغلى من كل الأموال التي أمطرتها السماء عليّ وأنا أتعلل بالأعذار والحجج المختلفة لأجل طرق بابها والإرتواء من واحة عينيها. فهطلت الأموال بشدة ولم أرتو من وصلها، كنت لأقايض كل تلك الاموال مقابل دقائق لأتأمل تلك العينين وأقول لها «أحبكِ»، الكلمة التي ظلت تتعثر على لساني ولم تجد السبيل للوصول الى سمعها، وفي كل مرة أحمر وأخضر، ترتفع حرارة صدغي وتتصاعد وتيرة إيقاع القلب حتى يُهيأ لي أنها تسمعه وتعاندني تلك الكلمة، أحاول جرها إلا أنها تبقى متشبثة بقوة ممسكة بحبالي الصوتية، تخشى السقوط بحروفها الاربعة، الحروف الأصعب، التي لم يجرؤ لساني على جمعها من مواطنها.

توسع عملنا في التهريب وأصبحتُ يد أبيها اليمنى والممثل عنه في صفقات كبيرة إقليمية، وصار لي شأن مهم بين أولئك الناس الذين يمثلون جهات مختلفة وحتى حكومية منها، وأصبح أبي يتملقني لأجل زيادة دراهمه التي ينفقها تباعاً على

زوجة شرهة لا تشبع رغم ذهاب شبابها وجمالها الى غير رجعة، وجدة بالأمس القريب، كانت تطفئ المروحة عندما تراني نائماً ظهراً، فأصحو مبتلاً برائحة العرق والحر سويا... إستكثرت عليّ تلك العجوز حتى نسمات الهواء التي تجود بها المروحة، وعمة قتل إنتظار القسمة والنصيب في قلبها كل الشعور بالرحمة والإلفة فنالت من بينهن وسام البغض والحقارة عن جدارة دون أي وساطة أو حتى توصية.

وحدها ولأجلها تغاضيت عن حقدي وألمي، وتصورت أن الحياة قد إلتفتت لي بعد وقت طويل من الصد والتحاشي، فتشجعت مرة عازماً بعد أن إرتديت أحدث الملابس وصففت شعري الى الوراء، خصلات لامعة مزيتة يرقص لها قلب أي فتاة، حلقت ذقني ذهاباً وإياباً، مررت كفي عليه لأتأكد من النعومة المطلوبة، لمعت الحذاء أكثر من مرة رغم أنه جديد ولم يلمس الارض بعد، تعطرت بأغلى العطور الفرنسية التي تدخل تهريباً من الكويت، ساعتي الفضية ماركة أوميغا، تفحصت نفسي في المرآة من كل الجهات، وكديك عرب مزهو بنفسه، بهي الطلعة والألوان، توجهت الى بيت فضة «ذهب قلبي». وكالعادة هي من فتح الباب من أول دقة كأنها

تعسكر خلف الباب، فواجهتني بابتسامة عريضة تنتهي بغمازتين لينعكس جمالها في عينين باتساع بادية السماوة حدودها، فضاعت مني الكلمات التي إستغرقتُ وقتاً في ترتيب حروفها وجزل معانيها. مع النسائم تمايلت خصلات شعرها الأسود، فتلعثمت فاقداً روح الديك وزهوه وكل ما أستطعت قوله «هل أبوك هنا؟». يبدو أنها هي الأخرى قد فقدت الأمل، ولعبت في نفسها الوساوس والظنون، اذ تلاشت إبتسامتها بصورة مفاجئة وهي ترد محبطة «نعم موجود» لتتركني على الباب ألملم بعضي لائماً جبني ولساني الذي ينعقد عند مرآها... ماذا بك؟ ماذا دهاك؟! هل تنتظرها أن تقوم بدورك؟ ليست هي المرة الاولى... سبق لك وأن رافقت الفتيات وشعر شاربيك لم يبزغ بعد، فما بالك الآن وأنت شاب وسيم تتلفت حوله النساء عندما تراه... ما بالك يا عبد الجبار؟ أهو الحب، الذي تتنفس نسائمه للمرة الأولى في حياتك؟ أهو الحب الذي يتغنى به عبد الحليم حافظ ويردد كلماته بجوى وحرقة الشباب في القهوة؟ هل أصبح مثلهم؟ هل أكون ضعيفاً لتأخذ أمرأة بتلابيب عقلي وقلبي مثل أبي... لا... لا لن أصبح مثله، لن أسلم روحي لإمرأة. يكفيني ما نلته من النساء من عذاب وألم،

ما لي والحب أنا؟ لن أدعه ينتصر عليّ أو يشمت بي، ليس هناك مكان للخسارة في حياتي، فقد دفعت ضريبة ذلك سلفاً وبالعملة الصعبة. «لا تدع الحب يهزمك، إدفن قلبك عند أعتاب هذا الباب، حتى لا يعود الى غيه وضعفه».

(وعاد أدراجة الى البيت دون أن يكلم والدها بشأن رغبته في التقدم الى خطبة إبنته المصون، وإقتصر الحديث كما هي العادة على مشاكل ومعوقات أعمال التهريب التي لا تنتهي).

أي جبان أنا؟ أي فرصة أضعت؟، فرصة لن يسنح بعدها الوقت بالتكرار، فالأشياء الجميلة هي صدف تبرق في سمائنا مرة واحدة، وأنا خوفي دفعني الى خسارتها بشكل تام. حين إحتدم نزاع بين أبيها وبين أحد المسؤلين الحزبيين الكبار، والذي يعرف عن أعماله الكثير ويتقاضى نسبة على غض البصر، وربما طالبه هذه المرة بزيادة النسبة أو شيئاً من هذا القبيل. لم يعلمني أبا فضة عن سوء الفهم وتداعيات النزاع إلا حين طاردنا حراس الحدود والشرطة في إحدى عمليات التهريب التي تجري أسبوعيا تقريباً، أولئك الحراس المترعة جيوبهم بالرشاوي والهدايا حتى جاءتهم الأوامر بملاحقتنا، وفتح النار على الهاربين، فأردت أحدى الرصاصات أبا فضة

وأخذت الصحراء حصتها منه دماً بعد أن ثقبت قلبه. لم أستطع إسعافه أو حمله وما كان عليّ سوى أن أقود السيارة بأقصى سرعتها متجاوزاً مرمى وحدود تلك الرصاصات الغادرة التي توقفت عن ملاحقتي بعد أن أدركوا هدفهم ومبتغاهم، أبو فضة المضرج بدمه ميتاً على الرمال.

إختفيت عدة أيام عن الأنظار في بيت أحد الأصدقاء في الناصرية، لحين إستطلعت الوضع متخفياً بملابس بدوي. وبعثت بعيوني ومعارفي تتقصى الأنباء، كان كل شيء طبيعياً حتى أن حصتي من البضاعة المهربة قد حفظت لي عند ذلك المسؤول الحزبي نفسه، وأنه على إستعداد تام لجلسة كلانا (يرمي فيها نرده). وكان ذلك، وحددت النسب والحصص من جديد وعاد طريق التهريب الى سابق نشاطه وزهوه يزخ الهدايا على القريب والبعيد في المخافر والسيطرات الحدودية.

لم أستطع أن أحضر مراسيم دفن الرجل الأول أو بالأحرى عرابي، وحالما توطدت الأوضاع، قدت سيارتي مسرعاً نحو بيتهم، أتفقد أحوالهم بعد رحيل أبو فضة مكللاً بالعار وبتهمة التهريب. ساخرة هذه الحياة تمجد وتكرم ذوي الأموال والنفوذ

حتى لو كانوا مهربين أو حرامية، لكن حين تسقط ستنهال عليك اللعنات وبأقذر الأوصاف التي لم تسمعها وأنت حي.

إنقبض قلبي وأحسست بثقل في صدري وأنا أطرق باب الحبيبة من أول طرقة، لم يباغتني وجهها المرح الجميل، كررت الطرق معانداً قلبي الذي إشتد في إنقباضه في محاولة مني للفوز عليه. وطرقت بشدة مستدركاً حجم خسارتي، وحجم غبائي.

وبعد السؤال والإستقصاء المطول، علمت أن عمهم قد جاء وأخذهم معه الى البصرة من غير رجعة، وضاعت فضة مع النجوم العالية، وتوغلت أنا في علاقاتي مع النساء، وأبداً لم أحاول ثانية البحث عن الحب أو تقفي أثره بينهن. كنت واثقاً أن السماء لا تجود بأكثر من مرة واحدة، إلا أني كنت مخطئاً وها هي تهطل بكرمها ثانية بعد ربع قرن من التصحر وفقر الحب والعاطفة، فتنبت بادية السماوة من جديد بإمرأة معها شعرت بالألم وأنا إمسك بخناقها، تجرعت طعم الخسارة ولدي كل شيء، إكتويت لا بل إحترقت بنار الحب وألف واحدة تنتظر مني إشارة، إستوطنت روحي الرأفة ومشاعر أخرى ظننتها ماتت مع ذلك الصبي النحيل الرث الملابس والهيأة،

المنزوع من دسم الامومة والحب والمدعم بالقسوة والكراهية التي شدت عوده (وصب لنفسه نبيذاً بكرم فاض عن كأسه وهو يغمغم):

نعم حبلت البادية مرة أخرى لتنجب وفية، المرأة التي صادفتها مصابيح سيارتي وهي تقف في طريقها ملوحة كأنها شبح فر من عقابه، يغطي معظمها التراب، مذعورة إختلط دمها بالتراب، شبه واعية تمسك على يد طفلها بقبضة من حديد، هو الآخر يبدو أنه خرج من قبره تواً. شبه واع حملت هديتي الى البيت، سهرت جالساً قربها، أتمعن بقسمات الوجه الترابية المتعبة، وأنا أسأل نفسي أسئلة لا حصر لها، زال مفعول الشراب على إثرها تاركاً صداعاً قوياً يمسك برأسي. أخذت الممرض الى باب البيت نقدته بزيادة بعد أن فبركت كذبة منَ بها عقلي المتعب وأمرته بتوخي الحذر، وهو الذي إعتاد على مثل تلك المشاوير الليلية مخرجاً رصاصة من رجل هذا المهرب أو كتف ذاك، هي أعمال يقوم بها خارج الأوقات الرسمية لدوامه، يتقاضى عليها الكثير مقابل براعته وحسن تكتمه.

ليس الممرض من تقاضى الأجر وحده، كذلك أنا تقاضيت أجري منها ولو بعد حين، بعد أن عرفت كل قصتها، إذ لم يكن لها من منفذ سوى أن تخبرني الحقيقة، الحقيقة التي خنقتها بها وبسياطها جلدتها... جبان وملعون أنا. كانت هديتي الثانية لكن أغلفتها العتيقة أعمت بصيرتي عنها ولم أدرك أنها هديتي الأخيرة... فرصتي في النجاة، أنها فضة تعود بإدراجها الى البادية اليّ، نافخة في جمر إلتهمه رماد موقد صدىء، ألقي به خارجاً بعد أن حلت المدافئ النفطية محله. كدت أفقدها أو بالأحرى فقدتها حين... حين قبضت ثمن الشهامة والنخوة التي ظنتها بي، فكان ظنها أسوء الظنون وما عادت تلك النظرة الوديعة الممتنه تقطن عينيها، تفتح نافذة الى السماء، منها الدعاء مستجاب، وحلت محلها نظرة قرف وإزدراء. فقدت فرصتي معها، كما فقدت فرصتي الأولى، أنا الأحمق الملعون بفقد من أحب. لم تستطع وفية أن تبادلني الحب، حتى بعد أن أصبحت زوجها وحرمتُ على قدميّ عتبة أي إمرأة غيرها، تخليت عن سلوكياتي وعاداتي غير اللائقة. تركت السهر والطاولة الخضراء وليالي الأنس وكل الملاح، ولا تزال وفية تجفل عند إقترابي منها أو الدنو حتى بالنظرة. تركت لها نفسي

لتبيعها أو تشتريها، فلا باعت ولا إشترت، بضاعة ملقاة لا قيمة لها أصبحت.

حاولت إستمالة قلبها وشراء بعضٍ من حبها وحنانها بالهدايا الثمينة والحلي الذهبية، إلا أن حبها كان أغلى لم أستطع شرائه بكل ما أملك من مال... وفية ليتكِ تعرفين كم أنا نادم فليتكِ تغفرين وتسامحين... أنا لا أملك اغلى منكِ... معك وجدَ عبد الجبار اليتيم أمه، حضنه الدافيء، إسم الدلع «جبوري» الذي تلحف الكفن ولم أسمعه ثانية، معك يا وفية إستعدت طفولة، مُلملماً أشلاءها الممزقة بين نسوه قاسيات تنازعنني شتماً وظلماً وهجراً، كن حجر الأساس لكل علاقتي الخاصة والعامة المبنية على الاستغلال، الاحتقار والطمع.

وفية معكِ ولدت من جديد بلا ذنوب أو سيئات، عرفت ألوان أخرى للحياة غير الأسود والرمادي... وفية عودي الى بيتكِ... الى عبد الجبار الذي يتفيأ بظلال رموشك، ويتوسد صدره كلماتكِ حتى المعنفة والقاسية منها. عودي وفية... عودي وفية.

وإنسلخ في بكاء نديمه الكاس وذكريات لا تفتأ تبارح وجدانه، غاصة بالأحزان والشجون أو الغيض واللامبالاة، حين وقف

بين الناس يأخذ العزاء كالغريب في وفاة أبيه ومن بعده بأشهر وفاة جدته. في الخرقة البيضاء ضم الكفن رجلاً تخشب جسده مثلما تخشب قلبه من قبل، وسده في قبر بعد أن تأكد من صلاحيته وسعته في إستقبال أبيه حيث المثوى الأخير.

كانت في الفناء الخلفي للبيت بعرض متر وطول مترين تتمدد على عمق متر أو أقل بقليل تتجمع فيها المياه القذرة عبر إخدود (خارور) يصل من البيت اليها. منحتني جدتي بتأييد من عمتي وزوجة أبي وظيفة الإهتمام بتلك الحفرة، والإنتباه الى تفريغها من تلك المياه بين يوم وآخر، بواسطة دلو ترفعه يداي الضعيفتان من الحفرة الى خارج البيت في الجدول المجاور. وظيفة شاقة وتزداد صعوبتها في أيام الشتاء الباردة، عندما يتحتم عليّ أن أنزل فيها لأجمع الماء في الدلو ذهاباً وإياباً. وبين تلك المياه القذرة ونسمات الهواء الباردة إعتل البدن وضعفَ، ولازمت صدري كحة مزمنة تشتد وطأتها في أيام الشتاء.

بجدول محكم الدقة لا يقبل الخطأ او التغاضي عن هذا الواجب المقدس، خضت معركتي مع حفرة لا تشبع طماعة. دعوت الله أوقاتاً كثيرة أن أصحو يوماً من النوم وأراها غارقة

بمياهها ميتة، لكن أبداً، تنتظرني كل يوم في موعد لا يؤخرني عنها أي درس أو واجب بيتي إلا حينما مرضت. إرتفعت حرارتي ليلاً، تبقع جسدي، بحبوب حمراء صغيرة إنتشرت على الجلد مسببة هياجاً وحكة مزعجة ظننت أنها حالة عارضة، لكن الوضع تأزم، واتسعت تلك الحبوب مغطية أغلب جسمي، الأمر الذي روع الكل حين رفعت عمتي الدشداشة صارخة تصيح «هذا الولد راح يعدينا هذا الولد...». وأخذت تهرش في جسمها، فاجتمعت العائلة لتصدر بياناً بصورة عاجلة لا تقبل التأخير على فم جدتي التي قالت «خذ إبنك الى أهل أمه... خذه قبل أن يعدينا... خذه الى البصرة وهناك يشوفون له جاره». فإصطحبني والدي الى البصرة وعند بابهم زرعني بعد أن ألقى التحية على عجل، ليقل سيارة أخرى هارباً. لم أشعر بحنانها ولم أشم رائحة أمي فيها رغم أن لي أنف كلب. دهنت جسمي بالدواء الذي وصفه الطبيب ثلاث مرات في اليوم. ألبستني دشداشة أخرى، ضاعت عظامي الناتئة خلفها، يبدو أنها كانت لأحد أخوالي الذين لا أميز بينهم، لكني إستطعت أن أميز طفلاً صغيراً بعمر الرابعة تقريباً فيه شبه الى حد ما مني، وله عينا أمي ونظرتها. حاول

الإقتراب مني بدافع الفضول الطفولي، لكن في كل مرة تنهاه الجدة لئلا يصاب بالعدوى، فيتراجع بضع خطوات بابتسامة شدتني اليه وأذابت بعضاً من جليد البغض والكراهية الذي حملته في صدري تجاهه طوال سنوات اليتم. حتى غيرتي منه تلاشت حين لمحت نظرة ساهمة شاردة في ثنايا عينيه، أدركت حينها أن وشم اليتم قد رُسم على طفولته هو الآخر، رغم عيشه في بحبوحة عاطفية مع أهل أمه، حيث ترعاه جدته بعناية وحب لم توليهما لي رغم أننا من بطن واحدة. لم أستطع فهم برودهم وجفائهم معي.

قضيت الأيام الستة بينهم غريباً، ينزوي في حجرة صغيرة بين الاشياء القديمة المركونة فيها. إلا أن الإحمرار أخذ بالزوال ونشفت البثور، مخلفة بعضاً منها أثراً بني اللون زال مع الوقت. وفي صبيحة اليوم السابع، بعد أن خطفت قبلة صغيرة من ذلك الطفل الباسم الخدين أخي، ترجلت مع جدي وجدتي الى كراج السيارات. كان يغمغم إستياءً من هذه المهمة التي إنيطت به وهو الكهل العجوز، بعد أن رفض أخوالي إرجاعي الى أبي الذي تخلى عن مسؤوليته رامياً إياي في ملعبهم، لاعباً دور الدفاع. الدفاع الذي لم يجد أمام سيل كلمات واتهامات

جدتي التي صبتها مرة واحدة على رأسه الذي جلس مطرقاً به، وهي تولول وتخمش خدها حين إستشعرت بفطرة وغريزة المرأة أن تلك الحفرة التي ترقد تحت الشمس، يدور حولها الذباب في فرح صباحي، هي خلف الجرثومة التي أصابتني، فأمرت أبي بصوت مقرقع أن يردمها. وبالفعل لم تتحرك حتى جاء برجلين ردماها بعد عن أفرغاها من الماء، وأخيراً ماتت الحفرة على مرأى من عيني، مختنقة بالتراب والحصو. ولم يبقَ منها إلا بعض الصخرات كشاهد قبر بعد أن تلاشت حدودها مع الارض، في إستنكار واضح على وجه النسوة الثلاث، جدتي وعمتي وزوجة أبي. لكن لم ينبس أحد ببنت شفة أمام جدتي التي قدمت من البصرة مدججة بالسلاح والذخيرة، ولم تستخدم إلا القليل منها مما إضطرها إلى الرجوع وهي تحمل غلاً في صدرها لم تستطع التنفيس عنه كما يجب بعد أن واجهنها بالصمت والخرس. فعادت بأدراجها بعد أن قلدتني قبلة على الخد ومسحت على رأسي كما يفعل القائد مع جنده، وطلبت مني بصوت متهدج هامس أن أنتبه الى نفسي. كذلك ربت جدي هو الآخر على كتفي وتمتم

بكلمات غير واضحة وكأنه يتلو رقية، فهمت منها أن أكون ولداً مطيعاً وعاقلاً.

نعم سأكون يا جدي غلاماً عبداً لتلك النسوة اللائي مزقن شراع حياتي التي أبحرت نحو المجهول الذي أنتظره... (وأخذ يتلفت يميناً ويساراً، يصيخ السمع، فلا يسمع إلا وقع خطوات الصمت مقتربة، ليزداد خشية وإحباطاً، محمر العينين، متشنج الوجه يعب كأساً آخر في جوفه دفعة واحدة وقد أوشكت القنينة الثانية على النهاية. يرقد في قعرها القليل، ويرقد في جعبته الكثير، يرهف أذنيه مرة آخرى ليصغي الى دبيب وفية الليلي في البيت، وهي تتأكد أن كل شيء في مكانه الصحيح حنفيات الماء مسدودة، وخاصة حنفية المغسلة التي تبقى تسرب الماء نقطة نقطة ما لم تغلقها بأحكام ضاغطة إياها بحركة معينة لا يجيدها أحدٌ سواها. الشبابيك مغلقة، لئلا يدخل القط الضخم ذو البياض المرقط من شباك المطبخ حيث يبقى مرابطاً طوال النهار عند أسفله في الخارج، منتظراً من وفية أن تمن عليه باستمرارمما تطبخ وتعد حتى أفسدته سمنة ودلالاً، وأوغلت في قلبي غيظاً منه وحسداً وأنا ألمحها أحياناً تمرر تلك اليد الحانية الرقيقة عليه فيغمض عينيه دعة واستسلاماً، وأغمض

عينيّ عاتباً على الله أن لم يخلقني قطاً لأنال بعضاً من هذا الحب، أو حتى ديكا ينام في القن بعد أن تطعمهم أول المساء. وددت... وددت أن أكون أي شيء... أي شيء... تمرر وفية أصابعها عليه وتوليه إهتمامها، حتى رضيت أن أصبح واحداً من قدورها التي تقضي وقتاً في دعكها وتلميعها لترقد بعد ذلك على الرف مزدانة فخورة لامعة.

كل ركن في البيت يفتقدها هذا المساء، يلح بالسؤال، يرقب وقع خطواتها المتناغمة وهدير صوتها وهي تردد أذكار المساء والتهجد لله طلباً بالرضا والمغفرة، الأمن والأمان لبلد يسير على عجل داهساً في طريقه الأبناء، مشعلاً قنابل فتنة وغوغاء. تتعوذ كل يوم وفية منها ومن قلبها الذي يقرصها وعينها التي ترف تطيراً بما هو آت.

أضفت على البيت لوناً آخر من الإلفة والراحة والترتيب منذ قدومها، بذلت جهداً أستثنائياً في ترتيب مطبخ هجرته صاحبته سنوات طويلة، فعاثت به الأيادي المهملة للخادمات. نظفت الرفوف وأعادت ترتيبها، جلت الجدران حتى بان لونها المختبئ خلف السخام والدهن. دعكت الأرضيات، طارت المراوح خفيفة من ثقل الاتربة والأوساخ العالقة بها. إستعادت

المغاسل زهوها متفاخرة بسيراميكها الأبيض اللامع. كذلك باشرت الثلاجة عملها، بعد أن فقدت وظيفتها الحقيقية فصارت مخزناً من الداخل والخارج لكل الاشياء حتى الفاسدة منها. طالت يدها القوية وطبعها الجاد كل زوايا البيت التي عشعشت فيها الأتربة وبيوت العناكب معلنة بحقهم الإجلاء الى غير رجعة. وسع البيت صار أكبر، دخله الضوء من نوافذ نسيت خاصيتها في إستقبال شعاع الشمس والنور، بعد أن إعتادت على الصد والزعل.

لم تكتفِ أنامل وفية المعطاء من قلب البيت الى واحة جميلة وسط صحراء الإهمال، بل إمتد زحفها الكريم نحو زوجتي الممددة طوال الوقت على الفراش، فاعتنت بمظهرها، صبغت الشيب النافر وقصت الأطراف، حفت وجهها بالخيط غيرت ألوان ثيابها بالزهري والأخضر. رسمت على شفاهها المشققة إبتسامة بأحمر شفاه خفيف، كحلت عينيها باشراقة أمل. المسكينة إبتسام وجدت أخيراً سعادتها بصحبة وفية، بعد أن عاشت اليتم طوال حياتها لا الزوج عوضها ولا الأبناء. إعتدل مزاجها حتى خلتها فراشة تحط على السرير، بالرفقة إحتملت الأوجاع وآلام الليل الطويلة حتى فارقت روحها بهدوء

وإنشراح حيث يرقد رأسها في حضن رفيقة، رائحتها كرائحة الأم ودفئها، ويد حنون تمسده، فتغرق روحها في فيض من الحنان والحب ووفية تتلو آيات وأدعية «يا أيتها النفس المطمئنة إرجعي الى ربك راضية مرضية».

بقيت غرفة إبتسام على حالها نظيفة لا تطالها يد الغبار أو أرجل العناكب، تعبق على الدوام بعطر الياسمين الذي تحبه إبتسام حتى خلت في مرات كثيرة وأنا أطل من باب غرفتها أني سأراها على الفراش ممددة.

وأخذ يتمتم بصوت متهدج شغوف «وفيه... وفيه، من تراه إمتلك هذه الحكمة والحدس الشفاف؟! حين سماك وفيه، لكل مسمى من إسمة نصيب، إلا أنتِ فقد أخذت النصيب كله من إسمك».

أمين لم يشعر بغياب أمه الكبير، ذلك الغياب المحتم عليهما من البداية فهو مربوط الى كرسي وهي مقيدة الى سرير. وفي ظل حضور إبتسام عوضت وفية ذلك الغياب دفئاً وحباً، وصارت الأم التي يعشقها ولا ينام إلا على هدهدة صوتها وهي تدخله الفراش وتتأكد من الغطاء بعد أن تطبع قبلة فياضة على جبين جف نهره.

أما مأمون ومؤمن فكانا على الدوام يعضان اليد التي تمتد نحوهما بالعطاء، لم يقدرا المعروف، وفرا من البيت بعد أن طال الجناح. أتراني أفسدت تربيتهما، أم أن العرق دساس وهذان الشبلان من ذلك الاسد؟ لا أعلم أين أراضيهما لم ينفع لا الدلال ولا القسوة في تربيتهما. لكن ما عساني أقول أو أتذمر، وأنا أرى واحدة من عقوباتي تمشي على الأقدام وتلك كسيحة على كرسي مرهونة المستقبل بآثام وأخطاء الماضي الكثيرة.

(وصب لنفسه كأساً آخر تجرع مرارته مع مرارة الدموع المنسالة الى طرف فمه، ونفث دخان سيكارته بعيداً عن وجهه المحتقن).

وفية... وفية لا تتركيني الآن، لن يستطيع قلبي تحمل فراقك إنتظري حتى أرحل... الرحلة قريبة وتصفية الحساب آتية، لقد كبرَ أمام عيني وأنا أراقبه عن كثب وأعد عدتي لذلك اليوم، لا تخافي وفية... لا تخافي سأسلم نفسي له كما سلمتك إياها... لن أقاوم، وسأرحل بالموعد الذي يحدده لن أقاوم... أنا بانتظاره مذ خطت قدماه عتبة بابي، مذ لاحقتني عيناه في أحلامي، أدركت خاتمة أفعالي... وهل تكون راضياً؟... نعم سأكون

راضياً بقدري، ذلك الذي ساق لي وفية... وفية المرأة التي جبت الصحراء وإستجديت رمالها حبة حبة لإجلها، لإجل إبتسامة تلمع في مقلتيها، أبيع ما أملك فلا أبقي سوى نفسي وما يعلوها من تراب وحزن.

لن تنسى وفية أن تشملني بعطفها ورعايتها. فأولت إهتماماً كبيراً بغرفة مخلصها، مسحت الأرضية والجدران حتى كدت أرى صورتي فيها، دهنت الأثاث ولمعته، وضبت (كنتور) ملابسي حسب الألوان وأولوية الإستخدام. وكم كنت أشقى حين أعود آخر الليل ببقع حمراء وسوداء على كم القميص أو ياقته، كان يضنيني أن أرى تلك اليدين جاهدة تحاول دعكها. طلبت ودها ورضاها عني وإن تكبرت ولم تهتم لذلك. خشيت إزعاجها أو مضايقتها أكثر مما خشيت من زوجتي، فأجبرت نفسي على العودة باكراً وبقميص نظيف خال من اي شعرة متسللة أو حتى ذرات عطر قد تعلق بي من قبيل الصدفة. إحتطت للغاية وأنا أدخل عتبة بابي كاللص، خائفاً أن تبادرني بالسؤال «أين كنت؟»، السؤال الذي ظل يدغدغ مشاعري ولم أسمعه منها يوماً حتى بعد أن تزوجتها. أبداً لم أعدم الوسيلة، إلا أن كل محاولاتي في إثارة غيرتها أو فضول المرأة

الفطري فيها قد باءت بالفشل، فتعمدت أكثر من مرة التأخر في الرجوع، ثأراً لكرامة وكبرياء سفح عند قدميها دون أن تبالي أو تومئ بإشارة صغيرة من طرف عينها مستفهمة مستفسرة، فلملمت بقايا عناد على كبرياء رجولي في جيب قميصي الذي حرصت عليه كل الحرص أن يأتي نظيفاً بعد أن يقفل الباب خلفه عند آذان المغرب. صرت ديكاً مدجناً يلتزم بمواعيد الدخول الى القن عند أول نداء «الله اكبر... الله اكبر...»

ولم تسألني أيضاً حتى حين عدت في إحدى المرات بعد أن نفد صبر الديك وعاود المشاغبة كنوع من إبراز وإثبات ذكورة تنأى عنها وفية ولو حتى بالسؤال، ملطخ القميص بالتراب وشتى الألوان، مكسور الضلع، تلف الضمادات كاحلي، أتوكأ على ساق حديدية، تنبعث مني رائحة الخمر والتراب، يتقدمني أحد الرفاق يطرق الباب، والآخر يمسك بيدي. لم أصل الى البيت إلا بعد أذان الفجر، لم يسمحوا لي بالخروج، إلا أني وقعت على مسؤوليتي وهربت من قاووش الكسور، بعد أن إنقلبت بنا السيارة في طريق العودة من حفلة أنس. إصطدم السائق نصف مخمور بكلب عبرَ الطريق على

حين غرة، أو ربما أراد الإنتحار من أنثى تجيد الصمت والإحتقار. راقت لي فكرة الإنتحار هذه وتمنيت لو أن قلبي هو المكسور بدل ذاك الضلع الذي حماه وإحتضنه.

هالها منظري، فسررت حين قرأت علامات القلق والتوتر تعلوان وجهها ولا ينطق بها فمها. وهان عليّ ضلعي المكسورة وقلبي المأخوذ بها. توكأت على كتفها إلى حجرتي، لكني فضلت حجرتها تلك التي تقبع في آخر الرواق بحجة قربها من الحمام.

أرقدتني على السرير بعد أن ساعدتني على تغيير ملابسي وهي صامتة، وأنا من يقوم بإخبارها عما حدث كطفل صغير يعترف لإمه متوخياً عطفها والخلاص من العقاب. لم تعقب بشيء على إعترافاتي سوى بإيماءة وهزة رأس خفيفة.

نمت بعد ذلك بدقائق على رائحة وسادتها ودفء شراشفها، يا لي من أحمق مفضوح النوايا والحجج، لكن ما الضير مادمت أهنأ بقربها، ولو أنها إفترشت الأرض ونامت، مفضلة إياها على سرير وثير يتسع لألف أن تلاقت الارواح.

ما بال هذا المشروب، يُقلب الماضي يستدرج الذكريات يعصف برياح الهم والظنون، لن أشتري من هذا النوع مرة

أخرى، ولو أن وفية لا تحبذ الشراب وتكره رائحته عاقصة أنفها حين تلمح الزجاجة. لكني أعدك يا وفية بأني سأكف عن الشرب، فقط عودي لي بخير... عودي بخير الى بيتك، هو موحش دونكِ، تفتقدكِ حتى الجدران. بالي مشغول عليكِ للغاية، لكني أتجنب البقاء قرب كاظم لئلا يضايقه وجودي، فحالما لمحته من فتحة الباب الزجاجية أخليت الغرفة له، إلا أن قلبي لا يتوقف عن السؤال، فكرت أكثر من مرة وعزمت على المجيء الى المستشفى ثانية لكني خشيت من ردة فعل كاظم وما قد يتفوه به أمام الناس. كاظم... كاظم كم ذكرتني بطفولة حاولت تناسيها رغم بصماتها الواضحة على أغلب حياتي وأفعالي، فيك لمحت ذلك الفتى الصغير الحانق المتألم، الضائع بين الصواب والخطأ، الحقيقة والضلال، فخشيت قربك ووصلك، مبتعداً عن تلك السنوات التي جاهدت فيها طويلاً حتى تشبثت بطوق البلوغ والشباب الذي أنقذني من براثن طفولة جعلتني عبداً لأمزجة نساء تتحكم فيها القسمة والنصيب تارة، وإختلال الهرمونات وأزمة توديع أنوثة دون جني أي ثمار تارة أخرى. كاظم... في دشداشتك الرثة المهلهلة أثرت خوف المارد الذي أصبحته، وزعزعت ثقته

بنفسه بتلك النظرة التي تواجهه بها دون وجل أو تردد. لم أستطع الإقتراب منك وإعتبارك طفلاً، فقد رأيت فيك الند والخصم العنيد لي، حسدتك على يتمك، الذي أتاح لك الإلتصاق أكثر بالمرأة التي أحب، أمك وفية. لم أدخل معك في خصومة ظاهرة، فجبال الجليد لا تبدي إلا قليلها، وكنت أشعر بالكثير الذي تضمره لي، لا ألومك أنا، وأتفهم جيداً ماشعرت به حين لمحتني من خلف زجاج النافذة التي لم تحفظ السر، أحمق من يأتمن سره لنافذة باحت به حال مجيئك اليها.

آه... ثم آه يا وفية... لقد عرضت عليك الزواج عدة مرات قبل هذا الموقف المشؤوم، لكن في كل مرة يكون جوابك ألعن من سابقه، وكأسياخ من نار تتعمدين إيغالها في قلبي وأنتِ تغمغمين رافضة بكل جوارحك عرضي «ما حاجتك للزواج من جارية ملك يمينك؟... لم تسألني أول مرة، فلا تجهد نفسك بالسؤال الآن».

بحبي لكِ وتمنعك وصدك لي نلت جزاء أفعالي، عقوبتي الأبدية التي أقضيها شقياً آملاً في صفحكِ ومغفرتكِ. لا أنكر أني أسأت لكِ مستغلاً ظرفك، ولم أمسك يدكِ الموجوعة إلا حباً ببقائكِ وحرصاً عليكِ. ربما كنت أنانياً... لكن في حروب

العشق كل شيء مباح، وأنا الذي خسرت حربي معكِ من أولى المعارك متدارياً خلف درع كبريائي وقسوتي. فكيف عساك يا كاظم أن تفقه ماهية شعوري تجاه أمك أو تفهمه... لا ألومكَ... بل أتقبل قدري شاكراً ممتناً لرمال الصحراء وخطواتنا التائهة الشريدة اذ جمعتني بوفية، بعد أن فقدت الإيمان بالحب وأنا المفطوم على إحتقار النساء وإستغلال ضعفهن... نعم يا كاظم سأتقبل هذا القدر مهما كانت النتائج... مهما كانت النتائج... معها... مع أمكَ، أدركت قيمة الحياة وثمن الإبتسامة التي ترتسم على طرف فمها الندي، وهي ترعى الجميع بفيض حنانها ودفء حبها حتى لدجاجاتها.

ربما حين تكبر أكثر، وتخف حمى الشباب بترياق العقل والنضوج قد تتقبل أو تتفهم مشاعر وهفوات رجل تاب عن معاصيه حين أقبلت عليه الحياة بجزيل العطاء بوفية (وعب في جوفه كأساً آخر من قنينة نفد شرابها للمرة الثانية أو أوشك لتلحق بالأخرى صامتة، أصدق الإعترافات تلك التي تتلى أمام كأس وقنينة شراب).

نعم أهنتكِ وأنت صامتة جاثمة على ركبتيك تتوسلين الزواج بي. ثأرت لكرامة وكبرياء رجل وأنتِ ترفضين عرضه

منقرفة من الفكرة ذاتها. أحبكِ... نعم، لكني من فرط حبي قسوت عليكِ، تمنيت أن تقبلي الزواج بي من نفس راضية، لا تحت تأثير ضغط نظرة كاظم المحتقرة وإنقاذ لأمومة على المحك... لكنك كنت شديد القسوة! تعمدت إذلالها والسخرية منها... نعم لا تذكرني... لن أنسى كيف جثت أميرتي على ركبتيها عند قدمي تتوسل، أي شيطان ركبني تلك الساعة حتى أسمح لدموعها أن تبلل ذلك الحذاء الذي رميته محتقراً له ولنفسي معاً؟ وأنا المأخوذ بها، المتعبد في محراب حبها، لا أعلم كيف حين نحب بقوة نزداد قسوة. أتراها علاقة طردية بين متضادين؟ على العموم، لم تمر بي هكذا معادلة في الدروس التي تخلفت عن الكثير منها، هارباً من سياج المدرسة في زاويته القصية المتهالكة من كثرة الأقدام التي تطأها متسللة خارجة الى مغامرات شبابية مراهقة، الى سياج مدرسة أخرى ذات حظ أوفر، تعبق بعطر أزهار متنوعة وتتكتم على أسرار طالباتها البنات. نعم حتى المدارس لها حظوظ مختلفة، ولطالما وقف هذا السياج أمام أحلام يقظتنا وأمانينا في سبر غور تلك الصفوف والممرات، والجلوس على مقاعدهن. في تلك المرحلة العمرية، كان كل ما يتعلق

بالإناث يشد إنتباهنا، ويحرك مخيلة متوقدة تشتعل كما البنزين والنار بإنتظار موعد (الحله) وإنبثاق أزهار الياسمين عند باب المدرسة، متحينين الفرصة للمسة يد أو (طخة) كتف، وفي أحسن الأحوال رمي قصاصة ورق صغيرة ملتهبة بمشاعر كبيرة، ومواعيد لقاء في إحد الأزقة حيث عيون الأطفال المشاغبة تطاردنا وأحيانا تطاردنا الحجارة. وهذه أكثر الدروس التي بقيت عالقة في رأسي من أيام الدراسة، كانت معادلة الحب والعلاقات سهلة، لا تحتمل كل هذه المنغصات ولا تقبل الخطأ أو الشك. ذلك الشك والحيرة اللذين رافقانا حين كبرنا فتعقدت العلاقات وتلون الحب، حتى ضاع وجهه الحقيقي، الوجه الذي كشفت وفية عنه الطلاء بعد عمر من الضياع، التشرذم والتعثر بوجوه ملونة لا تستجدي منك إلا جيبكَ ولا تستعذب أي رائحة سوى رائحة المال، الذي أغدقته على جيد النساء في علاقة أسمها خذ وهات. وشرطها عرض وطلب، لا مجاهيل ولا متغيرات سوى آثار ألوان أحمر شفاه تشقى وفية بغسلها ودعكها دون أي تعليق أو تذمر، التذمر الذي تحرقت الى سماعه منها ولم أسمعه حتى بعد أن صارت زوجتي...آه تلك هي المعادلة الصعبة التي أطمح الى حل ولو

مجهولاً واحداً منها... وفية الوصول إليك والتوغل في حل الغازكِ، هوغايتي وخالص جهدي وطموحي الذي لن أتوقف عن السير حثيثاً نحوه، نحوك يا وفية.

في الغد إن طلع عليّ نهار فسآتي بك مسرعاً الى البيت أو أظل هناك برفقتكِ حتى لو إضطررت الى الإنتظار خارجاً، قرب النافذة أتطلع اليكِ مطمئناً، بدل الجلوس هنا وإحصاء ساعات تتوالد دقائق وثواني طويلة لا تنتهي... لا تنتهي.

نهض متثاقلاً مترنحاً، مثقل الرأس والقلب في جولة قصيرة بين أرجاء البيت الغاط في نوم هادئ. حتى أمين قرر ترك كرسيه والنوم في سريره وحده منذ سنوات دون أمه وفية تسنده، وترتب الغطاء فوقه بيدين حانيتين تمران على رأسه، طابعة قبلة على الجبين تترك في نفسه الإيمان بان الغد جميل، رغم هذا الكرسي الواقف حارساً عند قدميه أميناً لا يتحرك. وفية هي التي وثقت علاقته بالكرسي بعد سنوات من الاحتقار، وأفهمته أنه قدماه اللتان ستقودانه لتحقيق أي إنتصار، فما عاد الكرسي سجنه، بل جناحا أمل وانتظار لحياة ستهطل بالخير بعد صبر وإصطبار.

دلف غرفة أمين ليعتني بغطائه أو ليقتفي أثر خطوات وفية حنيناً اليها، مستشعراً وجودها في كل خطوة وكل ركن. يعود بأدراجه الى غرفة الجلوس بقنينة أخرى، بعد أن إستفرغ ما في جوفه من الشراب الذي أنهك معدته الفارغة وأطاح برأسه المثقل بالهموم والظنون والإنتظار.

أمين ذلك الرقم الصعب الذي لم يستطع تحقيقه، والجدار العالي الصعب التسلق، فأتسعت المسافة وعلت لبنات الجدار فصار من غير الوارد أن يجمعهما حديث أو لقاء. تجنبه لإبنه وتحاشيه لوجوده كان المخدر لشعوره بالذنب تجاهه، معتقداً أن ما طال أمين من سوء هو بداية عقوبة ربانية وغضب إلهي، فعاقر شرب الخمرة والسهر خارج البيت متأخراً برفقة أصحاب لا يجمعهم إلا ليل وطاولة خضراء، كؤوس شراب ونساء تتحلق حولهم كفراشات جهنم لا تقتات سوى النار.

مترنحاً على فمه زبد شتائم وبقايا أنغام، تحاول إبتسام إدخاله الى غرفة النوم مرتبكة قبل أن يصحو أطفاله على منظر أب فقد تلك الهالة التي يتوجها الأبناء لإبائهم، وإنزوى في درك عيونهم البريئة المتسائلة، ليقتفوا أثر الجواب من خطواته نفسها حين صاروا شباباً. لا يحتفظ أمين في تلافيف ذاكرته

الطفولية عن أبيه إلا تلك الصورة الليلية الغائمة يؤطرها ظلال وشوشات مرتبكة تلتحف ببقايا قعر ليل وخيط ظلام.

ويشفط من جديد الشراب في دفعة واحدة حتى تكاد عيناه تبزغان من محجريهما.

كم هو جميل ذلك الشعور الذي إجترته الذاكرة مرات ومرات ولاكه العقل سنوات ولم يفقد طعمه الحلو وعذوبته، حين وافقت وفية، وربما بعد تفكير مطول وحاجة روحية ماسة للتشكي والبكاء في حضرة المظلوم سيد الشهداء، أن ترافقني الى كربلاء. خرجنا في الصباح الباكر كزوج وزوجة تجمعنا نية السفر ولا تجمع ملابسنا نية اللقاء في حقيبة واحدة. فحزمت كل في حقيبة منفصلة، حملتهما أنا الى السيارة بيد واحدة عن طيب خاطر وإمتنان.

جلست قربي في المقعد الامامي صامتة معظم الوقت، فلم يسبق لنا من قبل أن نتواجد في مكان واحد بهذا القرب وهذه المدة، فوددت أن يطول الطريق أو تلتبس علينا الإشارات والعلامات في متاهة مرورية نقضي أربعين سنة في حل وفك رموزها. صمتها يغريني بألف سؤال وسؤال ولا تنبس شفتاي إلا بكلمات تافهة وبضع ملاحظات عن الطريق، سمعتها وفية

دون أن تعقب عليها بحرف سوى همهمة وهزة رأس وكأنها تلميذة في قاعة الدرس... آه يا وفية... ألم تدركي بعد بأنك مدرستي والمعلم والدرس.

وهناك في الفندق أبرزت لموظف الإستعلامات هوية الاحوال الشخصية، بنشوة وفرح الذين يحصلون على موافقة طلب هجرة الى بلدان بعيدة باردة تقيهم حرارة الوطن وتقلب مزاجه، ليدخل المعلومات ويسلم الينا مفتاح غرفة واحدة بباب واحد وسرير واحد وحمام واحد، لا حقيبتين، حتى الموظف يفهم وحدة هذه العلاقة يا وفيه وأنت مازلتِ تتهربين، ولن أسمح لك مهما تذمرتِ من ضيق السرير أو سخونة ماء البراد أن تعكري صفو شعوري بأنك زوجتي وأنكِ كل المراد.

قضينا ثلاث ليال في كربلاء، أخذتها الى الأضرحة وعند كل ضريح علقت دموعاً، وأدعية وتوسلات.

مشيت الى جنبها طوال الوقت منتشياً، كطفل يمسك يد أمه، يخاف الإفلات وعلامات دهشة وفرح ترتسم في العينين بالوان قوس قزح. ماذا أصابني؟ سألت نفسي مرات عن هذا الأحساس الذي يحلق بالروح ويزيح ثقل كل ما فات، إلا أن نفسي تجاهلت السؤل مرددة «إغتنم الفرصة يا عبد الجبار ولا

تكثر السؤال». وبالفعل سايرتها تماماً، وجلت معها في كل الاسواق والممرات بحثاً عن هدايا لأمين وكاظم وعن قماش ستائر عجزت أغلب محلات الأقمشة عن تلبية طلبها. إستبد بي التعب والضجر ونحن نلف على عشرات الدكاكين والمحلات، وفي لحظة تاهت مني وفية بين وابل من سواد الغيمات، فهرعت أفتش عنها بين الوجوه، أصابني الهلع، وأنا أجري خلف هذه وأتبع تلك. حتى إيقنت أو أقنعت نفسي بالعودة الى الفندق بعد أن تورمت قدماي وضاقت روحي من حصار العباءات السوداء، آملاً أن أجدها بانتظاري في الفندق. عادت بعد ما يزيد على ساعتين تحمل على ذراعيها كيساً يطل منه القماش وعلى وجهها تعابير حزن جديدة، وفي العينين بقايا دمع وحكايا لم تقل، فكظمت غيضي وخشيتي عليها وأنا أسألها بهدوء ظاهري:

- ما الذي حدث؟ لم أستطع أن أتبينكِ بين الجموع!

وبعد تردد قالت وهي تقلب بيدها كيس القماش:

- لا أدري... أظن أني قد خرجت من باب آخر يطل على شارع مختلف. لقد تغير المكان عليّ كثيراً، لم أتصور أني سأتيه بين جنبات مسقط رأسي.

-نعم لقد تغير كثيراً.

وإقتربت بكيس القماش مني، عذرها ودليل غيابها، فتظاهرتُ بالتفهم والإقتناع، وأنا أدرك جيداً أن خلف تلك العينين المحمرتين والقسمات المتعبة سبباً آخر لا تريد هي البوح به، فآثرت الصمت وإحترام رغبتها بالاختلاء بذاتها، والمشي في طرق إشتاقت نفسها الى شم رائحتها ولمس جدران بيوتها العتيقة الرطبة المشققة، الناتئ طابوقها في عدة أوصال. المهم أنها معي الآن، طارداً كل الظنون والمخاوف التي إجتاحت قلبي وعقلي معاً. أمعقول أنها قد هربت مني الى إهلها مستنجدة بهم من سجانها؟ إعتصرت هذه الفكرة قلبي حين ومضت كالنار في هشيم الظنون. فأحسست بنارها تأكل ما تبقى في رأسي من عقل وأنا نازلٌ صاعدٌ من غرفة الفندق الى الشارع عدة مرات كالمجنون، محاولاً عدم لفت النظر اليّ لكن قلبي يغلي كمرجل... لا لن ترحل وفية بعد هذا الوقت، لن تترك أمين وحده، بيتها ودجاجاتها والديك. «وأنت زوجها ماذا عنك؟» وقهقه صوت إرتعدت أوصالي منه وهو يسألني هازئاً «ألست في حسبة وفية؟! أمعقول أن للديك مكاناً في قلبها وأنت لا؟!». أطاحت بي الظنون خلال لحظات حتى لم

تعد قدماي تقويان على حملي والوقوف عند جانب الشارع منتظراً، محترقاً بنيران الشك والغيرة من ديك سأذبحه حالما نصل الى البيت وسآكله منتصراً في وليمة فاخرة، قطعة دجاج مقلي على طبق رز أصفر اللون، تطبخه وفية لي بنفسها. لا أظن أن الديك قد أخافه تهديدي، هو واثق بمدى حب وتعلق وفية به، «مسكين أنا... مسكين يا عبد الجبار، كيف وصل بك الحال هكذا؟! أشفق عليك... أشفق عليك».

وكان طريق العودة الى البيت أشد صمتاً ووجوماً، فوفية لا تزال بسحنة غائمة، أخذت وقتاً حتى إنقشعت. فحمدت الله أن أعادت اليها أعمال المنزل المتراكمة وولعها المرضي بالتنظيف والنظافة أساريرها الهادئة الراضية.

غفا وهو جالس مستند بظهره الى الحائط ممدد القدمين وقربه قناني الشراب الثلاث الفارغة وكأس إنتفض من سوء الاستعمال وكثرته هذه المساء، ناهيك عن أعقاب سكائر طافحة من نفاضة الرماد. ولم يصحُ إلا على النداءات الاخيرة لأذان الفجر، دعك عينيه المحمترين ليتأكد من الساعة المتسمرة على الحائط في واجب تحصي ليلهُ وتقسمه الى ساعات تتناسل دقائق وثواني. أراد أن يخلد الى النوم ثانية،

فما يزال الظلام يعانق النخلات غافياً على سعفها الوثير، لولا صياح الديك في إنتظار تباشير خيوط صبح تأتي معقودة بجنح ليل يكابر البقاء، وصوت دوران المفتاح في قفل باب المطبخ، الذي تأكد من عدم غلقه بالمزلاج هذا المساء. مع الهدوء، يتنامى سريعاً صوت وقع الخطوات العازمة على الإقتراب، فتناهى الى سمعه رعيدها الحاسم. لم يتحرك من مكانه أو يطرف له جفن حين دخل عليه متلفعاً بمنديل أسود لا يظهر منه إلا العينان، وبصوت أجش ويدين مرتجفتين رغم قفازاتها السوداء الصوفية، لكن مصممتين، رفع مسدساً بكاتم صوت وهو يقول مردداً:

- أين المفر؟... أين المفر؟ قد حان وقت الحساب.

وبتنهيدة عميقة ونغمة إستسلام رد عبد الجبار:

- نعم ... نعم لقد حان، كنت بانتظاركَ، بانتظار تنفيذ حكم تأخر أعواماً... أعواماً من الإنتظار والقلق. ومد يده الى القنينة، ليرشف آخر ما تبقى فيها من حياة وأردف قائلاً:

إنزع هذا الغطاء عن وجهك، لستَ بحاجة له، فلطالما لاحقتني هذه العيون، تطلب ثأرها، فخذه الآن كطالب حق لا كقاتل مأجور، وهذا صدري إغرس فيه ما تشاء، لعلنا نستريح، فقد

أتعبنا الإنتظار وتحين فرصة تسديد الحساب... إنزعه... إنزعه ودعنا نواجه قدراً كان منذ تلك الليلة محتوماً... إنزعه فلم يطاردني في حياتي إلا هاتان العينان، لقد قرأت فيهما طالعي وأنا أراقبك عن كثب تكبر، تشتد وتقوى، لتخلصني من ديوني... همومي، فهيا ماذا تنتظر؟ لن أسمح لك اليوم بالتراجع، سدد الى اليسار حيث يقبع قلب ظالم ومظلوم. تعال سدد فماذا تنتظر؟ إبتعدَ الخيال الأسود قليلاً وعبد الجبار يصرخ وينادي عليه تعال... تعال فالأمر يسير، تراجعت الخطوات عائدة مقهقهة بجنون، هزت بقايا ظلمة تتعثر بالنور، وإستل من جيب (قمصلته) زجاجة عطر، راح يرش عطرها بطريقة هستيرية وبصوت مرتعد يردد:

هذا عطرك... هذا العطر اللعين الذي حكم على طفولتي وشد وثاقها الى حقد، وثأر يأكل من قلبي وروحي سنين. هذا عطرك الذي ربض على أنفاسي ولوث كل صفاء، وأنا أشمه، أستنشق ذراته قسراً في حجرة كانت لدي قدس الأقداس.

ومن بين دموع ونشيج بكاء سحب مسدسه من النطاق وأطلق رصاصتين لم تخطئا الطريق الى صدر إستقبلهما بكل إمتنان.

أشعل النار في إحدى زوايا الحجرة، وذهب على إستعجال الى أمين الذي يقف على قدمين ثابتتين قويتين في حلم يراوده باستمرار، فحمله وحلمه في كرسيه، تاركاً خلفهما بيتاً صار وليمة لنار من الحزن والأحقاد.

- تمت -

نادية الابرو

أرواح من رمال

رواية

سطور

الطرق مكتظة بالوجوه الفرحة... وجوه بلون الرعب والحجر... قافلة من الشاحنات... المكان يضيق بالأجساد وكوة صغيرة في الأعلى... رائحة العرق والخوف تبعث على الغثيان... تسير الهوينا تتلوى كأفعى تتوارى من حر شمس الصحراء، الساعات لا تنقضي طويلة... ضفيرة طويلة، وخصلات شقر تتهادى على جانبي وجهها حين كانت تبكي ظننت أن السماء تمطر... صافية بلون السماء، إشتعلت وجنتاها ورداً من شدة الحر لكنها نامت أخيراً مقرفصة تتكئ برأسها على كتف جدتها، ولا تزال تلك الرغبة تتملكني أحيانا كثيرة في إمساك جديلتها الذي ظل طرفها يحثني على اللعب معها، أردت مداعبتها بأناملي، إلا أن أمي أمسكت بيدي وأومأت عيناها بلا، فقبضت يدي على أصابعها لكن عينيّ بقيتا تتابعان لهو تلك الضفيرة... لا أعلم أنا الآخر كم غفوت في حضن أمي؟... «كم تبقى من الطريق؟... إلى أين نحن ذاهبون؟... أمي»، كانت تتصبب عرقاً وحزناً.

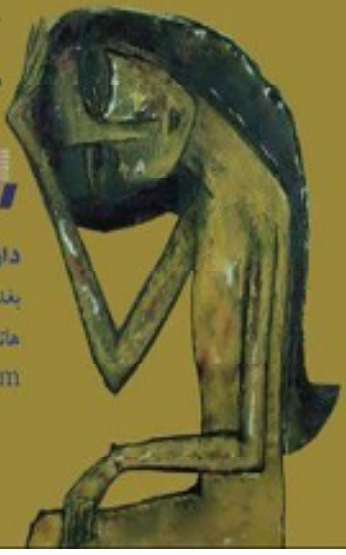

سطور

دار سطور للنشر والتوزيع

بغداد - شارع المتنبي - مدخل جديد حسن باشا

هاتف: 07700492576 - 007711002790

e. mail: bal_alame@yahoo.com

ISBN 978-1-77322-469-5

6 901234 567843